

١٠ قروش

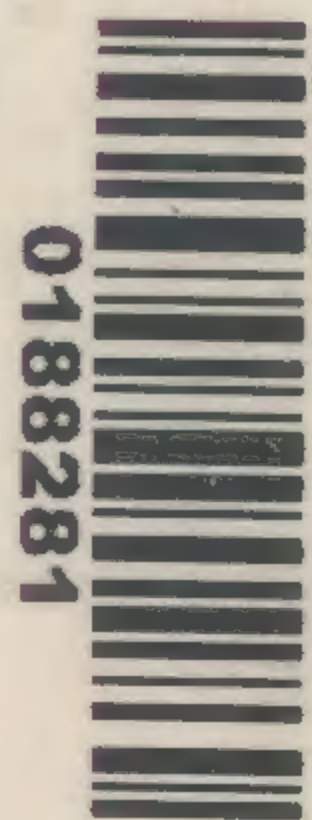
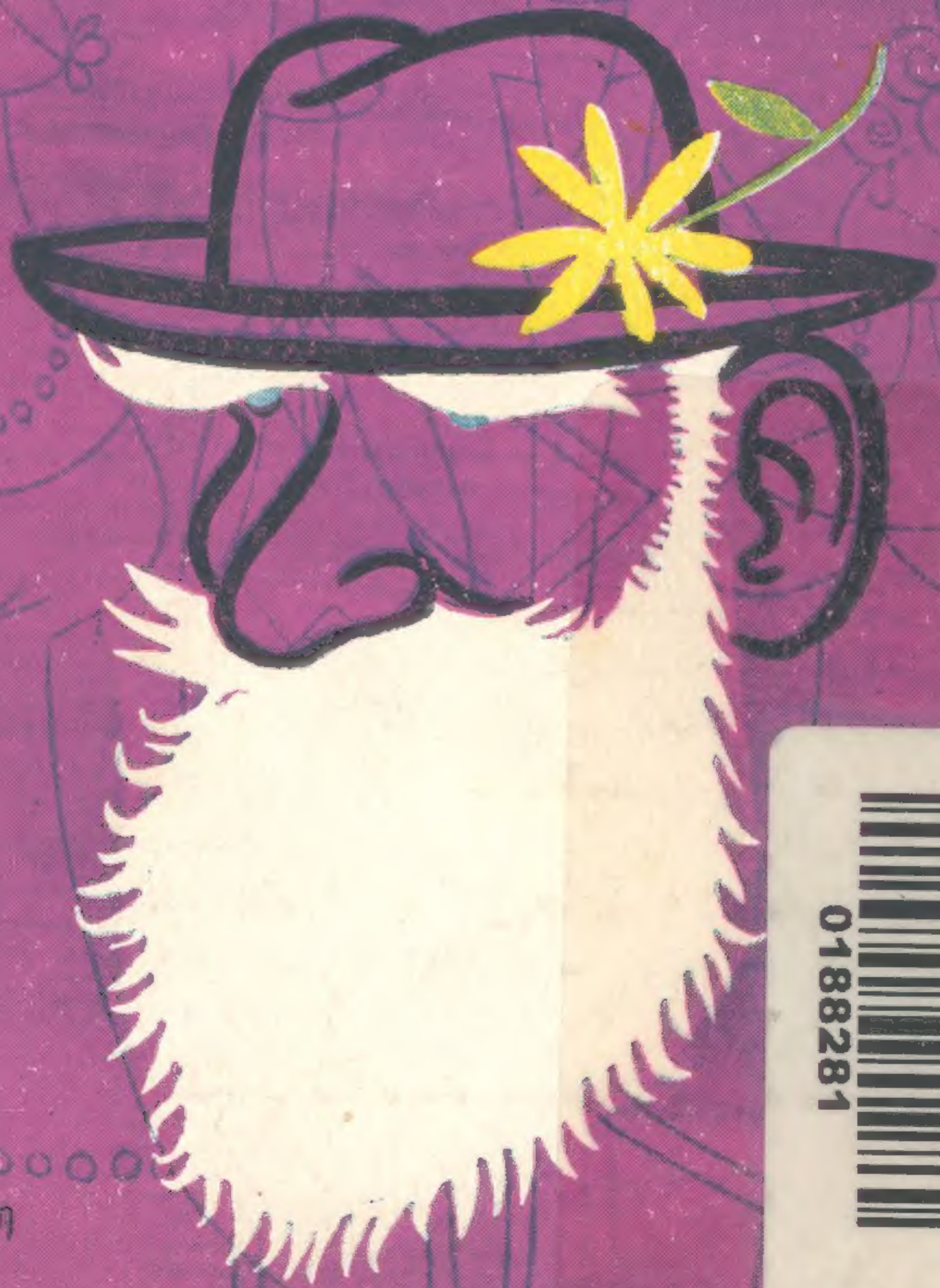
كتاب الهلال



مختارات من برنارد شو

سلسلة
ثقافية
شهرية

الدكتور عمر مكاوي



0188281

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina

المنشور

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٧٠ - محرم ١٣٨٥ - مايو ١٩٦٥

No. 170 -- Mai 1965

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
السليتون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : (١٢ عددا) في الجمهورية
العربية المتحدة جنيه مصري - في السودان جنيه
سوداني في سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا
لسانيا - في بلاد اتحاد البريد العربي جنيه و ٣٠٠
مليم - في الأمريكتين ٥ دولارات ونصف - في سائر
انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ،
ليبيا (سغازي وطرابلس) ١٥٠ مليم ، الجزائر ١٧٥
فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



مكتبة الإسكندرية
كتاب الحلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

مختارات
من برنارد شو
في السياسة والنقد

ترجمة
الكتبة المطبوعة

دار الهلال

مقدمة

لم أعرف أن الاختيار من « شو » الكاتب الموسوعي الذي احاط - أو كاد - بمعارف عصره ، وبلغت مؤلفاته نحو ٣٤ مجلدا منها ١٥ مجلدا مسرحيات عدا رسائله التي نشر بعضها في عامنا هذا ، فبلغت عدة مجلدات أخرى - لم أعرف أن الاختيار منه مشكلة صعبة بل ورطة محيرة إلا بعد أن كابدته .. أنها أشبه بالمشكلة التي تعترض كتاب الموسوعات ودوائر المعارف ، وكلهم يجمعون على أنها ليست في ماذا تختار بل في ماذا تدع . وقد ترجم إلى العربية من مسرحيات شو ومؤلفاته حتى الآن عدد كبير ، وإن كان متناثرا ، في فترة تزيد على ثلث قرن . ولكن ما بقي من شو غير مترجم لا يزال كثيرا وهاما جدا .. فكان أول حرصى على أن تكون « المختارات » - أو أكثرها - مما لم تسبق ترجمته ، ثم أن تكون مطابقة لمقتضى الحال وفى رأى أن من أهم ما كتب شو - عدا المسرحيات ومقدماتها - هو كتابه « جوهر الابسنية » الذى لم يترجم بعد إلى العربية - للأسف - والذى ينبغى أن يترجم بلا إبطاء بعد دراسة كافية ، ويبد أكثر تخصصا واشد تمكنا ، أسوة « بكانديد » فولتير و « حرية » ستيوارت مل . ومن ثم كان أول ماتبادر إلى ذهنى عندما عرضت فكرة

« المختارات » من شو أن اتقل أكبر قدر مستطاع من « جوهر الابسنية » فأخذت منه ثلاثة فصول كاملة .
وانصح القارئ العربى المثقف أن يبدأ بقراءة مسرحيات
ابسن المترجمة - على الأقل - وهى نحو عشر مسرحيات
من أهم مسرحياته حتى لا يفوته الكثير من اشارات شو
وتعليقاته على شخصيات المسرحيات

يقول برتولد برخت عن شوفى «مقالاته عن المسرح» (١) :
« كلنا تصور المراهبى فى صورة الجبان واللمص والمتوحش ،
ولا يخطر ببالنا لحظة أن نسمح له وبأى حال من الاحوال
أن يكون شجاعا - ولكن شو يفعل ذلك » . واحسب أن
برخت قد أصاب بعبارته هذه المرمى تماما وفتح مغاليف
شخصية شو ومسرحه بضربة واحدة ..

فأوقع أن « جوهر الشوثية » على وزن « جوهر
الابسنية » هو أن شو انسان متمرّد يريد التغيير ، تغيير
المجتمع وتغيير الانسان . ولا يقف تمرده على التقاليد
المحافظة فى السياسة والاجتماع والدين والاخلاق والفن
والعلم وكل ما هو « جاهز » سلفا ، بل يتجاوز ذلك الى
ما يسميه البورجوازيون « مثلا عليا » أى القضايا الاخلاقية
المسلم بها ، والتى لا تقبل الجدل أو الامتحان فضلا عن
الخروج عليها أو الانحراف عنها . ان خصوم شو
الالاء هم القطيع السائرون فى الحياة كالهائمين على
وجوههم ، الذين يطفون على سطح الحياة كالقش الذى
يطفو على سطح التيار بلا وعى ولا ارادة ولا حياة -
يفعلون ما يفعله كل شخص آخر ويتركون ما يتركه كل
شخص آخر بلا وعى ولا ارادة ولا حياة ، لان الحياة

(١) Brecht on Theatre اختيار وترجمة John Willet
الناشر Methuen لندن سنة ١٩٦٤

موروث ليصدر حكمه عليه بارادته الحرة الحية الواعية .
ولا تتأثر هذه الارادة بشيء الا بالظروف الموضوعية
المباشرة - كما لا تتأثر ارادة الانسان الواعى الا بالظروف
الموضوعية المباشرة عندما ينزل من بيته الى الشارع
فيقرر هل يسير على قدميه ام يستدعى « تاكسيا » ..

ان شو - مثل ابسن - يريد انسانا جديدا متجددا
سواء في نظرتة للامور ام في تصرفاته قبلها ، يريد انسانا
حرا بمعنى الكلمة اصيلا بمعنى الاصانة ، انسانا يستمد
انسانيته رأسا من قوة الحياة المتطورة المتغيرة التي هي كل
يوم في شأن ..

هذا هو جوهر شو ، وهذا هو جوهر ابسن ، وهو
جوهر كل انسان متحرر . وهذا - في رأيي - هو جوهر
الانسان العربى في هذه الحقبة من تاريخنا بعد ان قطعنا
هذا الشوط الرائع المجيد في طريق تحريرنا السياسى
والاقتصادى والعسكرى والاجتماعى . فان احوج
ما نحتاج اليه في مرحلتنا هذه ان نتحرر نفسيا بمعنى ان
نعود الى انفسنا والى تراثنا العظيم والى تاريخنا القريب
والبعيد - وان ننظر الى هذا كله كما ننظر الى حاضرتنا
ومستقبلنا بعيون جديدة ، وقلوب جديدة ، وعزم جديد .
ولهذا اخترت من كتاب « جوهر الابسنية » على صفرة
ثلاثة فصول كاملة ، ولو اتسع الحيز لزدت ..

ومن العجيب ان شو على معرفة قراء العربية به
- كناقذ موسيقى - ، لم يكن يقرأ له أحد مقالا واحدا
في الموسيقى فضلا عن كتابه الشهير « الفاجنرى الكامل » .
ومقالات شو فى النقد الموسيقى جمعت فملأت ثلاثة
مجلدات . وكان شو يفخر بأنه كان فى صباه المبكر يستطيع
ان يميز اى لحن فى اية حركة من اية سيمفونية مشهورة

بمجرد السماع ، بل كان يصفر هذه الألحان بغمه ، وظل يعزفها على معزفه حتى قبل مماته في سن الرابعة والتسعين . وظل يعمل ناقدًا موسيقيًا في مجلتي «ستار» و « وورلد » أكثر من ست سنوات ، وبلغت مثالاته من الحيوسوية ما جعل بعض النقاد يقولون انها تجعلك - تسمع - الموسيقيين انعطام وهم يقدمون روائعهم بمجرد قراءتك لسطورها . وكان شـو يردد دائما قول شكسبير : ان الشخص الذي لا تملأ الموسيقى وجدانه لهُ شخص غير جدير بالثقة . وعلى هذا - وعلى الرغم من ان معرفتي بالموسيقى لا تتجاوز معرفة المستمع العادي - بدا لي ان من غير الممكن ان تخلو « مختارات من شو » من شيء ولو قليل من نقده الموسيقي . وكان الذي استرعى نظري على الفور مقاله : « فاجنر الثوري » الذي اضافهُ الى كتابه الفاجنري الكامل كرد على الذين انتقدوه لانه اقحم السياسة ومبادئه الاشتراكية على الموسيقى ، وفن الموسيقى هو الفن المجرد الكامل كما يقولون ..

وكان لابد من أن يسبق هذا المقال ، الموضوع الذي دعا اليه وهو عرض شو للحلقة الاولى من رباعية فاجنر الخالدة اوبرا « خاتم النبلونج » وهي حلقة « كنز الراين » كما اخترت مقالا عن تهوفن كتب بمناسبة مرور مائة عام على وفاته ، ولم يخل ايضا من ذلك العنصر السياسي نفسه ولعل في المقالات الثلاث ما يردع دعاة - أو ادعياء - الفن للفن ، واللامعقول ، واللامنتى في بلدنا ، الذي يبني الاشتراكية . اما مافيها من قصور واضح - وخاصة في المصطلحات الموسيقية الفنية - فاني آمل ان يستفز نقادنا المتخصصين في الموسيقى أن يبدأوا ويعيدوا ترجمة النقد الموسيقي لشو وخاصة كتابه الباقي عن فاجنر

وبالنسبة لشو وشكسبير ، اخترت أجزاء من مقالات ومقدمات متفرقة . وهذه هي المرة الوحيدة - عدا خطاب شو انطويل في أمريكا - التي اقتطفت فيها أجزاء من المقالات ولم اترجمها كاملة . وسبب ذلك ان شو كان يدخل في تفاصيل خاصة بالمناظر وبالموسيقى المصاحبة وبتمثيل الممثلين واخراج المخرجين مما لا يعنى القارئ العصري فى شىء خاصة وقد مضى وقت طويل على عرض المسرحيات التى تناولها شو بالنقد . . غير أن أهم مايلفت النظر فى نقد شو لشكسبير انه لا يغض من قدر الشاعر العظيم بقدر ما يغض من قدر عباده ومقلديه الذين يؤلهونه تأليهاً بلا وعى ولا تفكير . فهو يعرف ويؤكد عظمة شكسبير حتى فى أقذع مقالات الهجاء التى كالأها له ، ولكنه كان يؤكد أيضاً ان شكسبير لم تكن له فلسفة واضحة او مفيدة لنا لانه كان يقف على رأس حقبة معينة من التاريخ ، تاريخ الفن المسرحى المتطور . . وهذه الحقبة انتهت ، وان عصرنا يطالب بشكسبير آخر جديد . أما من هو هذا الشكسبير الجديد فقد يكون أبسن أو سترندبرج أو شو نفسه . وقد وصف كلا منهم بأنه شكسبرى حقيقى . وهو فى هذا أمين مع نفسه صادق مع فلسفته فى التطور الخلاق وحسبه معرفة بفضل شكسبير انه كان يحجج الى ستراتفورد - أون - آفون حتى ليقول انها أصبحت مسقط رأس نان له ، وانه يعرف شخصيات شكسبير الثانوية - من صغره - كما لو كانوا من معارفه الاحياء الذين يلقاهم فى الطريق

وحديث شو عن داروين يكشف ضعف شو وقوته معا . . ضعف حجته كلما هاجم العلم والعلماء ، وقوة حجته

كفنان اصيل . ولذلك فالجزء الخاص بالتطور وعلاقته
بالمسرح ، فيه من القوة والاصالة والتمكن ما ليس في
هجومه بل في هجائه لداروين والداروينيين ، كما ان فيه
عرضا تمهيدا لديانته الجديدة التي بلورها في مسرحية
« عودة الى متوشالغ »



اما عن المقالات السياسية فقد اخترت مقالة المساواة
التي كتبها سنة ١٩٤٤ ، وجعلتها فاتحة المختارات لعلها
تساهم في حسم الجبلبة أو - على أحسن الفروض - عدم
الوضوح - الذي نعاني منه بشأن قضية المساواة في الدخل
وهو في هذه المقالة يعالج هذه القضية الحيوية معالجة
واضحة ومركزة ، ويلم بها من جميع أطرافها ، ثم يضعها
في موضعها الحقيقي .. وهي ان مشكلة المساواة ليست
مساواة في الفرصة ولا هي مساواة رقمية في الدخل بين
الناس بل هي مشكلة الحد الاعلى للاجور والمدخل المسموح
به في مجتمع يبني الاشتراكية

واخترت مقالة « عن الفقر » آملا ان يصدر عندنا
تشريع أو ما يقوم مقام التشريع يحرم الدعوة الى الفقر
أو استحقاقه أو الصبر عليه ، بل يضعها في مرتبة
الخيانة لقضية الاشتراكية والحضارة . أقول هذا لانه
يحز في نفسي اننا ما زلنا نسمع مثل هذه الدعوة تتعالى
من فوق بعض المنابر كأنها المرض المتوطن ..

ومقال « مشكلة الارض » نموذج لاسلوب شو
الاستطراذى المحبب الذي ينتقل برشاقة خطو وخفة روح
من اخطر القضايا الى مشكلة شخصية يشرح من خلالها
هذه القضايا الخطيرة بوضوح ووفاء . وهي مقالة مفيدة
في وقت يدور فيه سباق غير عادل بين مدينتنا وقربتنا ..

المدينة تركض وتستأثر بكل شيء أو بأحسن الأشياء
والقرية وراءها تلهث زاحفة لا تنال الا القليل . واحسب
ان هذا السباق سيظل فترة طويلة يمثل اخطر مشاكل
تطورنا الاقتصادي والنفسى ، فبعد ان حقق انتاجنا
الصناعى (انتاج المدينة) تفوقه الحاسم على انتاجنا
الزراعى (انتاج القرية) باستكمال ثورتنا الصناعية الاولى
بقيادة القطاع العام ، وبعد زوال الآثار النفسية والاقتصادية
والسياسية لعقدة اننا بلد زراعى لا نحسن لبرة تشكيلا ،
بعد هذا ستعود مشكلة الارض - وهى فى جوهرها مشكلة
الملكية الفردية لها - لتحتل مكانها الطبيعى وهى مركز
الصدارة من حياتنا ، بانعكاس اثر الثورة الصناعية نفسها
على الارض وعلى مشكلة الارض . وسوف يتضح هذا
خاصة عندما نشرع فى « مكننة » الزراعة وكهربة الريف
كله . . فان اراضى وادى النيل الخالد كانت وما زالت
وستظل من اخصب واسخى اراضى الدنيا

وفى مقاله الفساد فى الدولة « تنبيه وتحذير الى
ان الايمان بالاشتراكية ضرورى لتطبيقها ، وأنه
لا اشتراكية بدون اشتراكيين ، وان التنظيم السياسى
اللى عقدنا العزم على تشكيله - حكومة وشعبا - هو
الضمان الحقيقى لتثبيت دعائم انتصاراتنا الاشتراكية
ويحتوى المقتطف من خطابه الطويل فى امريكا على نقد
لاذع للنظام الرأسمالى الاحتكارى هناك ، واجه به شو
الامريكان مواجهة فى عقر دارهم وفى خلال أسوأ ازماتهم
الاقتصادية الدورية ، فضلا عن انه يشتمل على بعض
التنبؤات الطريفة فى السياسة الدولية عامة ، وعن
الصين بصفة خاصة . .

أما مقالا عن نيتشه وتولستوى ، ففيهما رأى ناضج
واصيل وغزير عن الفيلسوف والكاتب الكبير اللذين

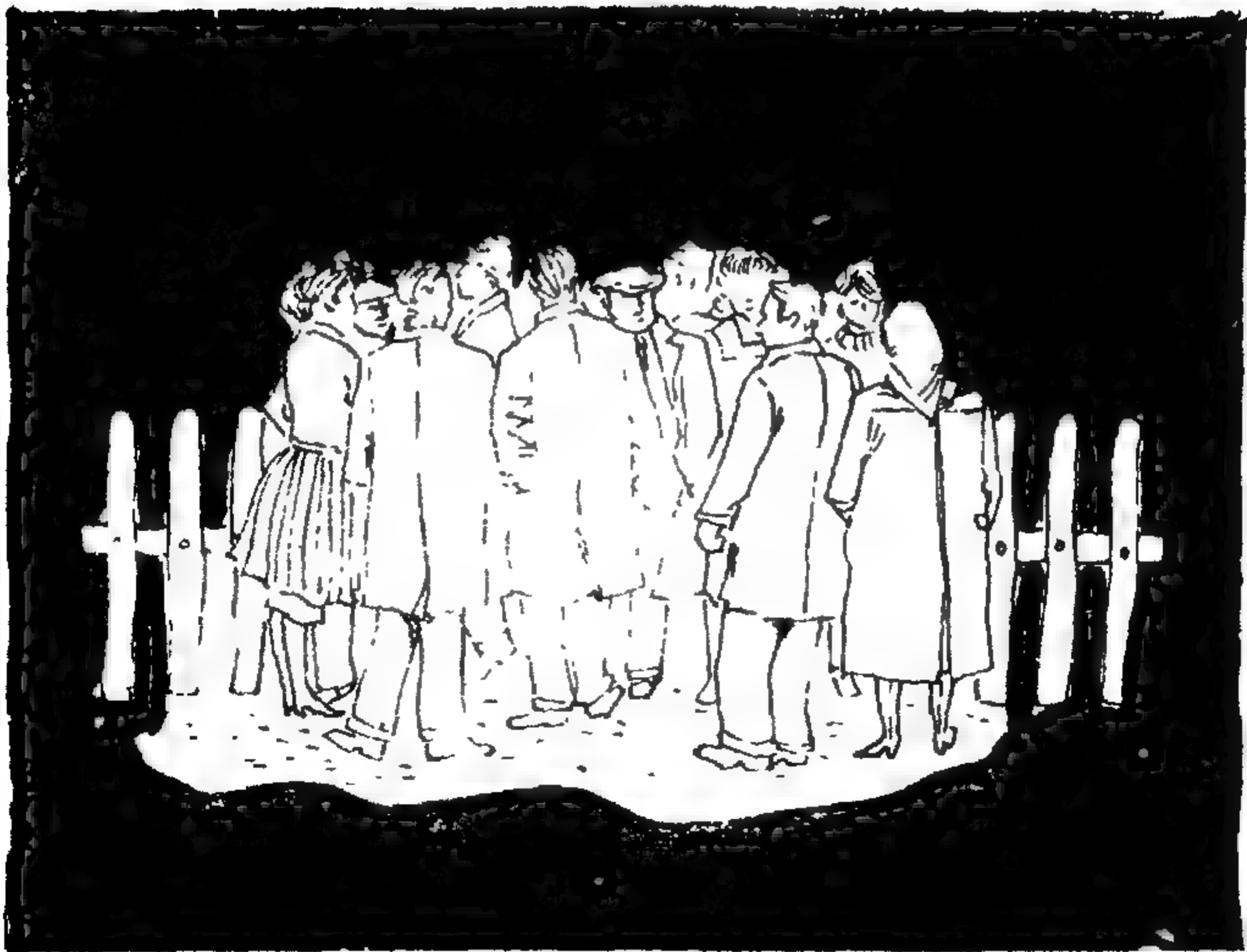
ترجمت أكثر أعمالهما إلى العربية وألفت عنهما الكتب
ويعرفهما المثقفون العرب كل المعرفة ..

بقيت كلمة عن الهوامش .. فقد احتاجت هذه
« المختارات » على صغرها إلى أكثر من ثلاثمائة هامش
وتعليق وإشارة .. ولكنها مع ذلك لا تفي ولا يمكن أن تفي
بالغرض منها . فمازلت اعترف بأن هناك أسماء وأشياء
لم أستطع - رغم جهدي الفردي - معرفة مرمى الكاتب
منها .. فلعل الترجمة الوافية الكاملة لشو تحتاج ممن
هو أولى بها ، لا إلى أن يقرأ ويدرس ما كتب شو وما كتبه
الناس عن شو بل أن يقرأ ما قرأه شو أيضاً وهو شيء
مستحيل على شخص بمفرده . واني أترك هذا النقص
لخبراء الموسيقى والمسرح والأدب العربي والانجليزى أن
يستروه وان يراؤوه . ولا شك انه مما يزيد مكتبتنا
العربية الاشتراكية ثراء ان تعاد ترجمة أعمال شو :
مسرحيات ومقالات وكتب وكل شيء لا مرة بل مرات ..
فاذا نجحت هذه المختارات - على علاتها - في حث اقلام
جديدة متجددة على تناول شو بالترجمة والتعليق والبحث
فانها تكون قد حققت أكثر من الغرض منها

دكتور عمر مكاوى

الفصل الأول

- المساواة .
- مشكلة الأرض .
- شوييحدث عن الفقر .
- الفساد في الدولة .



المساواة

الديموقراطية معناها المساواة ، ولكن ما معنى المساواة ؟
• • واضح أنها لا تعنى أننا سواء كلنا في الموهبة السياسية أو - والحق يقال - في أى موهبة أخرى :
فالتبيعة تقسمنا بقسوة لا ترحم وعناد لا يلين الى خليط مختلط من البشر المختلفين في الموهبة والقدرة والاستعداد :
فيهم نسبة من البلهاء ونسبة من العباقرة • ولكن لما كانت احتياجات هؤلاء الناس الجسدية متساوية ، فمن الممكن تقسيم الطعام والملبس والمأوى بينهم بالتساوى • كما أن كلهم - على السواء - لا غنى عنهم فراش الكابينة مثلا ، على ظهر المركب يحتاج الى قدر اكبر من الطعام ، وملايسه تبلى بسرعة اكبر من أميرال الاسطول الطاعن في السن :
على أننا لو اعطينا كلا منهما دخلا متساويا فسوف تكفل لهما احتياجاتهما لان كلا منهما لا غنى عنه للاسطول على حد سواء - وحياتهما المشتركة المتمدنة جزء لا غنى عنه لحياة الامة وتمدنها بل والحق يقال لحياة العالم وتمدنه • ونحن ندفع لامراء الاسطول الذين هم من نفس الرتبة ،

(*) الفصل السابع من الدليل السياسى للجميع طبعة كونستابل سنة ١٩٤٥ لندن

هرتبات متساوية سواء كانوا أمراء من طراز بنج (١) أم من طراز نلسون ، وتدفع لفراشي الكباين أجورا متساوية أيضا سواء كانوا سراعاً خفافاً أم بلداء ثقلاء ، وكل المجتمعات المتمدنة تتألف في الغالب من طبقات من الناس تتساوى كل طبقة فيما بينها في الاجور والمرتبات، وتتفاوت هذه من طبقة الى أخرى بحسب المستوى المألوف في المعيشة ولا تتفاوت من فرد الى آخر مهما اختلفت شخصيات الافراد ومواهبهم، والواقع اننا لا يمكننا تقدير الفروق في الشخصية وفي الموهبة بحساب النقود : فلا يسع أى شخص مثلاً أن يقر الاوضاع التى تتيح لمستر جوزيف لويس (٢) أن يكسب فى خمس عشرة جولة ، مدة كل منها ثلاث دقائق، أكثر مما يكسبه أنيشتين (٣) فى خمسة عشر عاماً أو أن يصدق أن ما بذله جو من جهة يفوق ما بذله انيشتين بمائة وثمانين ألف مرة ، لمجرد أنه بطل العالم فى الملاكمة . ويستحيل على أى شخص أن يحدد دخل الاثنين بحسب مزايا كل منهما . . . فذلك أشبه بأن يتفرغ شخص لحدى الاسر ويحسب لها الفرق بالقروش والملايم بين قيمة القلاية وقيمة الانجيل

وتتحدد أسعار القلايات والاناجيل ، لا على أساس مزاياها بل على أساس التكاليف الحقيقية لانتاج القلايات والاناجيل ، أى لانتاجها فى أسوأ الظروف وأقلها ملاءمة . وعلى هذا نجد أن الاناجيل أرخص من زجاجات البراندى ،

(١) J. Byng ١٧٠٤ - ١٧٥٧ اميرالى بريطانى أرسل لنجدة الحامية البريطانية فى مينوركا فهزمه الفرنسيون واعتزل وظيفته وحوكم واعدم رمياً بالرصاص . وهو على نحو ما تقيض نلسون

(١١) جو لويس بطل العالم فى الملاكمة

(٢) A. Einstein ١٨٧٩ - ١٩٥٥ صاحب النظرية

النسبية التى تنهض عليها نظرية انشطار الذرة ويعد أعظم علماء هذا العصر . نال جائزة نوبل سنة ١٩٢١

والبذلات أرخص من خواتم الماس مع أن قيمتها الاستعمالية -
أى منفعتها - أكبر الى حد غير محدود . والحل أن تسيطر
الحكومة على الانتاج وتتحكم فيه بحيث تخضعه لنظام
الاسبقية : تبدأ أولا فى انتاج الاشياء المرغوب فيها اجتماعيا
بحيث لا يتمكن أى انسان من شراء خاتم من الماس فى
الوقت الذى يمشى فيه أطفال الامة عراة أو فى خرق مهلهلة،
وأن تعمل الحكومة على ألا يدفع المواطنون فى السلع التى
يشترونها أكثر من متوسط تكاليف انتاجها . وتلك ذروة
عالية من ذرى الاشتراكية أو من المدنية الرفيعة أو من
الانسانية العلمية أو أيا ما تكون التسمية التى نختارها
لها . وقبل بلوغ هذه الذروة يتعين على الحكومة أن توفر
للبلاد فراشين للكباين وأمراء للبحار ، ومن ثم عليها أن
تحدد أجورهم ..

وهنا ما أيسر على أى سياسى ديموقراطى أن يقفز الى
النتيجة التالية : حيث أن أسعارنا جميعا متساوية
لأننا نتساوى جميعا فى تكاليف طعامنا وكسائنا ومأوانا
بصورة لائقة مهما اختلفت قدراتنا ومواهبنا ، فالحل
البسيط المباشر هو أن نمنح جميعا نفس النصيب المتساوى
من الدخل القومى . غير أن هذه النتيجة ستأخذ بتلابيبه
ليواجه حقيقة أخرى ثابتة هى أن تكاليف انتاج أمير من
أمراء البحر أكبر من تكاليف انتاج فراش الكابينة ، وإن
كانت احتياجاتهما كبشر متساوية . فلو أننا نزلنا بهما
معا الى مستوى أقل التكاليف ، توفر لدينا فائض من
فراشى الكباين ولا شئ من أمراء البحر لأن تكاليف انتاج
العامل بصفته عاملا تختلف باختلاف نوع العامل المطلوب .
ففى اليابان تبلغ تكاليف عامل القطن بنسا فى الساعة ،
وتبلغ فى لانكشاير عشرين بنسا . وفى روسيا القيصرية

كانت تكاليف انتاج عامل عادى ٢٤ شلنا فى الشهر ،
ولدينا فى الكومونولث البريطانى عمال افريقيون سود
الوجوه ينتظر منهم المستوطنون حمر الوجوه أن يشكروهم
ويسبحوا بحمدهم لانهم وفروا لهم اكواخا يأوون اليها
وشرائط نحيلة من الارض يزرعونها حدائق ومنوا عليهم
بالرعوية البريطانية وبتعليم مسيحي على أيدي المبشرين
وبثمانية شلنات فى الشهر كمصروف جيب

والان اقول انه لا سبيل لتوفير العدد اللازم من المشرعين
والقانونيين ورؤساء الاعمال والاداريين والاساتذة الجامعيين
والمحامين والاطباء ورجال الدين والفنانين والفلاسفة فى مثل
هذه الظروف : فهؤلاء يتكلفون تعليما وتدريباً وثقيفاً
وحداً أدنى من المعيشة الخصوصية والدمائة والحس
المرهف ، وشيئاً من الفراغ ، وعندما انتوت الحكومة
السوفييتية فى روسيا منح جميع العمال نصيباً متساوياً
من الدخل القومى الذى ينتجونه بعملهم ، تبين لها أنهم
لا ينتجون ما يكفى لمنح كل منهم ما يزيد كثيراً عن خبز
الكفاف الذى كان يكسبه أرخص عامل فى عهد القيصرية .
وواجهت أحد أمرين : اما أن تضاعف الدخل القومى
بنسبة هائلة بحيث تتمكن من منح كل عامل أجراً يهين
له معيشة فى مستوى أرباب المهن الفنية المذكورة سابقاً ،
وهو أمر يستحيل تحقيقه فى التو والساعة ، واما أن
تستغنى تماماً عن أرباب المهن هؤلاء من موظفى الخدمة
العامة من المتعلمين وهو بمثابة نزع مسمار الدنجل من
عربة النظام الشيوعى ، وبالتالي انهياره وسقوطه فى
هوة سحيقة لا أمل له فى الخروج منها . واضطرت
الحكومة السوفييتية اذن ، الى طرح شعار المساواة فى
الدخل جانباً ، واسقاطه من حسابها مؤقتاً ، الى أن
يزيد النصيب القومى المعد للتوزيع ويزيد

ويزيد ، حتى يصل الى مستوى نصيب أرباب المهن الفنية . ومن الممكن بلوغ هذا المستوى ، بل ان بلوغه قريب وعلى هرمى البصر . ولكن الى أن يتحقق هذا الهدف ، تكونت فى روسيا السوفيتية طبقة بيروقراطية وطبقة أرباب المهن الفنية ويتمتع أبناء الطبقتين بإيرادات ودخول تبلغ عشرة أضعاف إيرادات ودخول الحطابين والسقايين

وما أسرع ما يتبين رجل الدولة الذى يهدف الى تحقيق شعار المساواة فى توزيع الدخل ، أن عليه أولا وقبل كل شيء أن يحدد حدا أقصى للاجور يكفى لصيانة الموهبة الفنية ولا يسمح بتبديد أية عبقرية ادارية بحيث لا ينقص هذه ولا تلك وسيلة من وسائل استثمارها وتنميتها الى أقصى حد ممكن لصالح المجتمع . ولما كان هذا الحد الاقصى للاجور يزيد فى أول الامر عن الرقم الذى توصل اليه عندما قسم جملة الدخل القومى على عدد السكان فى البلاد بالتساوى - فقد تعين عليه أن يبقى دخول البيروقراطيين والمهنيين والفنيين عند الحد الاقصى المحدد ، على أن يتحمله الدخل القومى أولا ، وبعد ذلك يوزع الباقي بأحسن طريقة ممكنة جاعلا نصب عينيه تحقيق المساواة فى الدخل مع الحرص على استخدام كل خطة فى متناول يده لمضاعفة الدخل القومى ومضاعفته باستمرار وعلى شريطة أن يستخدم كل زيادة جديدة فى الدخل القومى لرفع الحد الأدنى للاجور الى المرتبة التى تعلوه ثم الى المرتبة التى تعلوها حتى تتساوى جميع المراتب عند الحد الاقصى المحدد فى أول الامر - أى الى أن تتحقق المساواة فى الدخل عمليا ، وان لم يتحقق حسابيا . ذلك أن المساواة الحسابية أو الرقمية فى الدخل ليست هدفا فى حد ذاتها . فقد سبق أن ضاق صدر ستالين بالسياسيين

الذين لم يتعجلوا فقط تطبيق شعار المساواة قبل أن يصبح
فى حيز الامكان فحسب ، بل لانهم فشلوا فى أن يتبينوا أن
هذه المساواة عندما تتحقق عمليا ، ستكون قد فقدت صفة
الاستعجال التى تتصف بها فى الوقت الحاضر . وهكذا
ضاق صدر سبّالين بهم واحتقرهم ووصفهم بأنهم « تجار
مساواة »

وحتى اذا نحن ألقينا نظرة على المجتمع الرأسمالى ،
لرأينا أن هناك مستوى معين لا تكون فيه للمساواة
الرقمية أية أهمية . حقا ان الفرق الطبقي بين صاحب
ايراد مائتى جنيه فى السنة أو أقل ، وبين صاحب ايراد
ألفى جنيه أو أكثر هو فرق شاسع ، بل هوة سحيقة
مدمرة - لان طبقة أصحاب المائتين تتمتع بعنفوان بدنى
هائل وشبق شديد للحياة ، وتتميز بالجد والمثابرة -
اعتادت عليهما منذ نعومة الاظافر ومع ذلك فالفقر قد
حرماها من استثمار وتنمية طاقاتها الطبيعية فى مجال
القيادة والموهبة ، أما طبقة أصحاب الالوف فقد أنهكها
كسلها وتطفلها وحرماها ثراؤها - بنفس الدرجة - من
التزاوج الصحى مع العمال . هذا مع ملاحظة أنه لاوجود
لمثل هذا الحرمان من التزاوج أى الحرمان من فرحة
اختيار الأزواج الصالحين - بين طبقة أصحاب الالوف .
ويتمتع أبناء طبقة أصحاب الخمسين ألف جنيه فى
السنة (أى طبقة المليونيرين) بنفس التعليم ونفس
التربية ونفس النشأة ، كما أن المستقبل مفتوح أمامهم
على قدم المساواة ، وهم يختلطون ويتزاجون فيما بينهم
على قدم المساواة : فهم منضمون الى نفس النوادى
ويأكلون نفس الطعام ويرتدون نفس الازياء ويقطنون
نفس الاحياء ونفس الشوارع فى نفس الضواحي العصرية
للمدن والعواصم . حقا ، قد يملك بعضهم خمسة بيوت

ولا يملك آخرون سوى بيتين لكل منهم . . ولكن الواحد منهم لا يمكنه أن يسكن. الا فى بيت واحد فى المرة الواحدة ، وهم يتعاملون مع نفس المحامين ونفس الاطباء ويشترون من نفس المحلات . وبالاختصار هم مختلطون متزاوجون فيما بينهم . اذن ، ليست هناك غير مزية تافهة جدا فى أن يكون المرء أغنى من جاره عشر مرات ، ويتضح هذا عندما ترى مليونيرين من أمثال كارنيجى وبيرمونت مورجان وفورد وموريس يتنازلون طوعا عن فائض أموالهم ويؤسسون مراكز ومؤسسات روكفلر وادارات للحجاج وما شاكل ذلك للتخلص من أموالهم التى لا يحتاجون اليها ، وليؤدوا بها عملا صالحا

ان الحلم الذهبى للرجل الفقير هو أن تؤول اليه تركة تبلغ قيمتها عشرين ألف جنيه . ولكن هذه العشرين ألفا تجعل الرجل الغنى يسب ويلعن لانها تثقله بمتاعب المطالبة بها واستثمارها . وعلى هذا فالمجتمع كله - عندما ينشأ سائر أبنائه ويتربون فى مستوى خمسة آلاف جنيه فى السنة كحد أدنى للدخل ، سوف يحقق ويثبت الاهداف الرئيسية لمبدأ المساواة فى الدخل ، وشعار المساواة فى الدخل . وحتى فى هذه الحالة ، فسيبقى على الحكومة واجب أساسى ، أن تعمل على ألا تنزلق طبقة من الناس أو طائفة من المواطنين مرة أخرى الى هوة الفقر أى الى مستوى أدنى من الحد الأدنى المقرر، وهذا لا يستلزم منها أن تمنع أى فرد من أن يصبح أثرى من ذلك ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما دام راغبا فى الثراء ويعتقده أن الثراء يستحق التعب والازعاج ، بل لعل الدولة أن ترى تشجيع مثل هذه المطامح كحافز لزيادة الانتاج . وقد وجد الاتحاد السوفييتى أن من المستحيل زيادة الانتاج، أو حتى المحافظة على مستواه الا بعد تطبيق نظام العمل

بالقطعة وتحديد الاجر على أساس انتاج العمل ، على الرغم من أنف « تجار المساواة »

وعندما تبلغ الاشتراكية الديموقراطية حد الاكتفاء في أدوات الانتاج ، والمساواة في الفرصة ، وتوفر امكانية التزاوج الصحي بين جميع أفراد الامة على المستوى القومي - مع الاحتفاظ بالانتاج في سيره الطبيعي بآدئا بالضروريات ومنتهيا بالكماليات ، وتختفي من البلاد أحكام القضاء الظالة بسبب نشاط مرتزقة المحامين ، فان الاشتراكية الديموقراطية تكون قد أنجزت مهمتها . فتلك هي أهدافها الحقيقية ، وليس من بينها ذلك الهدف الرقمي التجريدي الذي يقصده شعار المساواة المطلقة في الدخل . عندئذ ستتم تسوية الفوارق الطبقيّة القائمة في المجتمع ، فلا تحرم أعظم الامكانيات الفطرية في الانسان من ضروريات الحياة وأسباب الانطلاق - ولكنها مع ذلك ستبقى محتفظة بطبيعتها الانسانية بكل ما فيها من ابتكار وطموح ومنافسة . بل ان الطبيعة الانسانية ستكون في أكمل حالاتها ، وسيتوفر لها الرواد الممتازون وفرسان الحلبة الافذاذ كما سيكون فيها أيضا المتوسطون والتقليديون والمتخلفون نسبيا ، كل في مكانه الطبيعي ، وكل يأكل ملء بطنه ، ويتعلم ملء طاقتيه ، ويبلغ أقصى ذروة تحمله اليها استعداداته والجميع قادرون على التزاوج الصحي فيما بينهم بلا حائل او عائق

ان المساواة ، لا يمكن أن تذهب الى أبعد من ذلك

نشو يتحدّث عن الفقر

صورت في شخصية المليونير آندر شافت رجلاً بات يدرك بعقله وروحه ، ومن واقع تجربته العملية أيضاً تلك الحقيقة الفطرية التي لا يمكن أن تقاوم ، والتي نستبشعها كلنا ونرفضها : ألا وهي أن أعظم شرورنا هو الفقر . وأن اسوأ وأخبت جرائمنا هي جريمة الفقر ، وأن أول واجب ينبغي التضحية بكل اعتبار آخر في سبيله هو أولاً وقبل كل شيء ، ألا نكون فقراء . « فقراء لكن شرفاء » ، « فقراء محترمون » : يالها من عبارات لا يمكن احتماؤها أو السكوت عليها ! فضلاً عن أنها منافية للأخلاق الكريمة . أنها تشبه تماماً أن نقول : هو « سكير لكنه لطيف المعشر » أو هو « نصاب لكنه متحدث لبق بعد العشاء » أو هو « مجرم رائع في اجرامه » أو ما إلى ذلك من العبارات . إن أهم شيئين زعمت الحضارة أنها وفرتها وهياتهما للناس هما الأمن والأطمأنينة ولا يمكن أن يتوافر أمن أو أطمأنينة في ظل أسوأ الأخطار على الإطلاق : خطر الفقر ، عندما يتسلط

(*) من مقدمة مسرحية « ميجور باربارا » بعنوان انجيل آندر شافت طبعة بنجوين سنة ١٩٦٠ - ترجمت المسرحية في بيروت ، وعرضت في البرنامج الثاني للاذاعة العربية ولكن النص لم ينشر مطبوعاً »

على رأس كل انسان، وحيث لاتعد الحماية المزعومة التي توفرها الحضارة لنا ولاشخصنا من اعمال العنف والعدوان ، الا نتيجة عرضية لوجود قوة بوليسية مدججة بالسلاح ، بينما المهمة الحقيقية الملقاة على عاتق هذه القوة ليست الا ارغام الرجل الفقير على أن يبقى ناظرا الى اطفاله الصغار وهم يتضاغون من الجوع ، وناظرا في الرقت نفسه الى الكسالى العاطلين وهم يتخمون كلابهم المدللة بطعام قد يطعم اطفاله من جوعهم وينفقون عليها أموالا قد يكسوها من عرى

والعجيب ان من اشق الامور على الاطلاق ، أن تحمل الناس على أن يدركوا أن انشر شر . مثال ذلك أن نلقى القبض على أحد الرجال ، فنوقع عليه عامدين متعمدين ، جزاء منكرا وضررا بالغاً بالزج به في السجن سنوات مثلا والمفروض أن هذا الضرر البالغ المتعمد يعد من قبيل القسوة الشيطانية وان الاعتراف بذلك لا يحتاج الى درجة غير عادية من جلاء الذهن ووضوح الرؤية . ولكننا في انجلترا نلاحظ ان مثل هذا الاعتراف البديهي ، يثير حملة الدهشة والاستغراب يتلوها تبرير بان الضرر الذي أوقعناه بالرجل ، انما هو جزاء وفاق او حكم عادل او اى شيء اخر لا غبار عليه ، وقد تتلو هذا التبرير محاولة حماسية للادعاء باننا اذا لم نرتكب يوما أمثال هذه الافعال الضارة الغبية بمن نسميهم لصوصا ومجرمين ، اى بتوقيع احكام السجن والحبس عليهم ، فسوف نسلب وننهب ونذبح ذبحا في مضاجعنا ونحن نيام . وحتى لو كان هذا صحيحا - وهو ليس بصحيح - فلا فائدة من انكار اننا باستبدال جرائم نرتكبها نحن بجرائم نعاني منها ، انما تستسلم للامر الواقع ونعترف على انفسنا بالعجز وقلة الحيلة

ومثال آخر : مرض الجدري شر منكر ، ولكن اذا قلت اننا بازاء مرض الجدري مخيرون بين أحد امرين أحلاهما مر : اما ان نخضع ونستسلم للمرض واما ان نقضى عليه بحزم ، وذلك بالقاء القبض على جميع المصابين بالمرض ومعاقبتهم بالتطعيم الواقي منه ، اذا قلت هذا ضحك الناس منى ، لانه لا يوجد من يستطيع ان ينكر ان النتيجة ستكون وقف انتشار الجدري الى حد ما لاننى حملت الناس على تجنبه بزيادة عنايتهم بانفسهم وبمن حولهم ، وستزداد ايضا نسبة الوقاية الظاهرية من المرض لاننى ارغمت الناس على اخفائه بلهفة شديدة خوفا من العقاب . ومع ذلك فسوف يتوفر لدى الناس - يوما ما - من الحكمة والبصيرة ما يجعلهم يدركون ان نشر الجدري عن عمد عن طريق التطعيم - هو عمل شرير ومنكر ينبغى صرف النظر عنه والبحث عن غيره من الاجراءات الصحية ذات الطابع الانساني الخالص (١) . والحالة التى تقابل هذه ، حالة الرجل يقتحم على بيتى ويسرق مآسات زوجتى : المنتظر منى بداهة ، ان اسرق من عمره عشر سنوات وأن اذيقه طوال هذه السنوات العشر صنوف العذاب . فاذا حاول الرجل ان يفلت من انتقامى البشع باطلاق الرصاص على ، شنتقه خلفائى من بعدى . وخلاصة النتائج التى توحى بها احصائيات البوليس تشير الى اننا نوقع اشنع الاضرار باللصوص الذين نقبض عليهم لا لشيء الا لندفع بقيتهم الى اتخاذ كافة الاحتياطات الفعالة حتى لا ينكشف امرهم ويقعوا فى

(١) يندد شو هنا بالتطعيم الاجبارى ومضاره المحتملة على اساس انه عدوان غاشم على حرية الانسان لانه كان من كبار انصار الرفق بالانسان وبالحيوان ومن كبار خصوم تشريع الكائنات الحية . وله فى مقدمة مسرحية « حرية الطبيب » الفصول الإضافية عن ذلك

ايدينا ، وهكذا بدلا من انقاذ ماسات زوجاتنا ، اذا بنا
ننقص كثيرا احتمالات استردادها هذا اذا كنا سنستردها
على الاطلاق ، ونزيد احتمالات اطلاق الرصاص علينا اذا
دفعنا حظنا العاثر لازعاج اللص اثناء تأدية عمله

ما اكثر ما نبعثر احكام السجن والتعذيب بالحبس
الانفرادى وعلى السرير الخشبي (١) ، وبالجلد، ذات اليمين
وذات الشمال فى نزق اجرامى على المرضى المصابين بعجز
خلقى او بنشاط عصيانى . ولكن هذا النزق الاجرامى
ليس شيئا اذا قيس بالسفاهة التى تحتل بها الفقر
ونصبر عليه ونطبق وجوده بيننا كما لو كان الفقر دواء
صحيا مقويا للكسالى ، او فضيلة ينبغى التحلى بها كما
كان يتحلى بها القديس فرانسيس (٢) ، اذا كان الرجل
بليدا ، فليبق فقيرا ، واذا كان سكيما فليبق فقيرا واذا
لم يكن جنتلمانا فليبق فقيرا ، واذا كان يتعاطى الفنون
الجميلة او العلوم البحتة بدلا من تعاطى التجارة والمال
فليبق فقيرا ، واذا اختار ان ينفق شلناته الثمانية عشرة
التي يكسبها فى المدينة كل اسبوع او شلناته الثلاثة
عشرة التي يكسبها فى الريف كل اسبوع ، على بيرته
واسرته بدلا من ادخارها لشيخوخته ، فليبق فقيرا .
الشخص الذى لا يستحق ، لا يأخذ شيئا ، وليبق فقيرا
ان الفقر جزاؤه العادل ، وهنا يمكن القول ايضا - وان
خرج الكلام عن الموضوع الى حد ما - طوبى للفقراء !

والان ، لننظر فى عبارة «فليبق فقيرا» وماذا تعنى . ان
معناها ان يبقى الرجل ضعيفا ، وان يبقى جاهلا وان يبقى
نواة للأمراض وبؤرة للابوثة ، معناها ان يبقى معرضا

(١) يقابله « البرش » فى سجوننا

(٢) القسيس المتقشف مؤسس مذهب الفرنسيسكان

قائما لا تغلق ابوابه ، للقدارة والدمامة ، معناها أن يبقى
اطفاله مرضى بالكساح من سوء التغذية وان يبقى هو
لثيما دنيئا رخيصا يجبر وراءه رفاقه في الفقر الى مستواه
اللثيم الدنيء ، يبيع نفسه بثمن بخس ليخطف منهم عملهم
ويؤديه بدلا منهم ، معناها ان تبقى بيسوته عششا من
الصفيح تحول مدائننا الى اكوام مسمومة من القمامة
الكريهة ، معناها أن تبقى بناته مريضات بأمراض
الشوارع يعدن بها شبابنا ، وان يبقى ابناؤه موغرة
صدورهم لينتقموا من الامة كلها بتحويل رجالها الى
خنازير وضعاء وقساة ومنافقين وبلهاء ومرضى بالعم
السياسى أى يجنون كافة الثمار الاخرى الويلة
للاضطهاد والظلم وسوء التغذية ، معناها ان يبقى « الذى
لا يستحق » لكى يصبح اقل استحقاقا ، وان يبقى
المستحق ليكدس لنفسه لا كنوزا فى الجنة بل فظائع
وأهوالا فى جهنم على ظهر هذه الارض . فاذا كان الامر
كذلك ، فهل من الحكمة والعقل حقا ، ان يبقى انسان ،
انسان واحد فقيرا ؟ ولو كان الانسان لصا ناجحا او
مقتحما للبيوت او منتهكا للحرمت او قاتلا سفاكا الى
اقصى الحدود التى تسعها بواعثه الانسانية - وهى حدود
مهما تراامت فلا قيمة لها نسبيا فى هذه الاتجاهات -
الا يكون اذاه وضرره اقل من ذلك بعشر مرات ؟ لنفرض
اننا الغينا جميع العقوبات المفروضة على مثل هذه
الجرائم ، وقررنا اعتبار الفقر كبيرة الكبائر ، والجريمة
الوحيدة التى لا نطبق وجودها بيننا ، ثم قررنا قتل كل
شخص بالغ يقل دخله السنوى مثلا عن ٣٦٥ جنيها قتلا
هادئا بلا ألم ولكن بلا تردد ، وقررنا تغذية وتسمين
وكساء وعلاج كل طفل جائع نصف عارى بالقوة الجبرية،
الا يعتبر هذا خطوة جبارة نحو تحسين وتقدم نظامنا

القائم الذى دمر حتى الان هذا العدد العديد من الحضارات والمدنيات ، ويقوم الان كما هو واضح - بتدمير حضارتنا هذه بنفس الطريقة وبنفس الاسلوب ؟

ترى هل هناك اصول لمثل هذا التشريع فى نظامنا البرلماني الحالى ؟ اقول ان هناك تشريعين من هذا القبيل يمدان جذورهما فى التربة السياسية وقد ينمـــــوان ويستويان بشكل ظاهر الى شىء له قيمة : احدهما تشريع قانونى ينص على وضع حد ادنى للاجور والاخر خاص بمعاشات الشيخوخة . ولكن هناك خطة افضل من الاثنين واحسن : منذ وقت مضى ، ذكرت موضوع معاشات الشيخوخة وضرورة التوسع فيها حتى تشمل الجميع بلا استثناء ، امام احد زملائي الاشـــــتراكيين هو كوبدن - ساندرسون الفنان الشهير فى فن تجليد الكتب والطباعة قال كوبدن - ساندرسون : « ولماذا لا تكون المعاشات للجميع وطول العمر ؟ » وهكذا بضربة معلم واحدة ، وضع الحل للمشكلة الصناعية كلها . نحن فى وقتنا هذا نقول للمواطن بصراحة فظة : « اذا اردت الحصول على مال ، فاذهب واكتسبه . » كأن الحصول على المال او عدم الحصول عليه مسألة خاصة به وتعنيه وحده بينما لا نقدم له اية ضمانات حتى ولا فرصة اكتساب المال : على العكس نحن قد نظمنا صـــــناعتنا بطريقة جعلناها تعتمد اعتمادا مكشورا ومفضـــــوحا على جيش احتياطي من العمال المتعطلين ، ليكفلوا لسوق العمل « المرونة اللازمة » ان طريق العقل والحكمة ينبغى ان يكون طريق كوبدن - ساندرسون : اى ان نعطي كل رجل ما يكفيه تيعيش عيشة طيبة من اجل تأمين المجتمع ضد أى احتمال لظهور حالة واحدة مصابه بذلك المرض الخبيث - مرض الفقر ، ومن ثم نضمن لــــكــــل رجل

بالضرورة أن يكسب ما يكفيه

اما اندر شافت - بطل مسرحية ميجور باربارا - فهو ببساطة انسان عرف حقيقة الفقر وادرك انه كبيرة الكبائر وجريمة الجرائم ، وعرف بعد ذلك عن يقين ، أن المجتمع قد خيره بين أحد أمرين : اما ان تبتليه بالفقر ، واما ان يمارس تجارة مربحة في أدوات الموت والدمار . وعلى الفور ، فطن اندر شافت الى ان المجتمع في الواقع لم يخيره بين ممارسة رذيلة مربحة مدرة للمال ، وبين التخلق بفضيلة التواضع والتناعة ، بل جعله يختار بين عمل تجارى مزدهر ، وعار يضع صاحبه في صفوف الجبناء . وهكذا سلك اندر شافت سلوكا يصمد بجدارة للاختبار « الكانتى » (١) ، الذى لم يصمد له سلوك بيتر شيرلى (٢) ، الذى هو من نطلق عليه اسم الفقير الشريف . أما اندر شافت فهو ما نسميه الغنى الوغد - شيرلى هو عازر واندر شافت هو دايفز (٣)

ومهما قيل من قول ، فان ما فى العالم من شقاء انما يرجع الى ان الاكثرية الساحقة من الناس يفعلون مثلما يفعل بيتر شيرلى «عازر» ويؤمنون بما يؤمن به . ولو أنهم فعلوا مثلما يفعل اندر شافت «دايفز» وآمنوا بما يؤمن به ، لاندلعت ثورة انسانية خيرة ، لا يمكن تقدير مدى ما تنطوى عليه من خير . فيقول اندر شافت ان سعى المرء وراء الثراء ، هو عندى مسألة شرف ، وانا على استعداد لقتل فى سبيلها وللمخاطرة بحياتى نفسها من اجلها . هذا الاستعداد لان تقتل وتقتل « يا قاتل يا

(١) سيوضح شو كنه هذا الاختبار في موضع تال من المقال

(٢) الشخصية التالية فى المسرحية : الفقير الشريف

(٣) Lazavus and Dives شخصيتان فى انجيل لوقا

الاصحاح ١٥ يمثلان الشحاذ والغنى

مقتول ، كما يقول اندرشافت ، هو الاختبار النهائي
 للاخلاص . ان اندرشافت هو من طراز فراوسارت (١) مؤرخ
 القرون الوسطى الذى كان يرى فى حياة السلب والنهب
 حياة طيبة بل هى النموذج الامثل للحياة الطيبة ، ولم
 تتخذ أوصاله بمشاعر الجمهور التى تستنكر القتل
 والنهب ، لان هذه المشاعر يغذيها ويحملها اناس قد
 يقتلون هم اذا لم يقتلوا ، ولا يخذعون بالمديح الزائف
 الذى يكيله الاغنياء للفقراء وقناعة الفقراء لانه مديح لا
 يتجاوز اطراف الالسنه ، فهم الاغنياء الذين يمتدحون
 الفقراء وهم العصاة الذين يستحثون الفقراء على طاعة اولى
 الامر ، وهم العاطلون الطفيلون الذين يسرقون الفقراء
 بدون شجاعة ، ويأمرونهم بدون تفوق . لقد وضع
 فراوسارت نصب عينيه ان يحيا حياة طيبة ، وجعل ذلك
 واجبه الاول الذى يأتى قبل الواجبات الاخرى جميعا
 والتى هى فى رأيه ليست واجبات على الاطلاق بل شرو
 محضة اذا ما تعارضت مع هدف بلوغ الحياة الطيبة .
 وهو عندما فعل ذلك ، كان سلوكه يتسم بالشجاعة
 ويستحق الاعجاب ، فاذا ما حللناه التحليل النهائى ،
 أمكن اعتباره سلوكا انسانيا مشربا بحب المجموع ومتفقا
 مع الصالح العام . أما مجتمع العصور الوسطى فكان من
 الناحية الاخرى يسلك سلوكا سيئا بالغ السوء عندما نظم
 اموره بهذا الغباء الشديد أى عندما جعل من الممكن فراغ
 الحياة الطيبة عن طريق السطو والسلب والنهب . ولو
 كان جميع معاصري الفارس يتمتعون بما كان يتمتع به من
 شجاعة وحزم وإرادة قوية ، لكان طريق السطو والسلب
 والنهب هو اقصر طريق الى حبل المشنقة . وهذا ينطبق

(١) J. Froissart ١٢٢٧ - ١٤٠٥ الكاتب الفرنسى الذى سجل
 احداث وأحوال أوروبا فى القرن الرابع عشر فى يومياته Chronique

غلينا تماما فى وقتنا الحاضر : فلو كنا نتمتع بما يثمن به اندرشافت من شجاعة وحزم ووضوح فى الرؤية لكنت أية محاولة يبذلها أى شخص للعيش مما يسمى « الايراد المستقل » هى اقصر الطرق الى غرفة الاعدام . ولكن شكرا لبلاغتنا السياسية وجبننا الشخصى « وكلتا الخصلتين من ثمرات الفقر الوبيلة ، ان قضت تقاليدنا المثلى بان اول شرط للحياة الطيبة ، هو ان يكون للانسان « ايراد مستقل » يعيش منه دون ان يعمل . ومن ثم يهدف جميع المعتلاء الى أن يكون لهم مثل هذا « الايراد المستقل » حريصين بالطبع على اضمفاء الصفة الشرعية والاخلاقية والقانونية عليه ، وعلى سائر التصرفات والافعال التى تؤدى اليه ، والمشاعر والاحاسيس والافعال التى تدور حوله ، حريصين على مساندته والدفاع عنه باعتباره احد الدعائم الاساسية التى نهض عليها بناء المجتمع . والا ، فماذا يمكنهم ان يفعلوا غير ذلك ؟ انهم يعرفون بالطبع انهم لم يصبحوا ولم يكونوا اغنياء الا لان الاخرين فقراء . ولكن لا حيلة لهم فى الامر : فالواجب على الفقراء أن يرفضوا الفقر عندما يكرعون منه كفايتهم . وفى وسعهم ان يرفضوه بسهولة : أما مظاهرات الدعاية القائلة بغير ذلك ، والتى يشنها الاقتصاديون والقانونيون والاخلاقيون والمتبعون أهواءهم من الذين استأجرهم الاغنياء للدفاع عنهم او من الذين يتبرعون بها مجانا بدافع من سفاهة مجردة او دناءة صرفة ، هذه المظاهرات لا تنطلي الا على الذين يريدون أن تنطلي عليهم ، ولا تخدع الا الذين يلذ لهم أن يخدعوا

ثم ان طبقة اصحاب « الايراد المستقل » ليست بالطبقة المتماسكة الثابتة فى الدفاع عن قواعدها . وسبب ذلك اننا لسنا عصابات من قطاع الطرق كالتى كانت تسرح

وتمرّح في العصور الوسطى في بقاع شبه خالية يقطنها سكان متفرقون . فان الفقراء الذين تنهبهم ونسطر عليهم كثيرون منتشرون ، وفقرهم منتشر كالوباء يحول بيننا وبين الحياة الطيبة التي نضحى بهم من أجلها . فنجد أغنياء وارسستراطين يتمتعون بأدراك متطور للحياة ، رجالا من أمثال راسسكين (١) ، ووليم موريس (٢) ، وكروبوتكين (٣) ولديهم شهية اجتماعية هائلة وآمال شخصية من العسير اشباعها ، فهم لا يقنعون بمنازل جميلة يسكنونها ، بل يريدون مدنا جميلة ، ولا يرضيهم أن تتحلّى زوجاتهم بالماسات والجواهر وأن تكون لهم بنات يانعات كالزهر ، بل يشكون مر الشكوى لان الخادمة ليست مهندمة الثياب ، ولان الغسالة تفوح منها رائحة الخمر ، والخياطة مصابة بالانيميا ، ولان كل رجل ياقونه ليس صديقا ، بل كل امرأة ليست بظلة في قصة غرامية . انهم يشمخون بأنوفهم اشمئزا من مجارى الجيران العطنة ، وتجيش نفوسهم بغضا لهندسة البيوت المجاورة لبيوتهم ، ولا تسرهم النماذج التجارية التي صممت لترضى أذواق الاجلاف «ولا يسعهم هم أن يحصلوا على غيرها» ، ولا يستطيعون النوم أو الجلوس في راحة على أثاث خرطه النجارون كما لو كانوا قد ذبحوه ذبحا ، الهواء نفسه لا يطيب لهم تماما ففيه الكثير من دخان المصانع ، ثم انهم يطالبون بعد ذلك ، بأشياء تجريدية

-
- (١) J. Raskin ١٨١٩ - ١٩٠٠ كاتب وناقد بريطاني تقدمي
 (٢) W. Morris ١٨٣٤ - ١٨٩٦ شاعر انجليزي ورجل اعمال
 فاجح . واشتراكي ومصلح اجتماعي له شأن . وان كان شمسو يدرجه تجاوزا - في صفوف الشيوعيين « انظر الفصل الثاني »
 (٢) Prince. P. Kropotkin ١٨٤٢ - ١٩٢١ الامير الروسي
 والزعيم الفوضوي الكبير . آراؤه الفوضوية امعن في التطرف من « تجار المساواة » الاشتراكيين

كـالعدالة والشرف والوسط الاخلاقي النبيل ، وأن تجمع
الناس علاقة صوفية بدلا من علاقة الدرهم والدينار . ثم
يعلنون في نهاية المطاف أنك اذا سطوت وسلبت ونهبت
بيديك وعلى صهوة جوادك وأنت لابس زردك الحديدى ،
فقد تعتبر حياتك فى وقت من الاوقات حياة طيبة ، أما
السطو والسلب والنهب بأيدي رجل البوليس والمدعى
العمومى والجندى ، ونقدهم على ذلك أجرا شحيحا ،
فليس من الحياة الطيبة فى شىء ، بل انه ليقضى على كل
امكانية لاية حياة يحتملها أو يتسع لها صدر انسان . ثم
انهم يهيئون بالفقراء أن يثوروا، وما أن يتبينوا أن الفقراء
قد فوجئوا بل صدموا بدعوتهم هذه التى تنبو عنها أخلاق
« الجنتلمان » ، حتى انقلبوا على الفقراء ، ونفضوا ايديهم
يائسين من البروليتاريا ، وانها لوا عليها ينتهرونها
ويعيبون عليها قناعتها المعينة للمعونة (Verdammte
Bedurfnislosigkeit Keit)

غير ان هجومهم على المجتمع على هذا النحو ، ظل على
اية حال يفتقر الى الوضوح ، لان الفقراء لا يشاطرونهم
اذواقهم ولا يفهمون شيئا من انتقاداتهم للفن ، ولا يريد
الفقراء الحياة البسيطة ولا الحياة الحافلة بألوان الجمال،
بل على العكس يريدون ان يتمرغوا فى كل ألوان المبادل
الباهظة النفقات مما تزور عنه فى غضاضة نفوس النخبة
المثقفة من الاغنياء . وشفاء الفقراء من تكالبهم على الحلوى
الرخيصة غير الصحية لا يكون بالتقشف والتعفف بل
بالتخمة والاكتظاظ ، فما يمقته الفقراء ويخجلون منه من
صميم قلوبهم ، هو الفقر والحرمان . ومن حماقة ان
تطلب منهم أن يتشاجروا على الفرق بين عدد عيد الميلاد
الممتاز من مجلة لندن نيوز المصورة وبين كلمسكوت

ثشوسر ، فهم يفضلون النيوز : كما أن الفرق بين ملابس
سمسار البورصة المؤلف من قميص رخيص رث وياقة
منشاة ، وبين ملابس وليم موريس المؤلف من قميص غالى
الثلث مصبوغ باللون الازرق بعناية فائقة ، هو فى نظرهم
فرق مخجل وشائن ومزدر بموريس . واذا ما نشب بينهم
نزاع بهذا الشأن على الاطلاق ، فانهم يقفون مدافعين عن
الياقة المنشاة وقميصها ولايسها . والشعار الذى يرفعه
الارستقراطيون شعار : « اطرحوا عنكم ثركم ايها العبيد ،
لكى تصبحوا دجالين » ليس بالشعار الذى يستنفر الناس
لحمل السلاح ، ولن يكون احسن حالا لو استبدل
بالدجالين كلمة القديسين . فكلتا الكلمتين تعنيان رجالا
عباقره ، والرجل العادى لا يريد ان يحيا حياة العبقري ،
بل يفضل أن يحيا حياة «الكولى» (١) البسيط اذا لم يكن
بد من الاختيار بينهما . اما ما يريده الرجل العادى فعلا ،
فهو المزيد من النقود . ومهما التبست عليه الامور فهو
أمام الرغبة فى مزيد من النقود ، يقف واضح الرؤية غير
ملتبس عليه . قد لا يفضل او يفضل مسرحية ميجور
باربارا على تمثيلات درورى لين الصامته ، ولكنه يفضل
دائما وفى كل الاوقات ، خمسمائة جنيه على خمسمائة
شلن . .

والآن ، اذا أخذنا تستنكر تفضيله هذا للمال على ما
عداه ، واعتبرناه لؤما فيه وانحطاطا ، وعلمنا تلاميذنا أن
الرغبة فى جمع المال اثم مبين وكبيرة من الكبائر ، فكأننا
نتحمل ونحمل الآخرين معنا أكبر مسئولية فى الافتراء
والكذب والنفاق . ان اهتمام الناس بالمال وجمع

(١) Cooly لفظة يطلقها المستعمرون على المواطن من أبناء
المستعمرات الذى يقوم بأخطر الاعمال نظير لقمة العيش

المال هو احدى الحقائق الساطعة التى يرجى من ورائها الخير فى حضارتنا الراهنة ، واحدى النواحي السليمة فى ضميرنا الاجتماعى . المال هو أهم شىء فى الدنيا ، انه يمثل الصحة والقوة والشرف والسخاء والجمال كما يمثل الحرمان من المال ، المرض والضعف والعار والشح والدمامة تماما وبنفس الدرجة من الوضوح والتأكيد . وليست أقل مزايا المال ولا أهون فضائله أنه يقطع دابر سفلة الناس ويستأصل شأفتهم ، بقدر ما يعزز جانب الشرفاء ويزيدهم شرفا . ان المال لا يصبح لعنة الا عندما يرخص عند بعض الناس الى شىء تافه لا قيمة له ، ويغلو عند آخرين الى شىء يستحيل عليهم الحصول عليه ، وبالاختصار لا يصبح المال لعنة الا فى الظروف الاجتماعية الغبية التى تصبح فيها الحياة نفسها لعنة ، لان الاثنين معا : المال والحياة لا انفصام بينهما . المال هو العداد الذى يجعل عملية « توزيع » الحياة ممكنة ، بل انه الحياة نفسها كما أن الجنيهاً وأوراق النقد هي الاموال ، وأول واجب على كل مواطن ، أن يصر على الحصول على المال بشروط معقولة ، وهذا لا يتفق مع الحاصل الآن : فنحن نعطي للرجل ثلاثة شلنات مقابل كده وكدحه عشر أو اثنتى عشرة ساعة ، ونعطي رجلا آخر ألفا من الجنيهاً بلا مقابل . ان حاجة الامة الصارخة ، ليست الى أخلاق أفضل أو الى خبز أرخص أو الى العفة أو الى الحرية أو الى توبة الاخوات المساقطات والاخوان الساقطين ، ولا الى بركة المولى تعالى والى روح المحبسة والاخوة الروح الثالوث المقدس . . لا . ان حاجة الامة هي بكل بساطة : الى القدر الكافى من المال . والشر والاثم والرديلة التى ينبغى تشديد النكير عليها ليست الفاحشة أو الجشع أو الطمع أو خزعبلات رجال الدين الكهنوتية

أو ألعيب الملوك السياسية والديماغوجية أو الاحتكار أو الجهل أو الخمر أو الحرب أو الطاعون أو أى شيء مما يعتبره المصلحون كبش الفداء .. لا . ان ما ينبغى على الأمة أن تشدد النكير عليه بكل بساطة : الفقر

رجع بصرك كرة واحدة بين أطراف الارض ، ثم لتثبته على هذه الحقيقة الواحدة الواقعة تحت أنفك مباشرة ، وعندئذ من تحريك آراء آندرشافت أقل حيرة فيما عدا احساسه الدائم بأنه لا يزيد عن كونه أداة فى قبضة قوة الحياة التى تستخدمه لتحقيق أغراض أوسع وأرحب من أغراضه هو . فاذا حرك هذا منه ، فحيرتك ترجع الى أنك تمشى فى ظلمات داروينية زائفة (١) ، أو أنك تهيم فى دياجير الغباء المجرد . ان جميع المتدينين - بشرط أن يكون تدينهم تدينا حقيقيا ونقيا - لديهم هذا الاحساس نفسه الذى يحس به آندرشافت . وهم يفهمون ويعلمون آندرشافت المتصفوف ، وكذلك من الطبيعى بل من المحتوم أن يفهم آندرشافت ويقدر موقف وآراء ابنته العضو فى جيش الخلاص هى وحبیبها الجمهورى تلميذ يوروبيدس . وعلى أية حال ليس هذا بالجديد على خشبة المسرح : ان الجديد فى المسرحية - على حسب عامى - هو ورود آية معينة فى انجيل آندر شافت تنص على أن المال هو أول شيء يحتاجه الانسان ، وعلى أن الفقر هو أخس خطيئة يرتكبها الانسان والمجتمع

وبطبيعة الحال ، لم أتوصل الى هذا المفهوم الدرامى هكذا فجأة وبلا تمهيد ، ولا أنا استعرتة من نيتشه أو من أى انسان مولود وراء القنال الانجليزى . لقد ظل صمويل

(١) يقصد الايمان بمبدأ الانتخاب الطبيعى والبقىء للأصلح وهو ما يرفضه شو « انظر فصل شووداروين »

بطلر (١) الذى يعد فى دائرة اختصاصه ، أعظم كاتب انجليزى ظهر فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ظل فى ثبات ومثابرة يتفت فى الدين روح الاسقف لود (٢) الذمية وما فيها من وجدان حى وما تدعو اليه من تأكيد فضيلة الاهتمام الدائم الجاد بالمال وقيمة المال . ومما يكاد يدفع المرء الى اليأس من الادب الانجليزى أن يرى تلك الدراسة الفذة للحياة الانجليزية فى رواية « طريق كل البشر » التى نشرت بعد وفاته ، لم تترك فىنا الا اثرا ضئيلا . . ضئيلا لدرجة اننى عندما قمت بعد بضع سنين بوضع تمثيلات فيها من آراء وأفكار صمويل بطلر الحرة نصيب واضح ، وهى افكار ذات بصيرة نافذة الى أعماق المستقبل ، لم أقابل الا بلفظ مبهم وضجة غامضة عن صلة هذه الافكار بابسن ونيتشه ، وأكاد أحمدهم لم يقولوا شيئا عن صلتها بالفرد دى موسيه (٣) وجورج صانده (٤) .

(١) Samuel Butler ١٨٣٥ - ١٩٠٢ احد كبار الروائيين الانجليز فى القرن التاسع عشر . أهم أعماله *Way of all flesh* طريق كل البشر « ترجمت » *Erehwon* وهى مقلوب كلمة *No where* وفيها ينقد القيم الاجتماعية المعاصرة وخاصة علاقات الاء بالاء

(٢) Bishop W. Load مولود فى ١٥٧٣ بتجلترا وكان كبير أساقفه كثر برى ومصلحا دينيا وبعد ثورة كرومويل البرلانية البورجوازية حوكم وقطعت رأسه فى برج لندن

(٣) Alfred de Muset ١٨١٠ - ١٨٥٧ الشاعر والكاتب المسرحى الفرنسى . أصدر كتاب الدراما الرومانسيين . والرومانسية هى اشد ما أعلن شو عليه الحرب فى تقده الادبى . أهم مسرحياته *Un caprice : Le chandelier*

(٤) Aurore Qupin أو جورج صانده ١٨٠٤ - ١٨٧٦ الكاتبة الفرنسية الرومانسية التى انتحلت اسم رجل . أهم رواياتها : *Lelia Valentine Indiana* وقد اتهمت بالانحراف الجنسى والدعوة الى حرية الحب . من عشاقها موسيه وشوبان

الواقع أن الانجليز لا يستحقون أن يكون لهم رجال عظماء .
فهم يتركون بطلر يموت مجهول الاسم تقريبا ، بينما
يقودهم شخص مثلى - أنا الايرلندى الذى لا وزن له اذا
قورن ببطلر - من خطامهم حتى يذيع اسمى وصييتى ،
ويعلم عنى فى كل مكان لدرجة أن أصبحت حياتى نفسها
عبئا على - وفى صقلية شارع اسمه فياصمويل بطلر .
وعندما تقع عليه عين السائح الانجليزى فهو اما أن يتساءل
قائلا : من يكون صمويل بطلر هذا بحق الشيطان ؟ . .
فاذا كان أكثر علما ، تعجب عن الدافع الذى حـدـا
بالصقليين أن يخلدوا ذكرى مؤلف هوديبراس (١)

على أية حال ، المرء لا يمكن أن ينكر تلهف الانجليز
على الاعتراف بالعبرى بشرط أن يتكبرم شخص ما ،
ويكتشفه لهم ويعرفهم به . ومادمت قد اكتشفت لهم
نفسى ، وعرفتهم بها ، واصبت بذلك شيئا من النجاح
فهانذا أقدم لهم صمويل بطلر واثقا من أن الاقاريل التى
سنسمعها سواء عن الجدة والابتكار أو عن الاصل الاجنبى
الذى استقيت منه الافكار التى تتخذ سبيلها الان الى
المسرح الانجليزى فيما يكتبه الكتاب الاشتركيون من
مسرحيات ، سوف تقل وتقل بالتدريج ، فى المستقبل .
ان بين ظهرانينا كتابا احياء لهم ما كان لبطلر من اصالة
وقوة وابتكار ، ولكن لا تكتشف تلك الحقائق عنهم الا
بعد ما يموتون . والى أن يحين حينهم أتوجه اليهم بهذه
النصيحة : أن يزدادوا استمساكا بمزاياهم ، وأن يعتبروا
ذلك جزءا لا يتجزأ من صميم عملهم

(١) Hudibras رواية شعرية هزلية على نسق دون كيشوت .
وهى من تأليف صمويل بطلر آخر . عاش ما بين ١٦١٢ - ١٦٨٠

مشكلة الأرض

ترى ما رأى أهل المدن فى مشكلة الأرض الزراعية اذا ما احتكموا الى المنطق والعقل السليم ؟ يتلخص رأيهم فى المشكلة ، فى أن الفلاح يجب أن يملك الأرض التى يفلحها : فاذا لم تكن الأرض أرضه ، واذا لم يكن له أن يصد عنها الواغلين والقانون من ورائه يحميه ، فكيف يطمئن الى أنه سيضع يده على محصوله ويستهلكه ؟ اذن فلنسمح له من كل بد أن يملك قطعة أرضه ، وأن يصد عنها الواغلين - وفى هذه الحالة يروج الفلاحون كل بحسب جهده واجتهاده وأمانته ، وبالاختصار بحسب ما يتمتع به من شخصية طيبة واستعداد طبيعى مقابل العمل الفنى الصعب الذى يقوم به . واذا لم تتحسن حالة الرجل واسرته ماليا - فى مثل هذه الظروف ، كان لنا أن نستنتج ونحن مطمئنون أنه اما أخطأ فى اختيار مهنته وعليه فى هذه الحالة ان يجرب حياة المدينة ، واما ان فى تركيب شخصيته مسمارا قلقا فى غير موضعه ، ومن ثم

(*) من الدليل السياسى للجمعية طبة كونستابل لندن سنة ١٩٤٥

فالفقر والفشل هما جزاءه الحق . هذا هو منطق الاخلاق
الفطرية البدائية التي كان يتخلق بها مزارعو الارض من
الرواد الاوائل ، وهي أخلاق عملية الى حد كبير وان
ادى تطبيقها الى نتائج فاجعة في الاراضي التي ما زالت
فيها مناطق خصبة متساوية في خصوبتها ومتاحة بلا
مقابل لكل من يضع يده عليها

وما نعاني منه الان ، هو استمرار بقاء هذه الاخلاق
البدائية بعد أن أصبحت الحقائق تناقضها مناقضة صريحة
في كل موضع : فلم يعد الفلاحون العصريون يروا في
أرض بكر ، جاهزة لهم لوضع اليد عليها ولم يعد في
وسعهم العثور على فدان واحد من الارض بلا مقابل ،
أو على درجة متساوية من الخصوبة مع فدان آخر ، بل
الحق يقال لم يعد في وسعهم العثور على أرض زراعية
صالحة على الاطلاق . ومع ذلك لا يزال الفلاحون الذين
يضطرون للعمل ست عشرة ساعة في اليوم ليسددوا ما
عليهم من ايجار وصرائب وفوائد مستحقة على مرهوناتهم
يتباهون ويقولون لك بجدية تامة ، انهم مستقلون وسادة
أنفسهم ويتمتعون بالحرية السياسية التي لا تقدر
فوائدها بثمن ، وأن الحكومات الاجنبية التي ألغت الملكية
الفردية في الارض لابد أن تكون حكومات برابرة طغاة ،
متعطشين للدماء ، وان من واجبنا نحو حضارتنا ، أن نشن
الحرب عليهم وأن نجتث مبادئهم البشعة من عقل الانسان
وقلبه . يتعلم الفلاحون هذا في البيت وفي المدرسة عن
طريق الصحافة والراديو والبرلمان ومن افواه قضاة المحاكم
وخطباء المنابر الذين يستمعون اليهم أيام الانتخابات

وهم في هذا حسنو النية : اذ يعتقدون بصدق أنهم
يدافعون عن الاساس الاجتماعي الذي ينهض عليه شرف

الفرد والمجموع ، وترتكز عليه كل الاخلاق الكريمة . مع أنهم فى الواقع يقفون فى صف الكسل والضياع والبذخ الخبيث والتطفل والفقر والكذب وسائر الشرور والمخازى التى تسير فى ركاب الملكية الفردية الانانية لمصادرات الثروات والخيرات العامة . ولكن دعنا لا ننسـدفع فى التشاؤم السياسى ونقول انهم لا يحصدون الا ثمرة اثمهم وغباثتهم وحمقهم . لانك اذا انشأتهم ودربتهم كفلاحين جماعيين يدفعون الربح والايجار للدولة من اجل الصالح العام كما يدفعون الضرائب لها الان ، فان نفس الدوافع الاخلاقية التى تجعلهم الان من غلاة المحافظين المتعصبين ، ستجعل منهم بلاشفة أقحاح . وروسيا السوفيتية أثبتت صحة ذلك

ولكى نفهم المشكلة - كما ينبغي أن تفهم ، لابد من استيعاب هذه الحقيقة - حقيقة ان الارض ليست براحا غير محدود من حيث الكم ولا هى متساوية فى القيمة من حيث الكيف فى كل البقاع . فالارض تتفاوت من فدان الى فدان بحسب موقعها : ابتداء من اراضى البناء الواقعة على النواحي الهامة فى مدينة لندن حيث تقاس بالقدم المربع ، الى الصحارى الجرداء التى لا يستطيع انسان ان يقيم صلبه عليها . وفى نطاق حدود الجزر البريطانية توجد بقاع ساحلية ينحسر عنها المد ، ويتمكن الاهالى من التقاط قطع الفحم بلا مقابل ويحملونها معهم الى بيوتهم فى قوارب مسطحة ، كما توجد مناجم للفحم بعيدة الغور ينحت فيها الانسان الصخر الى اعماق بعيدة ليستخرج الفحم بعد مشقات باهظة النفقات ، وقد يستغرق حفر النفق منها عشرين سنة ، ثم ينقل الفحم بجهد شديد الى البحر من عمق قد يبلغ أميالا تحت سطح البحر . هناك أراض تفيض سمنا وعسلا ، وأراض تفيض بالبترول ،

أو مرصعة بالماس أو تتلاقى فيها عروق الذهب وتشتبك ،
وفي الدورادو أراض من جميع الانواع وتقع كلها جنبا
الى جنب : الصحارى التى لا تبل رمالها قطرة ماء ،
والمستنقعات التى تتفشى فيها الملاريا والاحراش التى
تجوس فيها النعابين السامة والفهود أكلة لحوم البشر .
وفي اجمل بقاع الارض : ايرلندا الغربية واسكتلندا ،
حقول من الصخور الحجرية الصلبة التى لا تكفى اشق
الجهود المبذولة فيها ، لتوفير خبز الكفاف للفلاح ما لم
يحصل لنفسه على عمل موسمى فى مكان اخر كاحد عمال
الحصاد . وعلى جانبى طرق الضواحي الزراعية ، تتفاوت
ايجارات البيوت من ميل الى ميل بتفاوت اجرة ركوب
الترام أو الاوتوبيس أو السكة الحديدية المؤدية الى أقرب
سوق أو مركز تجارى . واذا كانت الايجارات تتفاوت
ما بين شلنات معدودة فى الاسبوع الى ألوف مؤلفة فى
السنة فما ذلك الا لان الارض تتفاوت فى درجة الخصوبة
او قى قربها من الاسواق او فى مزاياها وعيوبها المختلفة
من كل لون . وليست هذه ارائى الخاصة فى مشكلة
الارض ، ولكنها حقائق ثابتة دامغة كحقيقة وجود نسوة
بين ظهرانينا يربين أولادهن اليوم من اعانة الحرب التى
تدفع لهن وقدرها جنيهان فى الاسبوع يدفعن منها ١٤
شلنا فى الاسبوع ايجارا للسكن الذى يأويهن ويأوى
أولادهن

ولو أنك قسمت جميع الاراضى فى بلد من البلاد الى
قطع منفصلة ووزعتها كاملاك على الذين يشغلونها او
يضعون يدهم عليها فعلا ، فالنتيجة لن تكون ثراء الناس
بحسب نشاطهم وأمانتهم وقدرتهم ، ولكن بعضهم
سيتمتع بطول العمر ويثرى ثراء الاساطير ، وبعضهم
ستفترسه الحمى ويطوى بطنه من الجوع ، وبعضهم

سيطرحون على قارعة الطريق متشردين معدمين ، والبقية درجات درجات بين هذه الاطراف . ولسوف يهجر تعساء الحظ ومالهم القاحلة ومستنقعاتهم الموبوءة من فورهم تقريبا ، لكي يعرضوا انفسهم على السعداء المحظوظين ليفلحوا ويزرعوا لهم اراضيهم الخصبة ، مقابلا أن يضمنوا لانفسهم معاشا افضل ، ثم يقدمون بقية المحصول للمالك السعيد المحظوظ كايجار أو ريع . وهكذا يصبح السعداء المحظوظون لا طبقة من الاثرياء فحسب ، بل يصبحون اذا شاءوا طبقة من الكسالى القساعدين . وسيؤثر عدد كبير منهم ان يوضعوا في اطار معين : اطار السيدات والسادة وقيمون لانفسهم تقاليد ترى من العار والشنار على المرء أن يضطر للعمل لكسب قوته ، بل من العار والشنار على المرء أن يمشى في الشارع حاملا في يده سلة فيها طعام ، أو أن يمشى في الشارع على الاطلاق بدلا من أن يركب عربة لها سائق ، لان في المشى في الشارع ما فيه من نزول عن مرتبته الاجتماعية ، وفقدان لمهابة ثم انه بعد ما تصبح الارض ملكا لمن عليها ، سيحرم الذين يولدون بعد ذلك من الارض ، ويصبحون طبقة جديدة من العبيد أو المماليك : طبقة اسمها البروليتاريا تعيش من بيع قوة عملها لاصحاب الاراضي او تعيش كفلاحين مؤجرين او حرفيين يدفعون ايجارا للارض التي يشغلونها . وعندما يولد من البروليتاريا العدد الذي يزيد عن حاجة اصحاب الاراضي ، ينخفض سعر عمل البروليتاريا الى مستوى لا يكاد يقيم أود الانسان العامل حتى يقصر عمره من التجويع البطيء .

في مثل هذه الاوضاع ليس ثمة من لديه أموال تزيد عن نفقاته ، الا اصحاب الاراضي : فاصحاب الاراضي يملكون تقريبا كل ما في البلاد من أموال فائضة ،

والاموال الفائضة تسمى رأس المال ، وملاك الاراضى
يسمون اقطاعيين يعيشون من أملاكهم ، وقد يصبحون
رأسماليين يقرضون رعوس اموالهم لاصحاب الاعمال
مقابل ايجار أو ريع يسمى فائدة بنفس الطريقة التى
يؤجرون بها أراضيتهم . والاحتكار الطبقي لرأس المال
يأتى فى أعقاب الاحتكار الطبقي للارض بنفس الحتمية
التي يأتى بها الشتاء فى أعقاب الخريف

ولنذهب لحظة الى التاريخ لندرس الموضوع على
ضوئه : لا يزال وليم الفاتح (١) يثير الاهتمام بعد مرور
ثمانية قرون على وفاته باعتباره نموذجا مجسدا لمزايا
التهجين أو التزاوج بين الطبقات ، فهو لم يكن نبيلًا
بالنشأة ولا بالوراثة بل كان ابنا غير شرعى لاحد الدوقات
وحفيدا لاحد دباغى الجلود الاجلاف . وبلغ من المقدرة أن
جمع جيشا من المغامرين النورمانديين وفتح به انجلترا .
ولما كان ملكيا اقطاعيا ، فقد قسم الارض الى اقطاعيات
كبيرة معززة بتلاع مسلحة ، وزعها على زملائه فى السلاح
من الفرنسيين أو تركها تحت أيدي ملاكها السكسونيين
الذين لم يسببوا له المتاعب فى غزوه لبلادهم ليستفيدوا
منها ويستغلوها قدر استطاعتهم بشرط أن يأخذوا على
عاتقهم الدفاع عن البلاد عسكريا ، وتطبيق العدالة فى

(١) William the conqueror أو وليم الاول ١٠٢٧ - ١٠٨٧
ملك انجلترا وفرنسا وقد وحد فرنسا ، وجمع جيشا من النورمانديين
غزا بهم انجلترا . وهو ابن غير شرعى للدوق نورماندى من « ارييلا »
ابنة أحد دباغى الجلود . وكان يوصف أحيانا « بابن السفاح »
The Bastard أو ابن الحرام . وقد أنجب ولدين روبرت
الذى انشق عليه وكان متال الابن العاق الفاسد ولكنه أورثه عرش
فرنسا ، وليم الثانى الذى أورثه عرش انجلترا

مناطق نفوذهم وتمويل المؤسسات والمصالح الملكية اى أن يقدموا - بصفة عامة - نصيبهم المحلى من تكاليف الحضارة مما يثبت ولاءهم له بصفته ملكا على البلاد ، وتوريث اقطاعياتهم بعد موتهم كاملة غير مقسمة لوريث واحد ذكر قادر على القيام بكافة مسئولياتهم . ولما كان الملك كاثوليكيًا معمدًا فقد شيد من الكنائس والاديرة بقدر ما شيد من القلاع والحصون ، ومنح الاقطاعيات التى شيدت فيها الكنائس والاديرة لرجال الدين العاملين فيها بشرط أن يتعهدوا المصالح الروحية للشعب

كان ذلك تنظيمًا معقولا وحكيما فى تلك الظروف ، جعل الامن مستتبًا فى البلاد التى كان يقطنها مجتمع زراعى يتألف من البارونات والاساقفة والفلاحين ورقيق الارض ، ولكن ذلك لم يدم الا فترة قصيرة فقط ، اى طالما اتفقت الحقائق الواقعة مع النظام الاقطاعى . ولكن الحقائق الواقعة كالانظمة لا تظل ثابتة لمدة طويلة . فمهما كانت مقدرة الملوك والبارونات ، فهم ليسوا الا بشرا هالكين فضلا عن أن القدرة لا تنتقل من الاب لابن بصفة دائمة ، بل غالبا ما تموت مع أصحابها . ومع ذلك فالنظام الاقطاعى لم يمهد السبيل لانتخاب القادرين على تولى الخلافة بعد الملوك والبارونات . بل على العكس من ذلك اشترط أن يكون الخليفة أو الوريث ذكرا ، وأى ذكر ، أكبر أبناء الميت . وهو يريد بهذا الشرط أن يتحاشى المنازعات والمشاحنات حول الخلافة او التركة ولكنه لم يكن ضمانا لكفاءة الحاكم الجديد أو الاقطاعى الجديد كحاكم يحكم بين الناس بالعدل وقائد كفء يقود العسكريين . كان اكبر أبناء وليم الفاتح انسانا فاشلا ولم يخلفه على العرش مع أنه شن على أبيه حربا فى فرنسا ووقع به الهزيمة . وكان هناك كثيرون من امثال

هذا الابن الفاشل من بين البارونات لم يخلفوا اباؤهم بل تركوا بلادهم واقطاعياتهم فى حالة فاجعة من الفوضى والاضطراب او انطلقوا هائمين على وجوههم يفعلون ما يفعل غيرهم من البارونات التافهين . أما القلة التى لم تكن فاشلة ولا تافهة ، فقد كانت فى الواقع حفنة من الملوك المحليين تطلعوا دائما الى السيطرة على البلاد وعلى العرش نفسه وخلع الملك المركزى . كان النظام الاقطاعى يحمل فى أحشائه منذ البداية بذور الحرب الاهلية

ثم انه خلق ايضا طبقة من الابناء الصغار المحزومين من المعاش ومن الارث ، وكانت هذه الطبقة فى انجلترا ، تتألف من عدد من العوام تربوا ونشأوا على الطبع والتقاليد الارستقراطية فى قصور البارونات واعتادوا الانفاق كما ينفق البارونات دون أن تكون لديهم الاموال الكافية لدفع ثمن ذلك كله . كان عليهم اما أن يعيشوا على حسنات وهبات اشقائهم الكبار واما أن يحصلوا ما استطاعوا - على احدى الوظائف العامة كضباط فى الجيش أو فى السلك الدبلوماسى أو على معاشات من الكنيسة أو من الابرشيات المحلية . أما ابناءؤهم فقد فرض عليهم أن يعيشوا من مزاولة الحرف المختلفة التى كانت تمثل الانحطاط الاجتماعى فى أدنى صورته لدرجة أننى أذكر أن اطباء - فى زمنى - كانوا يتقاضون أتعابهم سرا ، كأنما تقاضى الاتعاب عار يخجل منه وعليك أن تدفعه لهم خلسة كما تدفع البقشيش للخادم . ولا يزال الروب الرسمى الذى يرتديه المحامى الى الان مزودا بجيوب خلفية صغيرة هى من بقايا الزمن الذى كان العميل يدس فيه أتعاب المحامى خلسة فى جيوبه هذه من وراء ظهره . ثم اضطرت سلالة الابناء الصغار فى نهاية المطاف ، الى التنازل عن عنجهيتهم بالتدريج ، فاحترفوا أولا تجارة

الجملة ثم أعمال الكتبة ثم تجارة القطاعى ثم الحرف اليدوية الفنية ، وأخيرا الاعمال اليدوية غير الفنية حتى جاء الوقت الذى أصبح فيه من العادى تماما أن ترى العامل الانجليزى شامخ الانف متغطرسا يعتبر نفسه ارسقراطيا أصيلا ولكن الايام هى التى ظلمته ، وتراه يدلى بصوته فى الانتخابات فى كل مرة للمرشح المحافظ بينما ترى الدوقات والماركيزات يؤيدون حزب العمال فى مجلس اللوردات . .

وهكذا وجد النظام الاقطاعى نفسه وجها لوجه أمام طبقة العوام التى تؤلف نحو خمسة فى المائة من تعداد الشعب ممن اكتسبوا سلطة روحية هائلة أو ثروة مادية كبيرة بفضل مقدرتهم السياسية أو التجارية أو الروحية فأصبحوا كـردينالات وتجارا كبارا ، وقد التزم الكاردينالات بانتظامهم فى سلك الكنيسة الكاثوليكية بتقاليد الفقر المقدس والخضوع والتواضع ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن هذه الفضائل لا تكفى بغير مساندة من السلطة الزمنية ، فانضموا الى حلبة الصراع من أجل السيطرة على الدولة منحازين أحيانا الى صف البارونات وأحيانا أخرى الى صف الملك ، ولكنهم كانوا دائما وبحكم الضرورة - ضد الزنادقة والملحدين ، الذين يؤلفون طبقة المثقفين وهى طبقة لم يضعها النظام فى حسابه

أما عن كبار التجار فقد شيدوا المدن ، وسرعان ما أصبحت المدن ضخمة وقوية تنافس الكنيسة والملك معا على السلطة . وكان شارل مارتل (١) جنديا محنكا وزعيما

(١) Charles Martel ٦٢٨ - ٧٤١ م حاكم فرنسا وألمانيا . شهرته أنه هو الذى أوقف الزحف الاسلامى على أوروبا عندما هزم الاندلسيين فى موقعة تورز أو بواتيه سنة ٧٣٢ . م احدى المعارك الحاسمة فى التاريخ

اقطاعيا عظيما عاش في القرن الثامن في فرنسا وكان ملكها
 الفعلي . واذا به يضيق بالمدن ذرعا ، فعمد ببساطة تامة
 الى تدميرها وهدمها كما كان يدمر ويهدم أوكار اللصوص .
 غير أن الملوك فيما بعد ، لم يعد في وسعهم الاستغناء عن
 المدن وأموال المدن ، وكان على صدورهم أن تتسع لها .
 وهكذا اشترى سكان البورج (١) الأرض بأموال المدن
 وأفسحوا رقعتها ثم استأجروا من البروليتاريا جيوشا
 تحارب من أجلهم ضد التاج والكنيسة والنبلاء . وكانوا
 دائما يتطلعون الى القضاء على جميع الاوضاع الاقطاعية
 المرتبطة بملكية الأرض والى جعل الأرض سلعة يتاجرون
 فيها كما يتاجرون في المنتجات والبضائع المنقولة التي
 تنتجها مصانعهم . ولكن المتاجرة في الأرض تصبح غير
 ذات فائدة كبرى لهم ما لهم تشفع بالمتاجرة في الايدي
 العاملة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالاقطاعات بمقتضى نظام رق
 الأرض أو نظام الإقامة على الأرض الذي كان يحرم على رقيق
 الأرض هجرة الاقطاعات التي يعملون عليها وبيع عملهم
 (وفي الواقع بيع أنفسهم) لكبار التجار في المدن . العمل
 كالأرض اذن ، ينبغي أن يصبح سلعة تجارية تباع وتشترى
 كأي سلعة أخرى . وهكذا دخلت طبقة التجار حلبة
 السياسة دخول الإبطال يحملون عاليا شعار الحرية
 الشخصية والحرية الفردية

ولكنها كانت حرية عارية مجردة ، ذلك أن رقيق الأرض
 عندما هربوا من الاقطاعات وأراضى الكنيسة واحتشدوا
 في المدن ، اكتظت بهم سوق العمل ورخصت أسعارهم

(١) Bourge المنطقة السكنية المحيطة بمدن العصور
 الوسطى . وسكانها من الاحرار « من غير رقيق الأرض » ويسمون
 بورجوازيين ثم أطلق اسمهم هذا على التجار ورجال المال ثم على الطبقة
 المتوسطة والرأسمالية ..

وأذلهم الفقر والارهاق الشديد والخضوع لمحتكرى رأس المال بلا شفقة ولا رحمة ، مما أرغمهم فى نهاية الامر على النظر فى أوضاعهم فى حسرة ومرارة وبث فيهم الوعى بأنهم أصبحوا يؤلفون طبقة جديدة تحمل أسما عاما لها هى طبقة البروليتاريا . ولم يكن لهذه الطبقة من أمل تتعلق به سواء فى ظل الاقطاع أم فى ظل الرأسمالية - ومن ثم أخذ البروليتاريون بالتدريج ينظمون أنفسهم - فى أول الامر - فى نقابات . ولجأ أصحاب الاراضى وسادة المال ورجال الكنيسة الى اضطهاد النقابات ومكافحتها بعنف ووحشية . فلجأ البروليتاريون بعد ذلك الى التحالف مع جماعات من الاشتراكيين العتائدين وكانوا جميعا يهدفون الى تحقيق دكتاتورية البروليتاريا على أن يتولى الاشتراكيون القيادة الثقافية وتوفر النقابات الاموال اللازمة للمعركة



وقد حقق هذا التطور الذى انتهت اليه الامور ، معجزة فريدة : توحيد رجال المدينة والنبلاء وأصحاب الاراضى فى طبقة بلوتوقراطية (١) متماسكة ضد التيار البروليتارى الزاحف . وواجه كارل ماركس هذا التحدى فى سنة ١٨٦١ بشعاره المشهور : « يا عمال جميع البلاد اتحدوا ! » وأعلن حرب الطبقات من أجل القضاء على الملكية الفردية وعلى ايراداتها غير المكتسبة بالعمل ومن أجل تنظيم المجتمع سياسيا ليصبح بمثابة كومنولث تعاونى من العمال الكادحين

وفى سنة ١٨٧١ وقع الاشتباك بين الفريقين ، وقام البلوتوقراطيون بقمع كوميون باريس قمعا دمويا ، ولكن

(١) Plutocracy او حكم الافنياء . نسبة الى بلوتو مانع الثراء فى الاساطير الرومانية القديمة

بعد مضي خمسين عاما من ذلك التاريخ انتصرت البروليتاريا في روسيا سنة ١٩٢٠ ، وفي سنة ١٩٣٩ انهزمت البروليتاريا مرة ثانية في اسبانيا . وفي تلك الاثناء على أية حال كان البلوتوقراطيون الذين بدأوا بالمعارضة العنيفة لاي تدخل تبديه الحكومة في نشاطهم المالي والتجاري ، قد أخذوا يغيرون رأيهم في هذا الشأن ، بفضل مساعي حجج الاقتصاديين البروليتاريين الذين اثبتوا لهم أن تنمية الانتاج الحديث تنمية كاملة الى أقصى حدودها عملية صعبة معقدة ، وأصعب من أن تستوعبها امكانيات المؤسسة الفردية والشركة الخاصة ، وأنها عملية لا يمكن انجازها الا بواسطة الدولة وسلطتها وامكانياتها ومواردها المالية . ولو استطاع البلوتوقراطيون الاغنياء أن يحتفظوا بسلطانهم على الدولة واستخدموها في اثراء أنفسهم بدلا من أن يستخدموها للصالح العام فانهم يجمعون بين مزايا الانتاج الاشتراكي ومزايا التوزيع البلوتوقراطي وبذلك يجمعون ثروات هائلة لم يحلم بها اسلافهم المتنافسون . وثمة حركة شبيهة بهذه ، نمت واستشرت وقطعت السبيل على الاشتراكيين مستبدلة رأسمالية الدولة بالرأسمالية الفردية بينما احتفظ الاغنياء بالملكية الفردية سليمة لم تمس بكل ما لها من امتيازات ، واشتروا ذمم البروليتاريين بالاعانات والعلاوات والمنح والاجور المرتفعة أحيانا . وقد سميت هذه الحركة في ايطاليا فاشية ، وفي ألمانيا اشتراكية وطنية (واختصارها نازية) ، وفي كل من هاتين البلدين سيطرت هذه الحركة على زعماء البروليتاريا وقامت بتمويلهم ووضعهم في مراكز السيطرة على الحكومة : وهم بالتحديد بنيتو موسوليني وادولف هتلر . أما في انجلترا وأمريكا فكانت الحركة أقل وضوحا من ذلك بكثير وسميت

بالنيوديل (١) أو بالنظام الجديد وبهذا ضمنت لنفسها مركزاً وطيداً في كل من المعسكرين : الديمقراطى والبلوتوقراطى . ولكنها فعلت ذلك بعد أن دفعت الثمن باهظاً : حرباً شعواء مع إيطاليا وألمانيا من أجل زعامة أوروبا ، ذلك أن الدكتاتورين الفاشست الجدد عندما وجهوا دعوتهم للدول الغربية لتنضم اليهم فى هجومهم الكبير على روسيا البروليتارية قوبلوا بالرفض العنيف واعتبروا ثوريين انقلابيين ، بينما اخذ الدكتاتوريان على عاتقهما القيام بمهمة يائسة : لا تتضمن اخضاع روسيا وحدها ، بل أيضاً اخضاع بريطانيا وأمريكا اللتين تعارضانهما وتقاومان خططهما . وكان الحليف الوحيد الذى كانت له قيمة ما ، وكسبوه الى صفهم هو اليابان ، وعلى هذا أصبحوا فى وضع اضطرهم الى محاربة الشيوعيين والدول البلوتوقراطية معا فى تحالف متناقض ، ولكنه كان تحالفاً شديداً المراس مرهوب الجانب . وهذا هو تقريباً الوضع التاريخى الراهن . أما الآن فلنعد أدراجنا مرة أخرى الى سياق الموضوع

أقول اننى وان كنت من الناحية النظرية شيوعياً ، ومن الناحية المهنية كاتباً مسرحياً ، فأنا فى حقيقة أمرى من الناحية الاجتماعية أعتبر من ملاك الاراضى ومن ملاكها الغائبين بالذات ، أى من هذا الضرب من الملاك الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئاً ، لا أين تقع ولا أية حدود تحدها

(١) New Deal سلسلة من قوانين الإصلاح الاجتماعى سنّها الرئيس فرانكلين روزفلت فى الولايات المتحدة الأمريكية ما بين ١٩٣٣ - ١٩٣٥ عقب الازمة الرأس مالية الكبرى المعروفة باسم الكساد العظيم . وهدفها ايجاد العمل للملايين المتعطلين فى إعادة تشجير الغابات وبناء مشروعات وأدى التنسيب للرى والزراعة ، وغيرهما من المشروعات التى تشرف عليها الدولة أما النيوديل الثانى ١٩٣٥ - ١٩٣٩ فكان يستهدف الى التأمين الاجتماعى للعمال وصغار الزراعيين

بل لم تقع عليها أعينهم قط ، ذلك لان اقطاعيتى تقع فى
ايرلندا ، وعندما ورثتها كنت رجلا بالغا ومتزوجا وانسانا
مستولا . ولو كنت أعيش فى أيام وليم لتوقع منى ذلك
الملك أن أطبق العدالة بين المستأجرين عندى كما يطبقها
القاضى القبلى الجالس تحت النخلة ، وأن أقود هؤلاء
الفلاحين فى كل المعارك التى يشنها الملك على اعدائه ، ثم كان
على بعد ذلك أن أبشر زراعة الارض وأن أتحمّل نصيبى
فى تمويل خزانة الملك من نواح مختلفة . وأكاد
أقول اننى كنت جديرا بالنهوض بتلك التبعات كما
ينهض بها بعض باروناتى على الاقل وبنفس كفايتهم
وهمتهم . وكان أول شىء أكتشفته عن اقطاعيتى أنها
ليست ملكى على الاطلاق والا سلطة لى عليها لمباشرة
زراعتها أو لتوجيه ادارتها . وبدلا من أن أتلقى صكوك
التمليك ، تلقيت حزمة من ايصالات الرهنية !!

ولم أدهش لذلك كثيرا ، لان عمى الذى ورثت عنه ما
ورثت ، مات وهو فى حالة رثة معدما تقريبا . وقد ابتاع
لنفسه حق مزاولة مهنة الطب وعاش بهذا الحق عيشة ناجحة
عاملا فى خدمة نبلاء الناحية الذين أخنى عليهم الدهر
وخربت بيوتهم بعدما حوأت قصورهم الريفية بحدائقها
الواسعة الى صفوف وصفوف من المساكن الصغيرة التى
يقطنها موظفون وكتبة ممن لا تزيد مرتباتهم على خمسة
عشر شلنا فى الاسبوع ، وكان لعمى خادم مخلص واحد ،
يبلغ أجره فى العام سبعة عشر جنيها تدفع مؤخرا ، ثم
رهن عمى ساعته الذهبية فأصبح يستعين فى جس نبض
الزبائن بساعة فضية كان قد أهداها الى منذ سنوات
مضت واضطر الى استعارتها منى مرة أخرى ، وكنت
حاضرا معه عندما اشترى ساعته الذهبية بثلاثين جنيها ،
وقد رهنها نظير ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات وظل سنوات

متمسكا بحق استردادها وفك رهنها ، باقتراض الفائدة المستحقة على هذا المبلغ . . من أمي

فلما آل الى هذا الحق أخيرا ، أخذت إيصال الرهنية الى سمسار الرهونات واسترددت الساعة . ثم أخذتها الى مكان ما في لندن حيث أودعتها لتعرض للبيع بالزاد . فبيعت بمبلغ ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات . وبذلك حصلت على ما دفعته فيها ناقصا عمولة دلال الزاد . فلما تبين لي أنني لم أربح شيئا من الصفقة وخسرت العمولة سلمت أمري لله ، واعتبرته درسا وعظة . فطرحت جميع إيصالات الرهنية التي آلت الي في سلة المهملات . وبعد ذلك اشتريت الاقطاعية التي كان مفروضا أن تكون ملكا لي من المرتنين بعد سداد حسابهم ، واصبحت انا نفسي - في واقع الامر - المرتن الجديد والمالك الحقيقي . ولم يكن في مقدوري احتمال هذا الوضع لو لم تكن لي موارد أخرى لا علاقة لها بالاقطاعية

وليست هذه هي نهاية القصة . فأننا لم أفهم قط لماذا كانت اقطاعيتنا توصف دائما بأنها « قطعة أرض صغيرة لطيفة » . فالأرض لم تعد من زمن طويل - تستخدم في الزراعة ، ولكنها تستخدم في بناء المساكن والمحلات التجارية عليها ، وبالاختصار أصبحت جزءا من مدينة . وقام مستأجروها بدورهم بتأجيرها لغيرهم ، وأجرها هؤلاء لغيرهم قطعا قطعا وشرائط شرائط بحيث كان في وسعي أن أشير بأصبعي الى مجموعة من البيوت المقدسة بعضها فوق بعض وأقول : هذه البيوت مبنية فوق « أملاكى » ، ولكن لا سبيل لي على أى واحد منها ، ولا يمكننى أن أجرى عليها أى تحسين بأية طريقة وان كان في وسعي أن أستخلص من هذا المستأجر أو ذاك الذى استأجر من باطنه الإيجار المقرر بحسب الرقبة أو ما

الى ذلك ، بحيث يمثل الايجار جزءا صغيرا فقط من قيمة الموقع . والحق أقول اننى كنت واضعا يدي على ثلاثة بيوت أشرف عليها ولكنها كانت خرائب متداعية لدرجة اننى عندما حاولت اصلاح أحدها واعداده للسكنى ، أنهار البناء من القواعد في اللحظة التى مسته فيها معاول البنائين . كانت مرهونة بمثل قيمتها الكاملة ، وزيادة . وما كان فى وسع عمى أن يصلحها ، ولا كان ذلك فى وسع المستأجرين . أما صاحب الرهنية فلم يكن من شأنه أن يتدخل ما دامت فائدته المستحقة تسدد له فى موعدها

وبالاختصار ، كانت « قطعة الارض الصغيرة اللطيفة » أسما على مسمى لاننى لم أتمكن من التصرف فى أكثرها الا أن أجعل ساكنيها يدفعون الايجار دون أن يسمحوا لى بالدخول فيها لمباشرة أى سلطة أو أية مسؤولية عاجلة كالتى كان النظام الاقطاعى البائد يفرضها على أو على أسلافي . فأنا بصفتى مالكا لم أكن قاضيا ولا حاكما ولا قيما ولا جنديا محاربا ولا مديرا ولا مشرفا ، أى لم تكن لى أية صفة تجعلنى نافعا للبلاد . وسلطات الحياة والموت التى منحها لى الملك هنرى الثانى (١) عندما منحنى اقطاعيتى ، والتى كان له أن يمارسها على شخصا لو قصر فى ممارستها أو أسأت استخدامها « لو كانت لديه القوة الكافية لان يفعل ذلك » ، هذه السلطات الرهيبة المطلقة قد ذهبت وراحت ، ومعها أيضا ذهبت الواجبات وراحت . ولم تبق لى الا « قطعة الارض الصغيرة اللطيفة » التى يمكننى ان أبيعها أو أن أرهنها

(١) Henry II ١١٣٣ - ١١٨٩ ملك إنجلترا

لاى أجنبى لم يقدم لبلادى يدا فى معركة هاستنجز (١) أو فى غارة سترونج باو (٢) ، وليس فى وسعه أن يقدم اقل دليل على اهتمامه بالصالح العام قلامة ظفر مثل هذا التطور الذى مر باقطاعية أحد البارونات حتى أصبحت « قطعة أرض صغيرة لطيفة » ، وممر فى نفس الوقت بأحد الموظفين العموميين المسؤولين (البارون) حتى أصبح طفيليا غير مسؤول عن شيء (أنا) ، مثل هذا التطور أصبح قدرا محتوما عندما تطورت دنيا الزراعة والفروسية فأصبحت دنيا التجارة والمنافسة ومع ذلك ، بقيت عدة اقطاعيات كبرى ، نمت فوقها المدن الكبرى وتعاظمت واثرى ملاكها ثراء فاحشا ، ولا يزالون يملكون ويزاولون سلطات يمكن ان توصف بأنها سلطات الحياة والموت لانهم يستطيعون طرد الفلاح وعماله الى عرض الطريق ويستبدلون بهم قطعانا من الاغنام أو جماعات من اصحاب الدكاكين أو فرقا من الرياضيين الاغنياء الذين يدمنون صيد الغزلان البرية أو أى شخص كان يدفع لهم نظير استخدام اراضيهم مبلغا يعجز عن دفعه أى فلاح أو مزارع ، وهكذا نجد لدينا « قطع أرض صغيرة ولطيفة » و « قطع أرض كبيرة ولطيفة » اصحابها على السواء ، اناس غير مسؤولين عن شيء على الاطلاق . قد يكونون من محبى الخير والانسانية أو ما الى ذلك ولكن ليس فى نشأتهم ولا فى تربيتهم ما يمنعهم من ان يكونوا جشعين يلفون فى الترف ولوغا ، وكل الاشياء تشجعهم وتدفعهم فى هذا الاتجاه . والواجب الواضح

(١) Hastings مدينة فى شرق انجلترا والمعركة التى وقعت فيها كانت سنة ١٠٦٦ بين النورماندين بقيادة وليم الفاتح والمكسونيين بقيادة هارولد . انتصر فيها وليم رغم قلة عدد جنوده وهى من المعارك الحاسمة فى تاريخ انجلترا

(٢) strongbaw

المفروض عليهم أن يؤجروا أراضيهم بإيجارات باهظة وأن يستثمروا رءوس أموالهم بأعلى فائدة يمكنهم الحصول عليها ، ولا تفرض هذا الواجب عليهم منفعتهم المادية ومصالحتهم الشخصية فحسب ، بل يفرضه عليهم ضميرهم الاجتماعي أيضا

وهكذا تتحصن ملكية الأرض حصانة تامة ضد النواميس الاخلاقية ، هي حصانة تميزها تميزا تاما عن الملكية العادية التي يسميها المحامون ملكية شخصية . والمفروض ان هذا التمييز قد زال بصدور تشريع سنة ١٩٢٥ الذي وضع حدا لذلك الحق الاقطاعي القديم : حق وراثة الابن البكر لاملاك أبيه ، ولكنه لا يزال ساري المفعول على أية حال . فللاقطاعي رخصة لامتلاك بندقية خاصة كملكية شخصية ، وله ان يصطاد ببندقيته حيوانات وطيورا معينة في فصول من السنة وتحت ظروف معينة ، ولكن ليس له ان يصطادني ببندقية . ومع ذلك فاذا اقامت منشأة تجارية كبرى فوق اراضيهِ ، أو شيدت لى يينا عليها ، فمن حقه ان ينتزع منى منشأتى التجارية برمتها أو يطردنى من بيتى طردا عندما تنتهى مدة عقد الايجار بدون أقل اعتبار لى او لمصالحى

وقد يبدو من الغريب المدهش للذين يتدبرون المسألة من زاويتها العامة ، الا تسبب هذه الاوضاع العجيبة فى اثاره مذبحة عامة تقطع فيها رقاب اصحاب الاملاك ، والواقع أنها تسببت فعلا فى اثاره مذابح من هذا القبيل من آن لآخر : فقد شكل الفلاحون الايرلنديون قبل تطبيق قوانين شراء الارض فى ايرلندا - جمعيات ريبون لودجز (١) هدفها اطلاق الرصاص على اصحاب الاملاك لمجرد انهم

Ribbon Lodges (١)

اصحاب املاك ، واستخدمت الثورة الفرنسية سلاحا
ماحقا ، هو احراق قصور الاقطاعيين الكبرى في الريف
(الشاتو) بأيدي الفلاحين ، وقد كان لهذا التكتيك الماحق
نفسه ، نصيب الاسد في اقامة الدولة الايرلندية الحرة ،
وفي روسيا الفت الحكومة البلشفية المشكلة في سنة ١٩١٧
الملكية الخاصة للارض (الملكية العقارية) بصفتها حقا
مقررا ، وجعلت من أى محاولة لممارسة هذا الحق ، جريمة
يعاقب عليها القانون

غير أن نظام الملكية الخاصة للارض ، لا يكون فى كل
الاحوال على هذه الصورة التى لا تطاق بحيث تدفع
الناس الى الثورة والقتل والحرق ، وهم الذين تربوا
ونشأوا يعتبرونه نظاما شريفا ونظاما اخلاقيا . فالرجل
الذى لا يملك ارضا ، يتفق مع احد الاقطاعيين على تأجير
قطعة ارض من املاكه نظير ايجار معين فى السنة ، وهو
يفعل ذلك باختياره وبارادته الشخصية ، راضيا ان
يستخلص لنفسه من الارض معاشه الذى اعتاد عليه
ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهو يعتقد طوال الوقت
اعتقادا راسخا أن من الطبيعى أن يدفع لصاحب الارض
ايجار ارضه كما يدفع لصانع المظلات ثمن مظلته . وهو
لا يفهم شيئا عن مشكلة الارض ، والاغلب انه هو نفسه
يتطاع ليصبح هو الآخر مالكا . ففي السوق مساحات
كافية من الاراضى معروضة للبيع لمن لديه الثمن المناسب
للشراء ، وحتى اذا لم يتوفر المال اللازم لسداد الثمن ،
أمكن المشتري أن يقرضه أو أن يشتري بالرهن

غير أن الفارق بين شراء مظلة من صانع المظلات ،
واستئجار ارض من صاحب الارض الذى وجدها جاهزة
مهيئة للزراعة أو لاقامة المساكن عليها ، فارق جوهري
ولم يكن سرا خافيا على الاقتصاديين السياسيين . فاما

الفلاحون الثائرون فلم يكن في جعبتهم الا أغنية : « اذا كان آدم يفلح الارض ، وحواء تغزل بالمغزل ، فمن يكون ذلك السيد الجنتلمان ؟ أما الفسيوقراطيون (١) الفرنسيون المتعلمون فقد طرخوا المشكلة بأسلوب علمي : تنادى المصلحون الفرنسيون قبل الثورة - وخاصة أبو ميرابو (٢) بإلغاء الضرائب المفروضة على الساع وأن يستبدل بها ضريبة واحدة على الارض كوسيلة لتأميم الايجار أو الريع . وقد سخر فولتير (٣) من هذا الاقتراح حتى توارى أصحابه خجلا . وأوضح لهم أنه يترك ايجار رأس المال سليما لم يمس ، وبينما يتضور الاقطاعي جوعا يزداد صاحب البنك ثراء عما كان في أى وقت مضى . ثم بعث هذا الاقتراح الى الوجود على اية حال - بعد قرن من الزمان فعرض بفصاحة غير عادية على لسان هنرى جورج (٤) الأمريكى الذى انتشر كتابه « التقدم والفقر »

- (١) Physiocrats مدرسة من مدارس الفكر الفرنسى فى القرن ١٨ كانوا يوصفون احيانا « بالاقتصاديين » Economists مؤسسها فرانسوا كوينزى وكانوا يضعون أهمية كبرى على الارض كمصدر للثراء وعلى فرض ضريبة واحدة على الارض . أخذ عنهم آدم سميث الذى أهدى كتابه ثروة الامم لكوينزى كما أخذ عنهم هنرى جورج فكرة الضريبة الواحدة . وقد سخر منهم فولتير
- (٢) V.R Mirabeau الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى ومن الفسيوقراطيين وهو أبو « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية من مؤلفاته : كتاب صديق الناس L'amé des hommes
- (٣) Volotaire أو فرانسوا - ماري آرويه . ١٦٩٤ - ١٧٧٨ الفيلسوف والكاتب المسرحى الفكر الفرنسى الساخر الذى طبع القرن الثامن عشر بطابعه حتى سمي قرن فولتير . ويعسد بحسب ابا للثورة الفرنسية مؤلف كانديد والقاموس الفلسفى . وكان من أول من فضح الاستغلال الرأسمالى لانه هو نفسه كان من كبار المضاربين
- (٤) Henry George ١٨٣٩ - ١٨٩٧ صاحب مبدأ الضريبة الواحدة المؤدية فى النهاية الى تأميم الارض . تأثر به وبكتابيه شو والفاييون أكثر من تأثروا بكلول ماركس

انتشارا واسعا وكان له الفضل في لفت نظري مصادفة
للموضوع لأول مرة . غير ان مشكلة الارض كانت في ذلك
الوقت قد تطورت فأصبحت مشكلة سياسية لدرجة ان
نقد فولتير للاقتراح سالف الذكر ، كان أقوى مما كان
في أى وقت مضى : اذ اتضح تماما ان الدولة اذا ما صادرت
ريع الارض ولم تكن على استعداد لاستخدامه في الحال
كرأس مال عامل في الصناعة - توقفت عملية الانتاج
وجاعت البلاد . وعلى هذا بدأت حركة معينة تسمى
« الاشتراكية » تتخذ سبيلها الى الظهور اى الدعوة
الى تنظيم الصناعة بواسطة الدولة لصالح الشعب كله .
وعندما اكتمل ظهور هذه الحركة ، كحل بديل للنظام
الرأسمالى عمد الاقتصاديون الرسمىون الى احاطة
موضوع الایجار والريع بالتمويه والغموض

وفى تلك الاثناء كتب أحد الفرنسيين بحثا بعنوان :
« ما هى الملكية ؟ الملكية سرقة » . فقال البسطاء السذج
ما أسخفه! وقال اهل الجد بل ما أخونه ! غير أن هذا الفرنسى
« واسمه برودون (١) » لم يكن سخيفا ولا خائنا . لقد
حلل الاوضاع القائمة وتبين ان الاقطاعى والرأسمالى
ما داما يستهلكان دون أن ينتجا شيئا فهما يلحقان بالمجتمع
نفس الضرر الذى يلحقه به اللصوص . وأوضح هذه
النقطة نفسها الانجليزى جون راسكين - وهو أحد الرجال
العظماء المحترمين جدا - عندما لفت انظارنا الى ان هناك
ثلاث وسائل ممكنة لكسب العيش فقط : (١) بالعمل
(٢) بالتسول (٣) بالسرقة

وبعد ، ترى هل ملاك اراضينا لصوص ؟ يجيب على
ذلك وليم موريس وهو أعظم الشيوعيين الانجليز قاطبة ، فى

(١) P. J. Proudhon ١٨٠٩ - ١٨٦٥ الاشتراكى الفرنسى
واضح أسس المذهب الفوضوى من كتبه ايضا : فلسفة الفقر

صراحة غليظة : نعم ، لصوص ملاعين . انهم يعيشون من سرقة الطعام . غير أن دي كوينزى (١) وهو أكثر المحافظين التوريز حظا من اللباقة وذلاقة اللسان ، أطلق على الاقطاعيين اسم سادة الريف المهذبين Country gentlemen وشفع ذلك بقوله : « من من الناس اكثر منهم جدارة ؟ » أما ماركس فسماهم بورجوازيين ، وهو اسم اصبح الان عتيقا باليا لان البورجوازية الفقيرة قد حولها العمل التجارى الكبير الى طبقة بروتيتارية ، أما البورجوازية الغنية فقد امتصتها البلوتوقراطية . ووصفهم كيرنس (٢) وهو احد طلائع الاقتصاديين الانجليز بانهم « ذكور النحل فى الخلية » . أما أنا شخصا فلا اسمى نفسى لصا ، فليست لى نوايا ومقاصد غير شريفة كما أن ليس من حقى ولا من سلطتى تغيير النظام الشرعى الذى اصبحت بموجبه وتحت ظله اقطاعيا من الاقطاعيين سواء شئت ذلك ام ابيته ، غير اننى كرسيت حياتى السياسية كلها لبث ونشر واذاعة تلك الحقيقة السالفة الذكر وهى اننى الحق بمستأجرى ارضى نفس الضرر الاقتصادى الذى يلحقه بهم اللص او النشال او ناهب المحلات أو قاطع الطريق أو أى نوع اخر من اللصوص . أنا لست بارونا لصا ، لاننى لست بارونا ، ولكنى لص فى واقع الامر لا شبهة فى ذلك — لاننى ارغم مؤاجرى على النزول لى عن جزء من ايراداتهم التى اكتسبوها بجهد ومشقة دون أن أقدم لهم أو أن اكون قدمت لهم أية خدمة

(١) T. De Quinsey ١٧٨٥ - ١٨٥٩ أحد الكتاب الانجليز الذين تصدوا لشرح نظريات وافكار الاقتصادى ريكاردو . ولكن أشهر مؤلفاته كتاب أدبى بعنوان : اعترافات آكل أفيون

(٢) J. E. Cairness ١٨٢٢ - ١٨٧٥ الاقتصادى الايرلندى من اتباع ستيوارت مل . من كتبه : قوة العبيد . وفيه دفاع مجيد عن قضية الشماليين الأمريكيين أنصار تحرير الرقيق

كانت ، فى مقابله . أما أن تبعة هذا ومسئوليته لا تقع على ،
أو أنه الى حد ما سوء حظ ابتليت به فلا يخفف عنهم
من عبء دفع الايجار شيئاً ، وأما كونى سددت الرهنيات
وبسدادها اشتريت سلطاتى فى الاستغلال نقداً ، فهو
بعيد كل البعد عن الموضوع ولا علاقة له به على الإطلاق
فعلى اللص أن يتحمل ثمن الطفاشة والعتلة وبقية
« عدته » التى يستخدمها فى السرقة

اذن كيف يتخلص الوطن منى ؟ لو اطلق الرصاص على
أى تخلص منى بالطريقة التى تخلص بها مؤاجرو اللورد
ليترى منه فلن يجنى الوطن من ذلك شيئاً الا ان يحل
محل أقرب الناس رحماً الى فى حق التملك . ولو استولت
الدولة أو البلدية على أرضى وألقت يى فى عرض الطريق
فسوف يتطلب هذا الاجراء نشوب ثورة بلشفية حتى
تضفى عليه الصفة الشرعية ، وسيحتاج الامر الى تشكيل
ادارة حكومية جديدة تتولى تشغيل جميع الاقطاعات
والاراضى فى البلاد واعدادها للعمل بنظام تام حتى تحل
محل فى الادارة ، لان اول قاعدة من قواعد نقل الملكية
الخاصة الى الملكية العامة هى أن يكون واضحاً للحكومة
كل الوضوح ، أنها لا ينبغي ان تقوم على مصادرة أى
نوع من انواع الملكية الخاصة فى الارض أو فى رأس المال
ما لم تكن على استعداد تام لاستغلالها فوراً وببنفس
الكفاية الانتاجية التى كانت تدار وتستغل بها من قبل ،
فاذا لم نزرع الحقل ، فلن تبور أرضه وتنمو فيها الاعشاب
الضارة فحسب ، بل سينتشر البوار والاعشاب الضارة
فى الحقول المزروعة المجاورة ايضاً

أما الحل فى حالتى الخاصة ، فهو حل بسيط للغاية :
ما ان يشعر المجلس البلدى فى المدينة التى تقسع فيها
أرضى ، بحاجة الى تلك الارض لى غرض من الاغراض

مثل اقامة محطة قوى كهربائية أو حمامات عمومية أو مدارس أو مخزن للترام أو مركز للبوليس أو لفرقة مطافيء أو قاعة عامة جديدة للمدينة أو مكتب بريد أو مكتب عمل أو ما الى ذلك من المنشآت والمؤسسات العامة فكل ما يحتاج اليه المجلس هو أن يشتري الارض بقيمتها المحددة بالضريبة المفروضة عليها ، ويدبر المبلغ اللازم لذلك بفرض ضريبة على جميع العقارات الخاضعة للضريبة في المدينة بما فيها قطعة ارضي . وهكذا تصبح قطعة الارض ملكية عامة دفع ثمنها جميع الملاك وانا منهم لا اتحمل اكثر من نصيبي العادل من عبء المصادرة ، وهذا الحل افضل من المصادرة بدون تعويض التي تتسبب في خرابي وافلاسي في الوقت الذي يقلت فيه زملائي الملاك الاخرين آمنين مطمئنين على املاكهم . ولن يكون هناك أى شيء غير عادى او غير مألوف في العملية كلها : فالناس قد ألفوا شراء الاراضى وبيعها ، واعتادوا الضرائب التي تفرض عليهم وتتفاوت مقاديرها من سنة الى سنة . اما انا ، فسوف يتعين على أن أبحث لى عن مجال جديد استثمار فيه ثمن الشراء ، فإذا كنت اشغل المكان ، تعين على أن أبحث لى عن بيت جديد أسكن فيه او محل جديد أتاجر فيه ، ولكن الجمهور لا يعير مثل هذه الامور أى اهتمام : فهي تحدث أمامه كل يوم ، لشخص أو لآخر

ولا تحتاج هذه العملية الروتينية في الظاهر ، الا أن تتكرر وتتكرر حتى يتم نقل ملكية الاراضى كلها في المدينة من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، وبذلك يتم القضاء على الملاك المحليين وقطع دابرهم وابادتهم ابادة تامة بصفتهم ملاكا ، وبلا ألم . ومن السهل اتخاذ مثل هذا الاجراء بين الحكومة وملاك الاقطاعيات الكبرى . فقد حدث بالقرب من المنطقة التي أسكنها ان اشترت إحدى

الشركات الخاصة اقطاعية كبرى وانشأت فوقها مدينة سكنية ذات حدائق (جاردن ستى) ، ولم ترتفع بسبب ذلك قيمة الضريبة المفروضة عليها . واكتب فى ثمنها المساهمون الفرديون - وكنت أنا شخصيا واحدا منهم - وعلى هذا اعتبر من أصحاب الاملاك البريطانيين زيادة على كونى من أصحاب الاملاك الايرلنديين . ولكن اذا شئت الحكومة أن تجمع أمرها فى المستقبل على استغلال المدينة السكنية بطريقة أفضل وأنفع للصالح العام ، أكثر مما ننتفع بها أنا وزملائى المساهمين لصالحنا الخاص ، فانها بكل سهولة تستطيع أن تشتريها منا ، وتجمع المال اللازم لذلك بفرض ضريبة على دخول جميع أصحاب الاملاك فى البلاد . وهنا أيضا ، لا يحتاج الامر الا الى أن تتكرر العملية وتتكرر بما يكفى ليحقق فى الواقع - تأمينا كاملا للأرض بدون أى خروج أو انحراف عن مجرى الروتين العام للعمل التجارى والصفقات التجارية ، وبدون حاجة لإصدار أى تشريع ثورى ولا ذكر لكلمة التأمين أو لكلمة التعويض ، وهما كلمتان بفيضان : الاولى يملكها أصحاب الاملاك والثانية يملكها المذهبون أنصار التأمين

والعملية القانونية الوحيدة البديلة لهذا الاجراء ، هى أن يقوم الملك - ملك انجلترا - باسترداد الارض بمقتضى نص قانون اقطاعى قديم لا يزال قائما الى اليوم ، وان كان منسيا باطل المفعول فى أغلب الاحوال . وكان آخر من مارس حقه فيه من الملوك - الملك هنرى الخامس (١) من خمسمائة سنة مضت واستفاد منه وليم الثالث (٢)

(١) Henry V ١٢٨٧ - ١٤٢٢ ملك انجلترا
(٢) William III ١٦٥٠ - ١٧٠٢ ملك انجلترا واسكتلندا وايرلندا

خشبية لا تتسع الا لسرير واحد .قدر تنام عليه أسرة كاملة ، تملك موقدا واحدا وشريطا صغيرا من الارض . وكان هذا المستوى من المعيشة أقل من مستوى مزارع الكولاك بنسبة العشر . وحتى الكولاك كان مستواهم أقل بكثير من الامكانيات الحقيقية للارض . وفي النهاية ، تبين الفلاحون العاديون والكولاك أنهم كلما أنتجوا ما يفيض على احتياجاتهم ، أخذته الحكومة السوفيتية في صورة ضرائب كانت تعتبر في الواقع ريعا اقتصاديا كالذي كانت تفرضه على الملاك الفدامي . وهكذا عمدوا الى ماشيتهم وخيولهم فقتلوها والى بذورهم فأتلفوها والى محاصيلهم فأخفوها قبل أن تحجز الحكومة عليها وفاء للضرائب . بل عمد القوزاق الى افتعال مجاعات مصطنعة بهذه الطريقة ، واضطرت الحكومة الى تركهم يموتون جوعا

وأخيرا ، كان على الحكومة السوفيتية أن تتخلص من المزارعين الملاك سواء كانوا أكفاء أم غير أكفاء ، وأن تستبدل بهم المزارع الجماعية والمدن السكنية (جاردن ستى) . وحققت في ذلك نجاحا سريعا وهائلا ، وضربت بذلك للعالم مثالا موضوعيا وعمليا ، اذ أصبح واضحا لكل ذى عينين أن ليس هناك ما يبرر التمسك بالخطئة القديمة خطة ترك زراعتنا في ايدي الفلاحين غير المتعلمين أو في ايدي ساداتنا الاقطاعيين الذين أساء تعليمهم ، فكلهم متنافسون بدلا من أن يكونوا متعاونين ، وكل منهم يريد وينتظر منه أن يجمع في شخصه مواهب عديدة متعددة : مواهب الاختصاص في الكيمياء الزراعية والبيولوجى فى الثروة الحيوانية والممول والخبير فى الاحصاء ورجل الاعمال والمحاسب وبالاختصار يريد وينتظر منه أن يجمع فى شخصه من المواهب ما يستحيل

أن يتجمع في فرد واحد فضلا عن موهبة كرايتون العجيب (١) كما لم يحلم به أشد الكتاب اغراقا في الخيال . ان الزراعة عمل من أعمال الفريق ، وليست بالعمل الفردي على الإطلاق . فليس في وسع أي سيد ريفي اقطاعى ، وليس في وسع أي مزارع مهما كانت مواهبه ، أن يؤلف من شخصه فريقا . أما في المزرعة الجماعية فالعمل في الفريق هو العمل الطبيعي الروتيني ..

ان مستقبل الأرض الاقتصادية ، هو في المزارع الجماعية والمدن السكنية . أما داعية الإصلاح الزراعي الذي تلخص كل معلوماته عنه ، أنه مجرد تحويل الاقطاعات الزراعية غير المستصلحة الى أملاك صغيرة للفلاحين ، وترك ملكية الأرض في المدن على ما هي عليه (وما أكثر أمثال هذا الأبله) فلا ينبغي السماح له بأن يدس أنفه في السياسة على أي وجه ، أو أن تكون له بها أي علاقة . وعلى أية حال ، فمن المستحسن من الناحية السيكولوجية - أن تخطط المزارع الجماعية والمدن السكنية بحيث تسمح لكل بيت بزرعة أرض خاصة ملحقة به ، يلهو فيها أهل البيت ويزرعون فيها الزهور والخضروات ، أو يحتفظون فيها ببقرتهم الخاصة أو ما إليها ..

وفي الاتحاد السوفييتي نبهوا الى هذه الظاهرة الطبيعية في الانسان ، وهي رغبته في أن يكون له قدر معين من المعيشة الخصوصية فتنازلوا له عن ذلك القدر على الرغم من نجاح المزارع الجماعية ، فالخصوصيات (أي أن تكون للمرء عيشته الخاصة وبيته الخاص وأشياءه

(١) Admirable Crichton بطل المسرحية التي بهذا الاسم تأليف ج . م . باري « مترجمة ومقررة على مدارسنا الثانوية » ويقصد بموهبته القدرة الفائقة على التحول من شخصية الخادم المطيع الى شخصية الزعيم الأمر والعكس بالعكس ، وبسهولة تامة

الخاصة) تتيح للإنسان فرصة الاهتمام بشؤون المنزلية والعناية بها ، وهذه الشئون تختلف عن عمله بالزراعة أو بغيرها . وإذا كان البيت الريفي القائم وسط المزرعة يستخدم الآن كمسكن ، فهو أبعد من أن يكون ملائما للحياة النموذجية المنشودة ، ويحدث في بعض البلاد أن بعض العمال يسكنون بالفعل في الورش والمسالك وفوق سطوح المحلات التي يعملون بها ، وتلك لعمري حياة لا تطاق . ان مشكلة الأرض في جوهرها هي مشكلة الحياة الخصوصية كما هي مشكلة الحياة الاقتصادية المنتجة على قدم المساواة . فالحياة الخصوصية تنتج الأطفال ، والأطفال أهم من كل المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ، وأهمية الأطفال مسألة حيوية لبقاء المجتمع ، كما أن التدبير المنزلي صناعة ضرورية لا غنى عنها . وليس من شك في أن العادات العائلية سوف تتغير تغيرا عظيما كلما أثبتت الإجراءات الاشتراكية شيئا فشيئا أنها أكثر ملاءمة لها من الإجراءات الفردية . والاعتراضات التي توجه إلى سكنى الفلاح حيث يعمل في بيته الريفي ، وإلى سكنى العامل حيث يعمل في ورشته والصانع في مصنعه ، يمكن أن توجه بنفس القوة إلى سكنى الطباخ في مطبخه والغسالة في مغسلها وربة البيت في البيت الذي هي ربه . وبالتدريج سيختفى وأبور الغاز من المطبخ ، وطشت الغسيل من المغسل ، كما اختفى واندثر المغزل ذو العجلة والنول اليدوي ، وستنتشر الاندية والمطاعم والفنادق وبيوت الضيافة والمصحات ومنتجات الراحة والاستشفاء والمدارس ودور الحضانة ، لكي تقوم بمهمتها الأساسية : ألا وهي زيادة نصيب كل فرد من الحياة الخصوصية الحقيقية بنفس السرعة التي نعمل بها على زيادة التنظيم

الاشتراكى وتعزيزه

ان الابوة والامومة صناعة مبهقة للغاية ، وقد انتقلت فعلا والى حد كبير من اختصاص الآباء والامهات فى البيت الى اختصاص الهيئـة المشرفة على التعليم فى المدرسة وعلى دور الحضانة : أى أنها انتقلت من ايدى الهواة الى ايدى المحترفين المتخصصين

ويشغل الاشتراكيون بالهم كثيرا بالتفسيرات التى ستحدث أو يمكن أن تحدث فى هذه الناحية بحيث يفتلون عن الناحية الأخرى من الموضوع . فهم كلما أرادوا مناقشة موضوع الثروة الصناعية مثلا ، وضـعوا فى أذهانهم ناحية واحدة منه فقط : كيف قضت القوة الهيدروليكية (قوة الماء) وقوة البخار على النول اليدوى وطـردت البروايتـاريا من الكواخ الريف والحققتهم بالمصانع حيث جعل نظام تقسيم العمل من المتعذر على أى عامل أن يتعلم مالا يستغرق أكثر من لحظة واحدة خاطفة من العملية الصناعية الطويلة التى يدخل فيها جمع المواد الخام وتصنيعها وتسويق الناتج من هذا التصنيع ، ثم ما لهذه الأوضاع من تأثير مدمر على الطبقات العاملة ، بأن أصبح العمال فى المدن الصناعية مجرد آلات ميكانيكية كالإنسان الآلى (الروبوت) ، بمشاعر آدمية ، وكيف أنهم يقطنون عششا سكنية موبوءة بالامراض الفتاكة ، ويموت أطفالهم فيها كالذباب ، ينمسا تتزايد ثروات الاقطاعيين والرأسماليين ويتعـساظم بدخهم وترههم « بالقفزات والوثبات » كما قال جلادستون (١) فى وزارة

(١) W. E. Gladstone ١٨٠٩ - ١٨٩٨ زعيم الحزب الليبرالى البريطانى . كان وزيرا للمالية ورئيسا للوزراء أكثر من مرة . وهو من غلاة الاستعماريين الانجليز - بناء الامبراطورية . فى عهده تم قمع ثورة الهند الكبرى واحتلال مصر وقمع ثورة المهدي بالسودان وبدأت حرب البوير الاولى

المالية . وبدأ كما لو كان من المقدور على الانسانية أن تعمل في المصانع والورش والمناجم دائما مادامت القوة البخارية التي تدير المفضل الميكانيكى والمطرقة البخارية لا يمكن تقسيمها أو توزيعها ، ومادامت أكبر من امكانيات أى انسان بمفرده فيما عدا الرأسماليين

غير أن هناك ناحية أخرى من الموضوع : فنحن الآن نعرف أن من الممكن تحويل قوة الماء وقوة البخار الى قوة كهربائية ، وأن من الممكن توزيع هذه القوة الكهربائية من بيت الى بيت كما يوزع الماء والغاز ، وتستخدم في كل كوخ حيث يستطيع الطفل الصغير أن يضيء بها لنفسه طريقه الى فراشه بالليل ، ويستطيع الحرفى الصغير أن يسيطر من خلالها ، على شلالات نياجرا ليجعلها في خدمة أدواته الميكانيكية . وأذكر الايام التي كنت استخدم فيها مقصا يسمى مقص الفتائل لتسوية شموع الشمع التي كنت أحملها في يدي لتضيء لى طريقى الى فراشى بالليل، وأذكر مشاعل الزيت ذات الرائحة الكريهة التي كنت أطالع عليها فى الامسيات ، وأذكر كيف كشف على الطبيب وكحت أسناني المتسوسة بشوكة عادية من الحديد ، ثم عشت حتى رأيت أسناني (أو مابقى منها) وهى تنقر وتحفر بالكهرباء ، ورأيت شعري (أو مابقى منه) وهو يحلق بالكهرباء ، وحجراتى وهى لا تضاء فقط بالكهرباء بل تكنس وينفض عنها الغبار بالكهرباء التى تدار من زر مثبت بالحائط ..

لقد كان لينين الروسى أول رجل من رجال الدولة يرى فى هذه الامور أكثر من مجرد بدع أو أعاجيب أو غرائب تثير الفضول ، فقد تبين أن الوسيلة الوحيدة لنشر الثورة فى روسيا هى كهربة روسيا . وبالسرية التى تتم بها هذه الكهرباء ، ستتحوّل هضاب الاستبس

الروسية ، والصحاري الاسيوية الشاسعة الى مدائن متحضرة مزدهرة خالية من العشش السكنية المزرية ، وسيصبح أهاليها القبليون المتوحشون حرفيين مهرة وصناعا مثقفين ..

وهنا - مرة أخرى - لم يشغل العالم القربى نفسه بشيء الا بالمشروعات الكهربائية الهائلة التي يتم انشاؤها وتشغيلها في الاتحاد السوفييتي ، مثل سد نهر الدنيبر والقنوات الجديدة والمصانع المشيدة بالصلب والزجاج التي تنتج عشرات الجرارات كل يوم ، وهذا كله من عمل جماعات مدربة من العمال ، يعملون بالتوجيه والارشاد والتخطيط . وقبل أن ينشر في بلادنا البحث الكلاسيكي الذي كتبه سيدني وب عن روسيا (١) ، لم نكن نعلم شيئا عن تلك البلاد ، بل حتى بعد ذلك التاريخ ، لم نتنبه الى أن الحرفي الفردي والحداد والنجار وصانع الفخار والنساج ومن اليهم من الحرفيين يمكن أن يولدوا في روسيا أو بالاحرى يبعثوا من بين الموتى في عهد الاشتراكية التي طالما اعتقدنا أنها تخنقهم في المهد أو تقضي عليهم فيما بعد . أما ما لفت انظارنا فعلا ، فأعمال البيت التي أصبحت تؤدي في المطبخ الميكانيكية ، وبالمكانس الكهربائية ، وأنها قد فندت ما كان يقال قديما من أن « عمل المرأة في البيت لا ينتهي أبدا » ، وبذلك اقامت التوازن بين الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية التي ظلت ومازالت تتعارض بشدة مع ظاهرة الحياة الخصوصية

(١) Soviet Communism. A New Civilization صدرت
أولى طبعاته سنة ١٩٣٥ Sidney Webb ١٨٥١ - ١٩٤٧ هو وزوجته
بياتريس عن انشط وابرز الاشتراكيين الغاييين . وكان عضوا في
البرلمان وفي وزارة رمزي مكدونالد ونال لقب لورد ولكن زوجته رفضت
مشاركته فيه . من مؤلفاتهما الاخرى : تاريخ الحركة النقابية -
الديمقراطية الصناعية - الحكومة الانجليزية المحلية - ٦ اجزاء

فى ظل النظام الرأسمالى ..

ومهما كانت أهمية الناحية الاجتماعية ، فليس ثمة خطأ أفحش من الخطأ الذى يقع فيه السياسى العصرى عندما تتسلط على ذهنه هذا الجانب وحده من مشكلة الارض . فهو لا يرى الا أن الحداد الذى يعمل لحسابه الخاص ويسوى حساباته مع الدولة عن طريق محصل الضرائب والمحاسب ، يلعب دورا سياسيا اكبر من الدور الذى يلعبه الموظف البيروقراطى فى مصنع تملكه الدولة الجماعية . وهذا السياسى العصرى هو من طينة الرجل الانجليزى صاحب النزعة الفردية المتأصلة والتى لا شفاء له منها ، وكل منهما ينظر الى الدولة الجماعية دائما نظرة الشك والريبة على طول الخط

أما أسبابى الشخصية للشك والريبة ، فعلى العكس من ذلك على خط مستقيم . ففى وسعى مزاولة حرفتى ككاتب مسرحى بيدى وبمفردى وفى عقر دارى أو فى أية جزيرة صحراوية منقطعة . وترتب على ذلك أن أصبح الكتاب والمؤلفون أعصى الناس على التنظيم بل هم أعصى على التنظيم من قطيع من الخنازير حتى ولو كان القصد من التنظيم حمايتهم والدفاع عن مصالحهم . فهم على الورق نماذج حية لكل فضيلة ، ولكنهم فى العمل فوضويون بوهيميون يميلون للشغب والنقار وتسيطر عليهم عواطفهم ويعجزون عن المناقشة بدون أن يفقدوا أعصابهم ، ويعتبرون كل اختلاف مع رأيهم اهانة شخصية موجهة لهم ، وأمراضهم هذه مزمنة مستعصية لا علاج لها ولا شفاء لهم منها . ولكن لما كانت الصحافة معدودة فى قبيل النشاط الاجتماعى ، فهى بصفاتها هذه تعمل على تمدينهم وترويضهم وتهذيبهم . أما كتاب الروايات الرومانسيون الذين يقعدون بمفردهم لينظموا العالم من

وحى رءوسهم وبنات افكارهم لا يعارضهم معارض ولا
يملى عليهم أحسد ، فلا يمكن بأى حال أن يتعلموا
كيف يعيشون فى مجتمع سياسى
منظم مالم تتوفر لديهم بالفطرة الروح المرحة القوية ،
وعلى رجال السياسة أن يحتملوهم وأن يتفاضوا عن
سيئاتهم ويعتبروهم ضيوفا من عالم آخر . وتفسير ذلك
فيما يبدو أن التحرر من الضغط الاقتصادى يتيح الفرصة
للنزعة الفردية أن تنمو وتتضخم فى الاشخاص الذين لديهم
حظ منها ولم يدربوا تدريباً خاصاً - كالجنود - على
ألا يفكروا بأنفسهم ولأنفسهم . والكتاب فى ظل
الرأسمالية ، ليسوا متحررين من الهموم المالية ، بل هم
أبعد الناس عن أن يتحرروا من الهموم المالية ، فليس
ثمة شخص فى البلاد الرأسمالية - يقيم لمصالحه المادية
أقل اعتبار - يجازف باتخاذ الادب حرفة له . وأعرف
ملا دينية من النساك المتعبدين يسود بينهم قانون الرهينة
الصارم ، بحيث يؤول كل بنس يملكه أى فرد فى الملة
الى ملكية الجماعة تلقائياً ، بل قد لا يكون للأفراد فيها
حق اختيار الزى الذى يرتدونه ، ولكن خبزهم اليومى
مضمون لهم ، وأينما ذهبوا فمن حقهم التمتع بضیافة
أبناء الملة ثلاثة أيام على الأقل ، وقد سألت صديقاً لى
ينتمى الى واحدة من هذه الملل عن الآثار السيئة التى
تتركها هذه التعاليم فى أبنائها اذا كان ثمة آثار سيئة .
ففكر لحظة ثم قال : أقول ، انها تنمى النزعة الفردية فى
الانسان بدرجة مفزعة حتى ليصبح العضو فى الأربعين
من عمره دجالاً لا شبهة فيه . . . وانه لشيء ممتنع
كل الامتاع ، أن ننتظر لنرى هل ستحول الشيوعية
أبناء روسيا الى شعب من الروبوت (الآليين) أم الى
شعب من الدجالين

وفى ختام حديثى ، لابد لى من الالاحاح على أن العقدة فى مشكلة الارض هى النظرية الكلاسيكية للريع الاقتصادى التى خلع عليها فرديناند لاسال اسم القانون الحديدى للاجور ، (١) ولم يكن هذا القانون لسوء الحظ واضحا تراه العين ، مثل كروية الارض ، ومن ثم فهو مناقض للمنطق السليم ومخالف للاخلاق فضلا عن شدة تعقيدته من الناحية الرياضية لدرجة انى أستطيع ان أجمع خمسين خبيرا فى نظرية « التكامل الممتد » (٢) بأسهل من أن أعر على خمسة من السياسيين يفهمون قانون الريع ويفسرون مشكلة الارض على أساسه . وليس فى استطاعة أحد أن يستخلص منه نتائج تزيد على ما فى استطاعة شكسبير أن يستخلص من غزال الاوكابى (٣) أو الاكسولوتل (٤) انهم باختصار وبساطة ، لا علم لهم بأنه موجود . أما كارل ماركس فقد اثبت باشارة سخيفة اليه فى كتاب رأس المال ، انه لم يفهمه . وجون راسكين بعد ان بدا حياته بداية مشجعة جدا كاقصادى يفاضل ويوازن بين اقيم التبادلية والقيم الانسانية ، اصطدم به وتوقف عنده وجمد تماما . ومع ذلك فقد كان لدى كارل ماركس وجون راسكين من الذكاء والثقافة والاهتمام بالمشاكل الاجتماعية اكثر مما لدى ثلاث أو أربع وزارات كاملة من الوزارات المتوسطة واكثر مما لدى ثلاثة أو أربعة ملايين ناخب من اوساط الناخبين ! لقد كان هذا

-
- (١) Iron Law of Wages وهو أن الاجور تتجه فى ظل الرأسمالية دائما نحو مستوى الكفاف أى الحد الأدنى
 (٢) Tensor Calculus مصطلح فى باب الرياضة البحتة
 (٣) Okapi نوع من الغزال الافريقى المخطط اكتشف سنة ١٩٠٠
 أشبه بالزرافة
 (٤) Axolotl حيوان برمائى يعيش فى بحيرات المكسيك . واين لشكسبير بهما ؟

القانون بمثابة الصخرة التي تحطم عليها مذهب كوبدن اللبرالى (١) ، وقام عليها صرح الاشتراكية أثناء الصراع بين البلوتوقراطية والديمقراطية . وما زلنا نعيش فى غمرة هذا الصراع فى الوقت الحاضر . ولما كان الاعلان عن كتاباتى والدعاية لها جزءا لا يتجزأ من طبيعة عملى ، فانى أرانى الآن واقعا تحت أغراء شديد لان أضيف الى كلامى ، ان أى شخص لم يطلع على مقالتي عن الاساس الاقتصادى للاشتراكية وهى احدى المقالات الفابية ، فليتفضل وليسمح لى بأن أواصل الكتابة فى هذا الموضوع والتحدث عنه والاثارة السياسية حوله والادلاء بصوتي له فى الانتخابات أى أن أواصل تأييده بأية طريقة تصل اليها يدى فى هذه البلاد التعسة

أما الذين يشكون فى أن القانون الحديدى اختراع من عندى ، اخترعته لتعزيز قضية الاشتراكية ، فيمكنهم أن يجتهدوا ليحصلوا أولا على المؤهلات التقليدية والشهادات الأكاديمية حتى يتمكنوا من هضم واستيعاب نظرية الريع المبسوطة فى كتاب ريكاردو : « مبادئ الاقتصاد السياسى والضرائب (٢) » الذى كتبه ريكاردو قبل أن

(١) Liberal Cobdenism نسبة الى R. Cobden ١٨٠٤ - ١٨٦٥ السياسى البريطانى اللبرالى من اشد المتعصبين لمذهب حرية التجارة وعدم تدخل الدولة . وهو من زعماء مدرسة منشتر الاقتصادية (٢) D. Ricardo ١٧٧٢ - ١٨٢٣ الاقتصادى الانجليزى الكلاسيكى . ونظرية الريع المشهور بها ، تلخص فى انه بينما تميل الاجور الى الهبوط الى مستوى الكفاف ، يبقى ريع الارض فى مستوى ثابت نسبيا . ومن ثم زاد ثراء أصحاب الارض بزراعتها اكثر من الارض بينما بقيت الاجور منخفضة . كتابه المشار اليه هو : Principles of Political Economy and Taxation

وقد صدر فى سنة ١٨١٧ وجلب له اشتهرة . فى وقت كانت فيه النواة الاولى للاشتراكية المثالية ، تتجمع فى انجلترا بجهود روبرت أوين الفردية

تعرش الاشتراكية لنفسها على اسم تتسمى به في انجلترا ،
ثم ينتقلون منه الى هضم واستيعاب نظرية القيمة
التبادلية القريبة منها ، ثم عليهم بعد ذلك هضم واستيعاب
نظرية ستانلى جيفونز (١) فى الاقتصاد الساسى ، وستانلى
جيفونز بهذه المناسبة هو الذى صحح اخطاء ادم سميث (٢)
وكارل ماركس فى هذا الموضوع

-
- (١) Stanley Jevons ١٨٣٥ - ١٨٨٣ الاقتصادى الانجليزى
صاحب نظرية المنفعة Utility القائلة بان القيمة تحددها المنفعة ومؤلف
كتاب The Theory of Political Economy ويستند اليها
الفابيون الانجليز فى اكثر آرائهم الاقتصادية
- (٢) Adam Smith ١٧٢٣ - ١٧٩٠ ابو الاقتصاديين الكلاسيكيين
صاحب كتابه ثروة الامم (ترجم)

الفساد فى الدولة

بينما تتقدم الاشتراكية لتتخطى المرحلة النظرية الى مرحلة التطبيق ، تعمل على زيادة سلطات الدولة وافساح المجال لنشاطها ، وتعمل أيضا على افساح المجال للفساد لكى يستشرى ، كما تعمل على زيادة حجم السلب والنهب ان كان هناك سلب ونهب . فالاشتراكيون ينادون بتأميم وسائل الانتاج والتوزيع والتبادل ويستحثونا على أن نعلم الناس ونستشيرهم وننظمهم جاعلين هذا الهدف نصب اعيننا . وهذا سليم تماما من الناحية الاقتصادية ، ولكنه أيضا يجعل الرأسمالية والاستعمار اقوى مما كانا فى اى وقت مضى اذا تم التحول من المؤسسات الخاصة الى المؤسسات العامة - كما يحدث الان - على ايدى الرأسماليين والاستعماريين الذين تمولهم الدولة (الفاشستية) والذين يكافحون من أجل مصالحهم الخاصة ، بدلا من أن يتم التحول على ايدى الشيوعيين الذين يهدفون الى الصالح العام للمجتمع كله . وسبب ذلك أن من الممكن - وأنا أكرر - من الممكن تأميم

(*) الفصل الثلاثون من « الدليل السياسى للجميع » طبعة كونستابل سنة ١٩٤٩

وسائل الانتاج والتوزيع والتبادل واستغلالها بدقة أتم واحكام أشد بكثير مما كانت تستغل في الوقت الحاضر بهدف زيادة الدخل غير المكتسب بالعمل ، وبهدف اعفاء أصحابه من الضريبة بينما تزداد تكاليف المعيشة على البروليتاريا وتنقص الوسائل المتاحة أمامهم لتحمل هذه التكاليف . ويشير « المتفائلون » بنشوة وجذل الى ارتفاع الاجور . فمثلا نرى أن أجور العاملات في المجهود الحربي قد ارتفعت من ٢ر٥ بنس في الساعة سنة ١٩١٤ الى ٦ بنسات في الساعة في سنة ١٩٤١ ، وأصبحن يكسبن ٦ شلنات في اليوم الذي يعملن فيه ١٢ ساعة بدلا من ٢ر٥ شلن . غير أن المرأة العاملة عندما تأخذ شلناتها الستة معها الى البيت يصادر صاحب البيت منها فورا ما بين ٨ - ٢٤ بنسا ، ثم تشتري بالباقي طعامها وثيابها بأسعار شديدة الارتفاع . لقد أعلنت الحكومة أمس (فبراير سنة ١٩٤٦) عن قيام الدولة ببناء ٦٠٠٠ مسكن للعمال الزراعيين على أن يكون ايجار المسكن الواحد ١٣ شلن في الاسبوع يدفعها العامل من أجره الذي لا يتجاوز ٤٠ شلن . ان مثل هذا الايجار يعتبر ايجارا فاحشا حتى بعد ارتفاع الاجور

ولست بغافل عن احتمال اختفاء اصحاب الاراضي والاقطاعيين والضرائب المفروضة عليهم بعد ان تشتري الدولة جميع ممتلكاتهم على حسابهم كما اوضحت في بحثي لمسألة التعويض عن المصادرة ولكن اصحاب الاراضي والاقطاعيين ، بعد أن يتجمع لديهم بصفة مؤقتة فائض من الاموال معد للاستثمار ، يتحولون الى رأسماليين وتتحول دخولهم غير المكتسبة الى فوائد بدلا من الربح والايجار ، وهو تحول لا يعنى شيئا بالنسبة للبروليتاريا . وتستطيع الدولة أن تشتري أملاك

الرأسماليين - وربما اشترتها على حسابهم بنفس
الشروط التي اشترت بها أملاك الاقطاعيين ، وتنقل
الصناعة - كما نقلت الارض - الى ملكية الدولة ، وبذلك
لا يصبح الاغنياء القدامى اقطاعيين أو ملاكا أو رأسماليين ،
ولكن ما الذي يمنعهم من أن يتحولوا الى طبقة جديدة
دائمة من الطفيليين الكسالى بذريعة أو بأخرى ، اذا ما
تركت الدولة عملية توزيع الايجار والريع والفائدة والربح
بين ايديهم ؟ من الممكن القضاء طبقة الملاك والاقطاعيين
والرأسماليين وشطبها من الوجود بسهولة ، ولكن الريع
والايجار والفائدة ستبقى تحت يد الحكومة ، وتستطيع
الحكومة بنقل سيطرتها على الانتاج أن تستغل لو شاءت .
فان توزيع الارباح - كتوزيع الايجارات - سيتم وفق
هواها ومشيتها : يمكنها أن تدفع المرتبات الضخمة
والمعاشات الكبيرة لاعضاء البرلمان مثلا ، بما فيهم أصحاب
اللقاب من البارونات السابقين الذين هم - في الواقع
- أصحاب تكايا يرتعون في تكاياهم ولا يمكن زحزحتهم
عنها ، ويمكنها أن تضع نظاما للامتيازات يتدرج من اللورد
أو النبيل الذي يتقلب في النعمة والبذخ ، الى العامل
الكادح الذي يعطى له أجر انكفاف أو أجر الجوع ، جاعلة
بذلك عملية التحول من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ،
تحولا الى الاسوأ

من الطبيعي جدا أن تكون هناك رغبة قديمة - لبرالية
- في بقاء المؤسسات والمنظمات السياسية الحالية بحجة
أنها سوف تخلق لنا جنة الله على الارض بطريقة
أوتوماتيكية أي بدون أن تحد الدولة من الحرية الفردية
أو أن تأخذ على عاتقها مهمة نشر الافكار السياسية
والدينية . والمنظمات والمؤسسات السياسية القائمة
في النظام الرأسمالي ، تستند فعلا الى الفردية المسيحية

التي تضع الروح الفردية أو روح الفرد في مكان رفيع ،
وتضع نفس الفرد الخالدة ذات الارادة الحرة كما خلقها
الله وصورها - تضعها فوق السلطة الجماعية سلطة الدول
الزمنية الزائلة ، والدول من صنع البشر في هذه
الدنيا ، وتعتبر حياتنا في هذه الدنيا لا أكثر من رحلة عبور
قصيرة مملوءة بالخطايا والاثام ، وجزء مؤقت في رحلة
الابدية ، ومع ذلك فليس ثمة شيء اسمه جنة الله على
الارض ، جنة تأتي هكذا أوتوماتيكيا . قد تكون الدولة
الاشتراكية دولة شريرة كأي دولة أخرى ، واليقظة الدائمة
والرقابة الدائمة والحرص الدائم هي ثمن الاشتراكية كما
أنها ثمن الحرية أيضا . لا يمكن أن يدفع في الاشتراكية
ثمن أقل من ذلك ، ومالم تقم اليقظة على الدراسة الجيدة ،
ومالم تتزود الرقابة وأجهزة الرقابة تزويدا كاملا
بالمعلومات ومالم يكن الحرص حرصا واعيا فقد ينجم
عنها أقصى ضرر يتصوره الانسان ، مع توفر أحسن
النوايا وأشرف المقاصد . ومن الاسلام على أية حال أن
ننبذ جميع النظم الاوتوماتيكية ، لأنها ذرائع
للكسل السياسي والبلادة السياسية ، وأن نتدبر وندرس
ونفحص سائر النظم التي تحتوى على عنصر التوجيه اليومي
والدراسة اليومية العلمية لجميع الامور . ان الاعتقاد بقدم
الخلاص أوتوماتيكيا ، قد حطم الرأسمالية تحطيمًا ، وقطع
دابر الليبرالية الكوبدنية ولستسوف يحطم الاشتراكية
ويقطع دابرها بنفس الطريقة المفجعة اذا ما استسلمنا له
وانخرطنا فيه

وعند التاريخ الدستوري ما يقوله في هذا الشأن :
ليس بالشئ الجديد أن تحتكر الحكومة الارض وتحتكر
رأس المال : ان احتسكار الحكومة للارض ورأس المال

موجود فعلا وفي وقتنا هذا بنص القانون . فمن الناحية القانونية ليس هناك ما يعتبر ملكية فردية للأرض ، كل الأرض ملك للملك ، ولا يضع أى شخص يده على قطعة أرض الا باعتبارها منحة من قبل الملك الذى يستطيع أن « يستردها » فى أى لحظة ، وحق الملك فى فرض الضرائب على رعاياه ، حق مطلق ، ليس له حد قانونى يحده ، ويقوم الملك فى الوقت الحاضر بمصادرة دخل أى واحد من رعاياه ولو كان أغناهم ، بل وما هو أكثر من ذلك : يمكنه أن يصادره بأكمله اذا كان الدفاع عن المملكة يحتاج الى ذلك . وهكذا تصبح الحكومة - بعد تنفيذ « نزع ملكية واضعى اليد » - الاقطاعى الوحيد والرأسمالى الوحيد وصاحب العمل الوحيد . ومن الممكن ان تتم عملية نزع الملكية فى نطاق القانون المعمول به حاليا . فقد انتزع هنرى الثامن (١) الاراضى من الكنيسة بدون ثورة، كما انتزع وزير المالية الآن ما يساوى قيمة هذه الاراضى وغيرها من الاموال بقدر ما يستطيع ان يستخلصه منا ، وبدون أى تعويض يقدمه للرأسمالية ككل . ان القانون العام فى جوهره اشتراكى الى ابعد الحدود ، وينبغى ان يكون اشتراكيا بالفعل ، تماما كما ينبغى ان يكون كل قانون دستوريا فى جوهره وطبيعته

لماذا اذن تتحول الحكومة - عند التطبيق - الى حكومة معادية للاشتراكية على هذا النحو الذى لا يطابق ولا يحتمل ، مما يجعلنا نرى السخط الثورى يغلى كالمرجل فى كل مكان ، فى كل مكان ما عدا روسيا السوفيتية ؟

الجواب على هذا السؤال هو أن الملك ووزرائه الذين

يمارسون سلطاته ليسوا اشتراكيين - لأهم ولا الذين أنتخبوهم
أيضا . فهم يقدمون الاراضى والاقتصاديات للأفراد
لأستغلالها لمصلحتهم الفردية ، وإلى المزارعين الملتزمين
بدفع الضريبة ، وهؤلاء وأولئك ينهالون على المواطنين
يسلخون جلودهم بلا رحمة . ويلجأ وزراء المالية عندما
يضعون ميزانياتهم الى فرض ضريبة مباشرة على الدخل
كآخر حل في جعبتهم بعد أن يستنفدوا كل مصدر آخر
من مصادر الإيراد الى أقصى حد . وإذا رفض رأس المال
الخاص أن يتسورط في مشروعات لا تدر ربحا وإن كانت
ضرورية للبلاد (كالخدمة البريدية مثلا) تولتها الحكومات،
ولكنها تباع منتجاتها أو خدماتها بسعر التكلفة ، بل تربح
منها وتستخدم هذه الأرباح في تخفيف عبء الضرائب عن
أصحاب الدخل غير المكتسبة ، أو تعفيهم منها أعفاء تاما
تلك هي النتيجة المترتبة على تخويل الدولة حق
استخدام أدوات الانتاج والتوزيع والتبادل مع ترك جهاز
الدولة في أيدي وزراء من أعداء الاشتراكية ، وزراء تعلموا
في مدارسهم ولقنوا في بيوتهم أن التجارة الحرة والمشروعات
الفردية هي الضمانات الوحيدة للازدهار والرخاء القومي،
بينما يثبت الواقع المر أنها أنتجت الفقر والعبودية والبغاء
والموت المبكر على أوسع نطاق مما دعا الى قيام الحركة
السياسية التي تطلق عليها اسم الاشتراكية تساندها
حركات شعبية أخرى تطلق عليها أسماء الليبرالية ، أو
الارض لمن يفلحها ، أو الفوضوية أو السندكالية أو ماعدا
ذلك من الاسماء والشعارات التي تدل على فقدان الثقة
بالدولة ..

ولنضرب مثلا ، وليكن مايفاخرون به دائما هو الفاء رق
الارض في بريطانيا وأمريكا : لو كنت أملك عبدا يباع

ويشترى أو أحد أرقاء الأرض وكنت مسئولاً عنه اعوله
 واطعمه وآويه بعد أن ينتهى من عمله ، وتحميه قوانين
 خاصة بتنظيم العبودية ورق الأرض حتى لا أسىء استخدام
 سلطاتي المخولة لى عليه ، فأى شىء يجنيه هذا العبد أو
 ذاك الرقيق ، إذا ما ألقيت به فى الطريق ليتضور جوعاً
 أو ليبيع نفسه لسيد آخر ، يبيع نفسه ولكن بعد أن
 يكتسب صفة جديدة : صفة « العامل الحر » ؟ لقد قدمت
 له فى كل التأكيدات بأن فى وسعه أن يختار سيده الذى
 يعمل عنده ، ولكنه بعد أن يتحقق من أنه إما أن يعثر فى الحال
 على عمل ، وإما أن يتضور جوعاً ، سرعان ما يدرك أن
 سيده هو الذى يختاره وليس هو الذى يختار سيده .
 وعندما فقد مالكة القديم حقوقه عليه كعبد رقيق ، أمكنه
 أن يطرحه فى الطريق كنفاية عندما لا يصبح أهلاً لاستخدامه
 فى العمل . وقد لوحظ بعد إلغاء نظام رق الأرض الاقطاعى فى
 إنجلترا ، أن الوفيات من الجوع تضاعفت ، وكانت الحال
 جديرة بأن تتفاقم الى مالا قبل للمجتمع به لولا أن صدر
 قانون الفقراء الإليزابثى (١) . وإذا بالثورة الصناعية تجعل
 من الوفاة بسبب الجوع ظاهرة عادية ، تسجل بانتظام فى
 مكاتب التسجيل الى أن وقعت الهدنة التى أنهت حرب
 السنوات الأربع (٢) . وبانتهاء الحرب ، لم يتمكن ملايين
 الجنود المسرحين من العثور على عمل ، مع خبرتهم فى
 استخدام الأسلحة الفتاكة ، وتقسية قلوبهم بأعمال الذبح

(١) Floor Law صدر سنة ١٦٠١ فى عهد الملكة إليزابث
 يلزم الأبروشيات بتزويد الفقراء العاجزين عن الكسب بالمسونة
 المادية . وقد جرت عليه تعديلات فى سنة ١٨٢٤ وفى سنة ١٨٤٧ وفى
 سنة ١٨٧١ . وقد كانت ملاجئ الفقراء سبة فى جبن البلاد .
 وصفها ديكنز فى رواياته
 Laissez - Faire صاحب
 مذهب حرية التجارة
 (٢) الحرب العالمية الأولى

وسفك الدماء ، وأعتياد بطونهم على الوجبات المنتظمة من لحم البقر . فاضطرت الحكومة الى تعزيز قانون الفقراء باعانة البطالة حتى لا يثور الجنود المسرحون ، وبذلك ضمت قطيعا من الطفيليين الفقراء ناقصى التغذية ، الى قطع الطفيليين الاغنياء المتخمين

وهنا وقفت البروليتاريا وجها لوجه امام هذا الفساد وما قد يتمخض عنه ، وهتفت تقول ومعها كل الحق : « هذه هي نتيجة تأميماتك الظافرة واستنكارك لمدرسة منشستر (١) بمذهبها الخاص بحرية التجارة ، ونتيجة المظاهرات التي قامت بها جمعيتك الفابية لبيان الامكانيات الاقتصادية الهائلة التي تنطوي عليها مشروعات الدولة بما تتضمنه من تأميم أدوات الانتاج والتوزيع والتبادل ! ها هم أولاء الراسماليون يزدادون ثراء على ثراء بالتأميم بل لقد ازدادوا ثراء عما كانوا عليه في ظل حرية التجارة . وها هي ذى الايجارات التي لم تكن تطاق ، ترتفع الان ويزداد عبثها علينا . وها نحن أولاء نستغل بلا رحمة كما كنا نستغل في أى وقت مضى . شكرا ، شكرا لك على لا شيء . شكرا لك على ما هو أقل من لا شيء . الى الشيطان انت واشتراكتك الدستورية التي تصك آذاننا بالوعود ثم ما أسرع ما تخيب آمالنا : أيها الفتيان: انشدوا نشيد المارسييليز : «الى السلاح ايها المواطنون» ! ولكن المارسييليز لا ينقذ الموقف ، ولم يثبت قط أن في القتل والذبح والتخريب علاجا ناجعا لعيوب السياسة ، واساءة استخدام السلطة السياسية، وأن فيها علاجا دائما، بل ثبت انها غالبا تزيد خطورة المرض . ثم ان الخوف من هذه العيوب وما قد تجر اليه ، ربما منع الحكومات

(١) Manchester School مدرسة الاقتصاديين الكلاسيكيين الانجليز في أربعينات القرن الماضي

الفاسدة من دفع رعاياها الى حافة اليأس ، وفي أيامنا هذه ، نرى أن جانبا كبيرا من الفساد القائم ، هو فساد غير مقصود وعفوى لدرجة أن الحكومات نفسها لا تعرف حقيقة أمره ، ولا كيف تعالجه . فإذا ما ووجهت بثورة عنيفة أمرت البوليس بأداء واجبه واستدعت قوات الجيش واصلت حالة الحصار التي يوقف فيها العمل بجميع القوانين ماعدا القانون العسكرى ، ويكال للمتمردين بنفس كيلهم . ولو تمكن المتمردون - كما حدث في الثورة الفرنسية - من إلحاق الهزيمة بالحكومة فى تلك المعركة ، سرعان ما يتبينون أن ما يعرفونه عن طريقة تحسسين الاحوال ، هو أقل مما كانت تعرفه الحكومة المهزومة، وقد أثبت « حكم الارهاب » المنافس للحكومة الرسمية أنه حكم عقيم . كالارهاب الرسمى ، الذى تسبب فيه سواء بسواء . ان الارهاب لا يولد الا الارهاب المضاد ، ثم الارهاب مرة اخرى الى مالا نهاية كالحلقة المفرغة . كان المتعهد الرسمى للمقصلة أثناء حكم الارهاب فى الثورة الفرنسية هو فوكيه تونفيل . فلما دارت الدائرة عليه وارسل هو نفسه الى المقصلة لقطع رأسه ، استقبل شتائم الجمهور بأن صاح فيهم من فوق العربة « الكارو » التى كانت تنقله الى ساحة الاعدام قائلا : « أيها التعساء ! هل سيرخص ثمن خبزكم غدا ؟ » وغدا ارتفع ثمن الخبز . لقد دارت الدائرة على الجمهورية لا على فوكيه ..

ان الامانى البطولية والرغبات المخلصة والشجاعة والتضحية وسفك الدماء الذى لا يفلت منه احد ، كلها اشياء لا جدوى منها ، بل هى اسوأ من ذلك عندما لا يعرف المتنازعون مصدر العيب ولا كيف يعالجونه ومع ذلك يعتقد كثير من الاشتراكيين أن الحكومة

الاشتراكية غير قابلة للفساد ، بينما هي في الواقع اكثر تعرضا للفساد من الحكومة غير الاشتراكية لانها تختلف عنها في أنها تستخدم سلطة الدولة ومالية الدولة في تنمية الانتاج الصناعى والزراعى ، ولا تترك المنتجين وشأنهم ، قاصرة نشاطها على العمل البوليسى وفي حدود الخدمات الضرورية التى لا غنى عنها أو التى لا تدر بطبيعتها أرباحا تجارية أو التى تتجاوز اقصى امكانيات رأس المال الخاص - ومن الواضح أن هذا التوسع الهائل فى سلطة الدولة ومجال نشاطها يحمل معه توسعا هائلا فى احتمالات اساءة استخدامه ..

فالاغنياء والبلوتوقراطيون لا يزالون هم سادة الموقف : أقوى واغنى بكثير من أى وقت مضى لانهم تعلموا الدرس من الفايين وحولوه ليخدم مصالحهم . صحيح ان مفهومهم عن النظام الرأسمالى ضئيل ومحدود كمفهوم الاحزاب البروليتارية عن النظام الاشتراكى ، ولكنهم لم يكونوا فى حاجة الى تغيير مقاصدهم ونواياهم ، ولا الى تربية اقتصادية خاصة تجعلهم يتبعون حاسة الشم الغريزية فيهم التى تمكنهم من وضع أنوفهم ثم أيديهم على الثغرة التى تاتى منها الارباح ، وبهذه الحاسة الغريزية أمكنهم أن يثروا ثراء فاحشا وأن يضاعفوا سطوتهم حتى لم يعد هناك من يقاومهم بعد ان تخلوا عن مبدأ حرية التجارة واستبدلوا بالشركات الخاصة المنافسة والاموال الخاصة والايادات الخاصة ، شركات الدولة ومؤسسات الدولة وايرادات الدولة. قرر الفاييون فى برنامجهم ان من الضرورى ان ترصد الارباح لمنفعة وفائدة البروليتاريا ولكن العناية الالهية لم يكن لها يد فى هذا البرنامج ، فقد كان انتاج الدولة وموارد الدولة ومدخرات الدولة فى يد

فرعون مثلما كانت في يد قايبوس «أوشافيوس» (١) .
أما الدكتاتوريون الذين بدأوا أول أمرهم اشتراكيين، فقد
أطلق الرصاص عليهم، أو سجنوا، إلا إذا تمكنوا من وضع
أيديهم على ما يكفي من الأموال لإنشاء جيش نموذجي
جديد يرتدي القمصان السوداء أو البنية، وكما قدر من
قبل على الفايين القدامى أن يصبحوا أدوات في أيدي
الزعماء النقابيين الذين استغلوهم ليقفوا على أكتافهم
إلى البرلمان ثم قضوا عليهم سياسيا بعد ذلك، قدر على
الدكتاتوريين أن يصبحوا أدوات في أيدي الأغنياء
البلوتوقراطيين ليجمعوا لهم الأموال، ولولا ذلك لما كان
لادولف هتلر أن يصبح دكتاتورا يملأ أوامره على أحد،
بل كان حريا أن يكون طريق الشارع تصفر من حوله
رصاصات البلوتوقراطيين (٢)

هكذا كانت الأوضاع عندما بدأت أنا - أخط مستقبلي
السياسي : كان شعار الرأسماليين بالنسبة للدولة :
« ارفعوا أيديكم عن الصناعة ! ارفعوا أيديكم عن الزراعة !
ارفعوا أيديكم عن البنوك ! ارفعوا أيديكم عن صناعة
السفن وعن المناجم وعن كل شيء ما عدا السياسة الخارجية
وتعهد البوليس حماية الملكية الخاصة ! » وفي باث سنة
١٨٨٨ عندما وقفت أنا في بضرورة تأمين الأرض في اجتماع
للجمعية البريطانية، هب أحد اساتذة الاقتصاد السياسي
والاخلاق هو هنري سجويك الذي لم يعرف عنه من قبل
أنه فقد السيطرة على أعصابه أو رفع صوته على أحد
قط، هب واقفا وصرخ بأعلى صوته : « ان الدعوة إلى تأمين

(١) يشير المؤلف إلى نفسه ساخرا . وهو من مؤسس الجمعية
الغابية

(٢) يشير إلى محاولة هتلر الأولى لقلب نظام الحكم، وفشلها في
سنة ١٩٢٣، قبل أن يحتضنه الرأسماليون الألمان

الأرض دعوة للجريمة ، وأنه لا يسعه أن يشجعها بحضوره . » ولم يكتف بمغادرة المنصة ، بل خرج من القاعة وصفق الباب وراءه بعنف . ولم يتمكن من اقناع أصدقائه وعارفيه الذين لم يحضروا الاجتماع ، بأنه قادر على أن يغضب مثل هذه الغضبة الصاخبة . ولكن كلمة التأميم كان لها في نفس ذلك الرجل تأثير اللغم المتفجر ، وهو من أرق الرجال طبعاً وأكثرهم دماثة

أما في أيامنا هذه الحاضرة ، إذا بشعار الرأسمالي يصبح : « أمموا ماتشأون . . ! اجعلوا البلديات ومجالس البلديات تسيطر على ما تستطيع السيطرة عليه ! حولوا محاكمكم إلى محاكم عسكرية وبرلماناتكم ومنظماتكم السياسية إلى مجالس إدارة ! وعينوا فيها أكثر الخطباء شعبية وديمقراطية ولكن بشرط أن يؤول إلينا الأرباح والربح والفائدة والأرباح كما كانت تؤول إلينا من قبل ، وعلى شرط أن تبقى البروليتاريا صفر اليدين لا تنال إلا لقمة الكفاف »

هذا هو الفساد الأعظم أو البلاء الأعظم في الاشتراكية ، وهو ما نجد أنفسنا أمامه وجهاً لوجه في الوقت الحاضر . أنه يسمى نفسه فاشية في إيطاليا واشتراكية وطنية في ألمانيا (واختصارها نازية) ونيوديل في الولايات المتحدة ، أما في إنجلترا فقد بلغ من الذكاء أن بقى بغير اسم ، ولكنه في كل مكان يعنى نفس الشيء : إنتاج اشتراكي وتوزيع غير اشتراكي . وعلى هذا فالبروليتاريا تكون في ظله كالمستجير من الرمضاء بالنار : لأن الفاشية - وهي مختصر رأسمالية الدولة - بعد أن تكون قد وزعت على البروليتاريا بعض المنافع بالشمس والتقتير ، ووفرت بعض الوظائف البيروقراطية لأفراد لم يكونوا من قبل غير أصحاب عمل عاديين ، ثم شددت الخناق على بند الخدمات العامة ،

وواصلت الدعوة الى عبادة الدولة (المسماة بالدولة
الجماعية أو الشمولية والتي ستؤدي منطقيا الى الدولة
الاشتراكية الحقيقية في الوقت المناسب) . بعد ذلك كله
ومع ذلك كله ، تسببت في اشعال حرب عالمية تتحارب
فيها الفاشية الانجلو - امريكية مع الفاشية الالمانية -
الاطالية، لان للفاشية طابعا دوليا بينما لايزال الرأسماليون
وطنيين متعصبين . فعندما تقدمت المانيا لنشر الفاشية في
جميع ارجاء الكرة الارضية ، تحت حكم الفوهرر أدولف
هتلر ، وحاولت ايطاليا نفس المحاولة تحت حكم بنيتو
موسوليني ، بذل الفاشيون الانجلو - امريكان جهدهم
لاحباط هذه المحاولات ، ولكي تذهب المانيا وايطاليا الى
الجحيم قبل ان يرضخوا هم لاي فاشية ليست من صنع
ايديهم ، وقبل أن يسيروا تحت لواء فوهرر الا الفوهرر
الخاص بهم . لقد حاربوا الاجانب كما حارب اسلافهم
نابليون عندما استهدف اقامة ولايات متحدة اوروبية ،
 ووضع الحكم المحلي في ايدي ابناء اسرة بوناپرت ومارشالاته
خصوصا المتزوجين منهم من شقيقاته . ومن الملاحظ ان
الفاشيين ينقسمون الى فريقين : فريق يريد ملاءمة
الفاشية مع النظام البرلماني الحزبي القديم المحصن ضد
الثورات ، وفريق يرى ان الفاشية تستلزم وجود منظمات
سياسية جديدة ، لانها لا يمكن ان تنمو وتتطور بغير
حكومة نشيطة سريعة البت والتنفيذ ، ومن ثم ينبغي
التخلص من نظام الاحزاب والوظائف المدنية التي على
غرار وظائفنا الجامدة المكبلة بتقاليدها وروتينها ولجانها،
العاجزة عن تحمل المسؤولية والتي تعد في الواقع تكايا
للموظفين العاجزين عن مسايرة الزمن

ولو ان هؤلاء المتحاربين ذوى النظر القصير الكليل ،
قدموا موقفهم حق تقديره أو حتى اهتموا قليلا بالتقاط

فتات السياسة الحقيقية ، لاتحدوا معا ضد الاشتراكية
الديموقراطية الحقيقية : اشتراكية الاتحاد السوفيتى ،
وسوا خلافاتهم فيما بعد أى عندما ينتهون من تقسيم
روسيا فيما بينهم . ولكن الحال هو ما نراه الآن : اتحد
الفاشيون الغربيون مع روسيا للقضاء على الفاشيين فى
وسط وجنوب أوروبا ، واتحدوا مع الصين الشيوعية
لهزيمة اليابان الرأسمالية

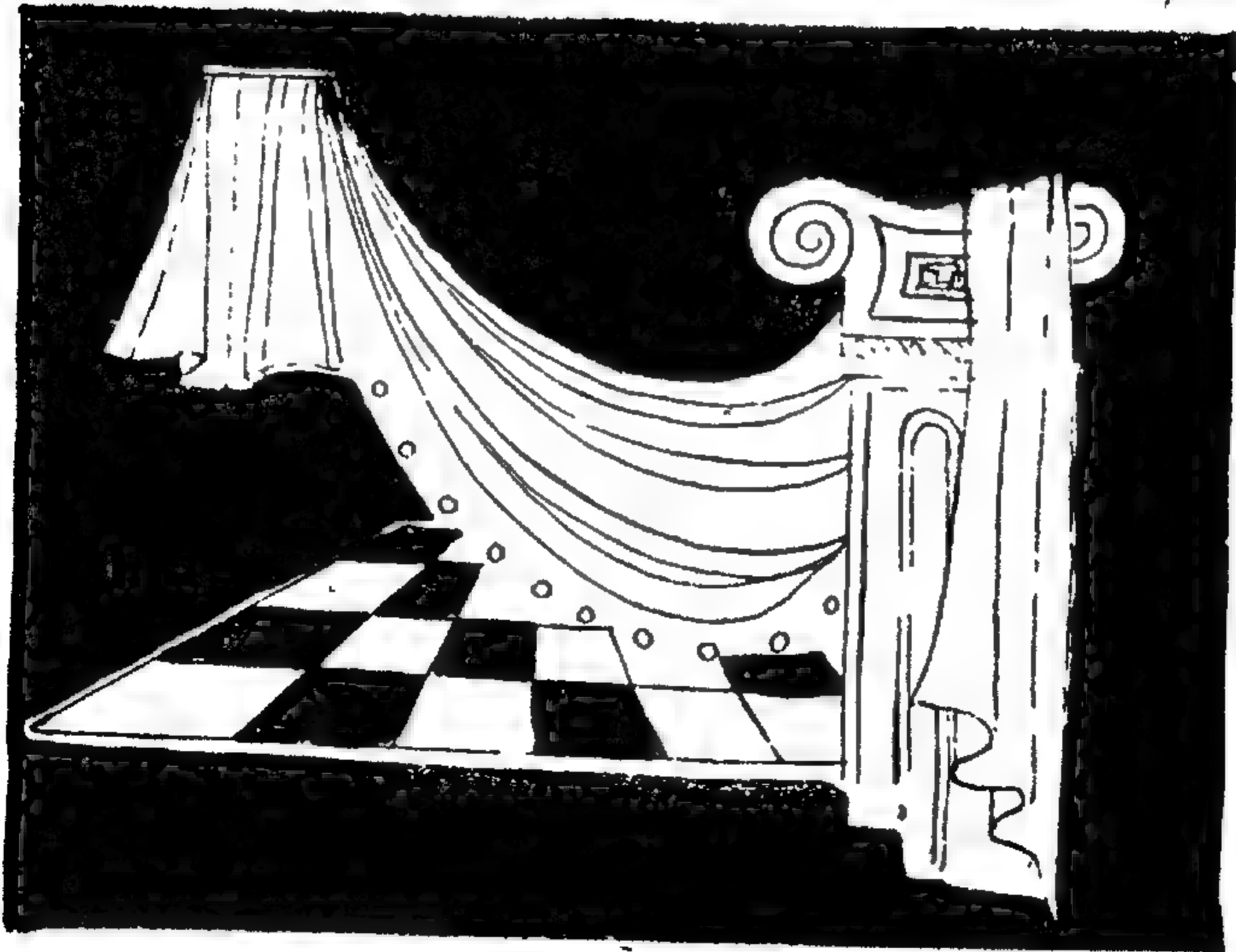
مثل هذه التناقضات المحيرة ، ستنتهى الى حل نفسها
بنفسها بأن يحارب كل فريق فى الجانب الذى ينتمى اليه :
البلوتوقراطية أو حكم الاغنياء ، ضد الديموقراطية أو
حكم الشعب ، والفاشية ضد الشيوعية ، والانتحاج
الاشتراكى سيكون ملائما لكل من الفريقين ومحققا
لاغراضهما . كيف يميز المواطن اذن ، بين الفاشية
والاشتراكية الشيوعية فى التطبيق اليومى ؟ فهو يسلم
نصيبا كبيرا من دخله لمأمور الضرائب ومحصل العوائد ،
لكى تستخدمه الدولة كرأسمال صناعى منتج ، من اين
له أن يعلم أن حصيلة ذلك ستعود عليه فى شكل خدمات
أو سلع أو أجور أو الثلاثة معا ؟ وانها لن تمنح للمبذرين
اصحاب الامتيازات لتمكنهم من حياة البذخ غير المنتجة
على حسابه ؟ فاذا كان هو نفسه واحدا من هؤلاء المبذرين
أو يطمع فى أن يكون واحدا منهم ويريد أن يجرب حظه
تحت لواء الفاشية ، كيف له أن يتأكد من أن عكس ذلك
هو الذى سيحدث ؟

لا يمكن الاجابة على هذه الاسئلة بنظريات مشحونة
بالمصطلحات العامة التى تقارن بين مزايا الليبرالية القديمة
أو رأسمالية التجارة الحرة ، وبين رأسمالية الفاشية
وبين الشيوعية الديموقراطية . فالاحزاب الفاشستية
والاحزاب الشيوعية تدعو الى نفس الاجراءات التأميمية

والى سيطرة الدولة أو المجالس البلدية على المؤسسات
وتدعو بالمثل الى استبدال رأس المال العام برأس المال
الخاص ، والرقابة الادارية العمامة بالرقابة الادارية
الخاصة ، كما يتفق الفريقان على أنه لم يعد من الممكن
افتتاح منجم جديد أو انزال باخرة جديدة الى البحر
بدون معونة الدولة وتدخل الدولة . وتحتاج الفلاحين
والعمال الزراعيين الان موجة من الاندفاع نحو الزراعة
الجماعية والمزارع الجماعية ، بحيث لم يعد في وسعنا
أن نميز بين الشيء ونقيضه : بين مبدأ التجارة الحرة
ومبدأ لينين الخاص بالسياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P.
الذى طبق ، فى سنة ١٩١٢ ، وبالاختصار عندما تصبح
الوسائل هى نفس الوسائل والاساليب هى نفس
الاساليب ، ولكن الاهداف تختلف اختلاف الابيض عن
الاسود ، لن تنفع الناحيين أية نظريات ، ولكن عليهم ان
يحصلوا على مزيد من المعرفة عن الفساد وكيف يستشرى
فى الواقع العملى ، وكيف يمد جذوره فى كل مكان ، عليهم
ان يحصلوا على هذه المعرفة والا سرعان ما يكتشفون انهم
انما يدلون بأصواتهم فى الانتخابات من اجل سلخ جلودهم
وقطع رقابهم

الفصل الثاني

- فن أمريكا .
- شوودارويت - الداروينية .. وضبط النفس .
- شووداروين - التطور في المسرح .



في أمريكا

... لم يكن الاخ جوناثان (أو العم سام) - وهو القروي البريطاني المنفى عن بلاده - أمريكيا قحا ، بل كان مهاجرا من بلاد أخرى ، ولم تكن له من المميزات الامريكية الا اسم يانكي ، ولم يتلق من التعليم الا ما يقدمه المبشر المسيحي للفلام الزنجي ومايلي ذلك من ثقافة أولية : هذا هو الامريكي القديم الذي عاش على هذه الارض منذ ٧٥ سنة مضت

وقضى هذا الامريكي وقتا طويلا يحاول أن يفعل ماتفعله أوروبا ، ولكن بطريقة سيئة للغاية ، كما لا بد لي أن أنه الى أنها كانت أيضا باهظة النفقات جدا . غير أنه ظهر الى الوجود في نهاية المطاف ، طراز اخر من المواطنين الامريكيين يختلف اختلافا مذهلا عن الاخ جوناثان ، بل يختلف اختلافا

(*) من محاضرة القاها شو في دار أوبرا متروبوليتان في أبريل سنة ١٩٣٣ بدموة من أكاديمية العلوم السياسية والمحاضرة مطبوعة في كتيب بعنوان : « مستشفى المجاذيب السياسي في أمريكا والوطن القريب » في أكثر من ٦٠ صفحة

مذهلا عن أى طراز آخر من الناس الذين يمشون على ظهر الأرض . ولنبدأ فى وصفه شكلا : كان انسانا مفرطا فى البدانة والجسامة ، وفيما عدا أنه بدين جسيم ، يصعب وصفه جدا

كان ماردا جبارا : شخصا على أعظم درجة من المهابة . اذا لقيته خيل اليك انه شخصية هامة آمرة ، شخصية فيها شيء ما . ولكنك لاتستطيع ان تفهم ماهو هذا الشيء كان متحدثا فحلا ، بليغا فصيحيا يطلق الحكم والامثال الرائعة ، خطيبا مصقعا ، يصرخ ويزعق فى الاجتماعات ، ويتسيد المدعوين على موائد الغذاء وعلى اوسع نطاق . ولكنه لم يكن يقول شيئا . كانت بلاغة مجردة ، وفصاحة من أجل الفصاحة ، وهى فرع من مدرسة الفن للفن . وكنتم اذا استمعتم اليه تحيونه وتهتفون له بحماسة وتشعرون أن شيئا ما سيحدث فى نهاية الامر ، ولكن هذا الشيء لم يحدث قط

كان شخصا من النوع «المدوى» الصاخب كالطبل الاجوف اذا كان لى أن استخدم هذا التعبير . كان جبارا ضخما ولكنه كان خاليا من أى شيء جديد أو مختلف للدرجة اننا كنا ونحن فى أوروبا نترنح مذهولين من هيله وهيلمانه ، ومن خلو ذلك الهيل والهيلمان من أى معنى على الاطلاق . وكنا نقول : ترى ماسر هذا الرجل الهائل الجبار الذى يتحدث بكل هذه الفخامة وليس لديه ما يقول ؟ هذا الرجل الذى يتمتع بذهن شديد الحيوية ، ولكنه فى نفس الوقت فارغ شديد الفراغ ، لانه لا يبدو عليه أن يعرف أى شيء له أى مدلول . هو دائما جهر الصوت يجعجع عن التفاهات ويقتبس من الشعراء بصوت عال كالرعد لا شيء الا ليؤكد بديهية لا تحتاج الى تأكيد أو يشير الى شيء مبتدل أو حديث معاد

وأراني الآن واقعا تحت اغراء شديد لان أذكر أحد مشاهير
الأمريكيين - وقد مات منذ فترة - كان يمثل هذا الطراز
من الناس أصدق تمثيل . ولكن لا حاجة بي لان أسميه
باسمه لانكم جميعا تستطيعون او التاجحون منكم
في الحياة على الأقل - أن يقولوا : أجل ، هو بلا شك
يعنى فلانا عضو الكونجرس أو فلانا النائب أو أية شخصية
شهيرة لم تنتخب بعد

والآن ، ترى أى عيب يعيب هذا الطراز من الرجال ؟
أقول ان عيبهم أن ليست لهم ركائز ثقافية يرتكزون عليها
ليست لديهم أية نظرية عصرية شاملة عن المجتمع ، بل
ليست لديهم أية نظرية أمريكية عن المجتمع الأمريكي .
واذا جاز لي أن أستعير تعبير صديقي البروفيسور
ارشيبالد هندرسون (١) عالم الرياضيات قلت انه ليس
لديه « اطار للمراجع » (٢) يستند اليه ، وليس لديه
مسلمات علمية من أى نوع . هو طراز من البشر معلق
في الهواء ، ومن ثم لن تحصل منه الا على الريح . . . وان
كانت والحق يقال ريحا عاتية زاخرة الى حد رهيب

مثل هذا الطراز من الرجال ، هو مانتج عن شخصيات
العم سام الغريبة ، وهو الطراز الموجود الآن في أمريكا
وأذهل الدنيا بصفته الأمريكي النموذجي الأمريكي القمح
أو الأمريكي مائة في المائة . كان نموذجا فريدا لا مثيل له
في الرجال . لقد طوفت في الافاق كثيرا ، ولكنى أشهد

(١) Prof. Archibald Hendersor الكاتب والعالم الرياضي
الأمريكي صاحب مؤلفات عن شو منها Playhoy and Prephet
B.S. Table - Talk of G. B.S. وصاحب الدعوة الموجهة لشولزيارة
أمريكا

(٢) Frame of referance مصطلح رياضي مترجم في بعض
قواميسنا العلمية بمناط الاستاذ وهو على حسب معجم المجمع اللغوي :
مايتخذ مرجعا يتعين بالنسبة اليه مواضع النقط

انى لم أر فى أى بلد آخر شبيها بهذا الأمريكى القح ،
الامريكى مائة فى المائة

ذهب هذا الأمريكى يستعرض نفسه فى أوروبا كسياسى
متشدد صلب الرأى ، ولقى هناك فشلا ذريعا ، وكان
فشله بصفة خاصة كسياسى متشدد صلب الرأى . وكان
عيبه أنه كان سياسيا بلا دستور سياسى يرجع اليه
فى افكاره المتشددة وأرائه الصلبة. ولو أنك قلت له ذلك
الان ، لاوشك ان يفمى عليه من الدهشة اذا كان من اللائق
للمارد الجبار ان يفمى عليه ، ولكن حريا أن يقول: «ماذا . ؟
أليس لى دستور سياسى ؟ أليس هناك شىء اسمه دستور
فى أمريكا ؟ هل انت مجنون ؟ أمريكا عندها الدستور
الامريكى على سن ورمح . أمريكا تتحدث دائما عن
دستورها »

واذا كان المخاطب انجليزيا يفتقر الى الفطنة رد عليه
بقوله : « حقا ان أمريكا تتكلم دائما عن دستورها ، ولكنها
تتناول هذا الدستور بالتعديل من آن لآخر ، ومن ثم فهو
يبدو دستورا ناقصا لم يستكمل بعد على غير ماتزن . »
والحق أنكم اذا فحصتم الدستور الأمريكى لوجدتم أنه
ليس فى واقع الامر دستورا ، ولكنه تعهد بالفوضوية .
انه ليس أداة للحكم بل بمثابة تعهد للشعب الأمريكى بأنه
لن يحكم أبدا ، وهذا بالضبط هو ما يريده الأمريكيون

... لقد اقمتم فى غمرة فزعكم من الدكتاتوريين وحكم
الدكتاتوريين مجتمعا كل رئيس وردية فيه دكتاتور
وكل ممول دكتاتور وكل صاحب عمل دكتاتور ، ويضع
كل هؤلاء الدكتاتوريين حياة العمال ومعاشهم تحت
رحمتهم تماما ، ولا يشعرون نحو المجتمع الذى يعيشون
فيه بأية مسئولية عامة . ولكى تقيموا رمزا لهذه الاوضاع،
رمزا يعبر عن فشل كل انواع الحكومات فى بلادكم ،

نصبتهم في ميناء نيويورك صنما بشعا تسمونه « الحرية »
ان الشيء الوحيد الذي ينقص هذا التمثال ، أن تخطوا
على قاعدته العبارة التي كتبها دانتي على باب جهنم :
« ياداخل هذا المكان ، ودع كل أمل ! »

... أرسل لي أمريكى بارز - لن أذكر اسمه - خطابا
تلقيته صباح أمس يقول فيه :

... بالله لا تحكم على الولايات المتحدة ببؤريتها
الموبوءتين : « هوليوود ونيويورك » ولم أدهش لذلك ،
فهوليوود هي اشد بقاع العالم منافاة للاخلاق . ولكنكم
لن تفهموا مرادى من هذا القول . ففي اللحظة التي
استعمل فيها عبارة منافاة الاخلاق ، يبدأ كل أمريكى فى
التفكير فى ملابس السيدات الداخلية . لذلك أرجوكم
ألا تظنوا انى أعنى بعبارتى ، ذلك الشيء الضرورى جدا
الذى يسمى جاذبية جنسية ، وهو شيء مرغوب فيه
الى أقصى حد فى المسرح والسينما ، بشرط أن يعالج
معالجة حسنة ، ويستخدم كأداة تربوية حقيقية بقدر
المستطاع

كلا ، ان ماتدعو اليه هوليوود ، وتفسد به الدنيا
أيما افساد، هو دعوتها الى الفوضوية . ان هوليوود تضع
أمام جمهورها من الاطفال سلسلة من الابطال الشبان
محاطين بهالة من المجد والعظمة ، وكل منهم فوضوى
يميل الى العنف ولا يتردد فى استخدامه ، جوابه الوحيد
على كل شيء يزعجه او يمتنه او يمتهن بلدته أو أبويه
أو فتاته أو قانونه الشخصى الذى صاغه لنفسه عن
الرجولة والفحولة .. ان يناول الشخص الذى أزعجه
أو أمتنه أو أساء اليه ، لكمة فى الفك

انى لاتساءل لماذا لاترفعون قضية على مؤسسات
الافلام لانها تعرض شبابكم على الاخلال بالنظام وتعكير

صفو الامن ؟ لماذا تصفقون وتهللون لابطال الشائسة هؤلاء الذين ترونها دائما مشغولين بكيل الكلمات للناس في الفك عندما لا يكونون مشغولين في تقبيل البطلة ؟ انها جريمة يعاقب عليها القانون ، ان تلکم مواطننا من مواطنيك في فكه . متى نرى فيلما أمريكيا يصدر من هوليوود ، ويتصرف فيه البطل تصرف انسان متمدن - وبدلا من ان يناول خصمه لكمة في الفك ، يستدعى رجل البوليس ؟ هأنذا الاحظ انکم استقبلتم كلامي ببرود وامتنعناض . ولعلکم تحسبون ان استدعاء رجل البوليس في الافلام على هذا النحو ، سيكون شيئا مملا يبعث على الضجر . ولكنه لن يبعث على ضجركم واملاکم ايها السيدات والسادة ، بقدر ما يضجرني ويضجر كل انسان متمدن ذلك السيل الذي لا ينقطع من الكلمات في الفك ، حاولوا بربکم ان تتخلصوا منها . وفوق كل شيء ، حاولوا ان تتخلصوا من النزعة الفوضوية الجاهلة التي تكمن وراء هذه الكلمات ، وتقول للرجل ان في وسعه ان ينفذ قانونه الاخلاقي الخاص بقبضة يده ، وان يعتبر نفسه قاضيا ومحلفا وصاحب الدعوى ..

... انا مسلم بان اوضاعکم الراهنة ليست مشجعة (١) فالبروليتاريا عندکم متعطلة عن العمل ، ومعنى تعطيل البروليتاريا عن العمل ، ان نظامکم الرأسمالي متعطل عن العمل . ويستطيع اى خبير من خبراء العلم السياسى ان يقول لکم ان المبرر الوحيد لبقاء نظام الملكية الفردية في الارض ورأس المال - وهو النظام الذى تعيشون وتعملون فى ظله الان - هو أنه يضمن للجماهير العاملة أعمالا ووظائف بصفة دائمة (والاقتصاديون الرأسماليون يقدمون الحجج

(١) كانت الولايات المتحدة في ذلك الحين سنة ١٩٣٣ تمر بمرحلة ازمتها الاقتصادية الكبرى المسماة « بالكساد العظيم » ١٩٢٩-١٩٣٤

والبراهين على صحة ذلك ، ولكنها حجج وبراهين مصاغة على الورق ببراعة) ، مع ان النتيجة الحتمية لهذا النظام ، انه يخلق طبقة صغيرة من الملاك ، طبقة فاحشة الثراء وهي في نفس الوقت طبقة كسولة بليدة متطفلة لا تعمل وانما تعيش على كد الجماهير التي لا تملك شيئاً ، ولا تحصل الا على خبز الكفاف ، ولكن النظام الرأسمالي (كما يقول الاقتصاديون الرأسماليون) يضمن لهذه الجماهير خبز الكفاف على الاقل وبصفة دائمة . اذن لابد من ان تتوفر الاعمال والوظائف للمتعطلين ، ولا بد للعاملين من ان يحصلوا - على خبز الكفاف مقابل عملهم

فاذا ما حنث النظام الرأسمالي بعهده ، وخاب امل البروليتاريا فيه (وبالرغم من تأكيدات الاقتصاديين الرأسماليين فان نظامهم لم يف قط ولا في أية لحظة بهذا العهد ولم ينفذه قط ولا في أية لحظة التنفيذ الكامل) ، ولم يزد عدد المتعطلين عندكم عن النسبة القديمة التافهة نسبة الـ ٥ ٪ في بعض المهن ، ٨ ٪ في بعضها الآخر ، ٢ ٪ في غيرها فقط بل زاد وتضاعف عدد المتعطلين حتى أصبحوا يقدرون بالملايين - هنا - يكون النظام الرأسمالي كله قد توقف وتعطل فعلا عن العمل ، وتكون مهمتكم العاجلة ، بل أشد مهامكم الحاحا ان تبحثوا لكم عن نظام آخر افضل منه

فاذا نحن تركنا البروليتاريا الامريكية وشأنها ، فما خطب الفلاحين الامريكيين ؟ ان فلاحيتكم مفلسون ، وهم الان في حالة ثورة مسلحة . وحتى صحف بلادكم تخبركم بذلك لو قرأتموها بعناية مع العلم بأن الصحف في جميع البلاد المتقدمة في الوقت الحاضر ، تصدر من اجل تحقيق غرض واحد : هو اخفاء الحقيقة عن الجمهور ، وخاصة اذا كانت متعلقة بمثل هذه الامور . وماذا عن

أصحاب الأعمال الأمريكيين ؟ عندما كنت شابا صغيرا ،
كان صاحب العمل في أمريكا هو سيد الموقف في الصناعة .
كان يستخدم البروليتاريا لحسابه الخاص ، ولتحقيق
ربحه الخاص . وكان يستخدم أرض صاحب الملك ويدفع
له ايجارا . وكان يستخدم رأس مال الرأسماليين ويدفع
لهم فوائد . اما ماتبقى فهو ملكه الشخصى الخاص . وبذلك
كانت جميع المشروعات التجارية في البلاد في يديه . كان
صاحب العمل في ذلك الوقت ، هو بلا نزاع فارس الحلبة
في جميع الجمهوريات الصناعية . وكان في استطاعة أى
رجل يفك الخط ويعمل حساب الدويبة ويتمتع بنصيب
معقول من المقدرة على ادارة الأعمال ، أن يبدأ حياته
كصاحب عمل برأس مال صغير ادخره بنفسه او اقترضه
من أسرته او من اصدقائه

ولكن كل هذا راح وانقضى . صاحب العمل اليوم
بروليتارى ينتمى الى البروليتاريا . انه مجرد مدير
مستخدم ، يعيش بمرتب أو بماهية مع نسبة مئوية
لتشجيعه على العمل لحساب الآخرين بنفس الهمة
والنشاط والجهد الذى كان يعمل به لحسابه الخاص .
لقد كشفت الاختراعات العلمية عن طرق جديدة لجمع
الثروة ، طرق تستلزم اقامة منشآت هائلة الحجم تتكلف
مبالغ أسطورية من زعوس الاموال . كان صاحب العمل
القديم رجلا مهما جدا اذا كان في وسعه ان يتحكم في
رأس مال قدره خمسة آلاف دولار . اما اليوم فالدولارات
اللازمة لمجرد الشروع في بعض المشروعات التجارية
الكبرى تعد بمئات الملايين ، وصاحب العمل القديم عاجز
كل العجز عن العثور عن مثل هذه المبالغ الجسيمة أو عن
منع المشروعات التجارية الكبرى من ابتلاع المشروعات
الصغيرة . وهكذا سقط صاحب العمل من عليائه ، وأصبح

لا حول له ولا قوة ، خاضعا لسلطان طبقة جديدة من الناس
حرفتهم واختصاصهم أن يجمعوا له هذه الملايين من
الدولارات : تلك هى طبقة الممولين . والممولون هم سادة
الموقف وفرسان الحلبة فى الوقت الحاضر . انهم يديرون
دفة بلادكم وهم فى هذا الوقت بالذات يدفعون بها نحو
الهاوية ، ومع ذلك لازلتهم تتركون لهم ادارتها

ولكى أقنعكم بمدى خطورة الموقف الذى تقفه بلاد
تسمح للممولين الفرديين أن يحكموها وأن يتحكموا فيها ،
أرجو أن تسمحوا لى بأن أبين لكم أى طراز من الناس ذلك
الممول . ان الممول هو النقيض المباشر لرجل الدولة .
الممول يفكر دائما فى شخص واحد بمفرده عنده مبلغ من
المال ، وما يمكن هذا الشخص أن يفعله بماله فى الوقت
المناسب حسبما يشاء . ولكن رجل الدولة يضع دائما
فى اعتباره ملايين الافراد سواء كان لديهم أموال أو ليس
لديهم شىء ، وما يمكن أن يرغبوا بقوة القانون على فعله
كل يوم سواء شاءوا ذلك أم أبوه . هذه هى الطريقة التى
ركبت بها عقلية الممول التى تسير وفقا لعادات ثابتة تجعله
عاجزا عن ادراك وجهة نظر رجل الدولة الذى يتعين
عليه فى كل خطوة تشريعية يخطوها أن يقول لنفسه : «هذا
شىء ينبغى على كل شخص فى البلاد غنيا كان أم فقيرا -
أن يقوم به فى نفس الوقت ، لو أصدرت هذا القانون »

والان أقول ان هناك اشياء يستطيع شخص معين أن
يقوم بها ، ولا يستطيعها كل شخص بصفة مطلقة . مثال
ذلك : لنفرض انك تملك معاشا صغيرا - ولتبسيط
الامر سأضع رقم ٥ دولارات فى السنة قيمة لهذا المعاش .
وسوف تقول : أن معاش الدولارات الخمسة فى السنة
ليس بالشىء الكثير ، وأفضل عليه مبلغا كبيرا أفك به
ضيقتى أو ابدأ به مشروعا تجاريا صغيرا . وبناء عليه ، تذهب

الى الممول الذى تعرفه والمسمى سمسار بورصة وتقول له : « انظر يا فلان . انا عندى ايراد ثابت مقداره خمسة دولارات فى السنة وأريد أن أجمع لنفسى مائة دولار نقدا . هل يمكنك أن تحصل لى على مائة دولار مقابل ايراد الخمسة دولارات فى السنة ؟ » وسيجيبك السمسار على الفور قائلا : « بكل تأكيد . المسألة سهلة تماما . كل ما على هو أن آتيك بشخص عنده مائة دولار فائضة على انفاقه ، ويريد مبادلتها بايراد خمسة دولارات فى السنة يضمها الى ايراده الثابت . لا شىء أسهل من ذلك . انها عملية تتم كل يوم »

وول ستريت والبورصات والاسواق المالية وماليها ، ليست أكثر من أسواق يتبادل فيها الناس ايرادات ثابتة بأموال جاهزة أو سائلة وبالطريقة التى شرحتها بالضبط فائض النقود عند شخص ، يشتري له ايرادا اضافيا يضمه الى ايراده الثابت . والايراد الثابت عند شخص آخر ، يشتري له مبلغا مجمدا من النقود السائلة أو الجاهزة للانفاق . أما الاغلبية الساحقة من الناس التى لا تملك ايرادات ثابتة تبيعها ولا أموالا جاهزة تستغنى عنها ، فلا أحد يعبأ بها على الاطلاق . . .

وهكذا يكتسب الممول المحترف الذى يقوم بهذا النوع من الصفقات التجارية طول الوقت والذى تدرب عقله فى البورصات وصبت روحه فى قالب وول ستريت ، يكتسب عادة ثابتة هى عادة الجلوس على مكتبه والامساك بقلم وورقة ، ويضع رقما يمثل جميع موارد البلاد ويضربه فى عشرين . وهكذا ترون ان العملية تتم على هذا النحو : فبالنسبة له ، كل شخص عنده خمسة دولارات فى السنة يساوى مائة دولار . وهو متأكد من صحة هذه المعادلة تماما لانه يعرف انه يستطيع فى أية لحظة أن يذهب الى

سوق المال وأن يجمع مائة دولار بمبادلتها بإيراد خمسة دولارات في السنة ، ويعرف أيضا أن حاصل ضرب خمسة في عشرين يساوي مائة . وتلك هي المسألة كلها !

والآن ، ماذا يحدث عندما تجعلون من رجال المال رجالا للدولة ؟ انهم يعتقدون ان أول واجباتهم هو معرفة مقدار الضرائب الذي يمكنكم أن تتحملوه . ولذلك ، عليهم أن يعرفوا مقدار الثروة التي تحت أيديكم ليفرضوا ضرائب عليها . وهكذا يصدرن أمرهم الى أحد الكتبة ليحسب لهم ثروة الولايات المتحدة برمتها . وفي الحال يستنتج الكاتب حساب ضريبة الدخل أي الايراد الاجمالي للبلاد كلها ، فيضربه في عشرين ويقدم حاصل الضرب على أنه الثروة الموجودة في الولايات المتحدة ، أي الثروة المعدة لفرض الضرائب عليها . ولما كان رجل المال يفتقر الى عقلية رجل الدولة فهو ينسى دائما ان القانون اذا دفع جميع أصحاب الايرادات الثابتة الى بيع ايراداتهم في نفس الوقت ، تحولت البورصة الى سوق يوجد فيه بائعون ولا يوجد مشتررون ، وستصبح قيمة أموالهم وأوراقهم المالية « زيرو » فقط لا غير .. !

معنى هذا ان رجال المال يعيشون في عالم الوهم . فهم يعتمدون على شيء وهمي يسمونه رأس مال البلاد ، وهو مالم ليس له وجود ، وكل خمسة دولارات يحسبونها مائة دولار ، ومعنى هذا ان كل رأسمالي وكل ممول وكل صاحب بنك وكل سمسار هو ٩٥ في المائة مجنون . وأنتم الان ، وفي الواقع ، تتركون مصير بلادكم في أيدي هؤلاء المجانين !

... أنتم تصفقون لى . ومع ذلك هذا هو ماتفعلونه ببلادكم الآن بالضبط . ان أول حرف في الفباء العلم السياسى يقول لكم ان أول شيء يجب عليكم أن تفعلوه

للخروج من أزمته الحالية ، هو ان تؤمموا بنوككم . حسنا والله تفعلون ! لماذا لا تؤممونها الآن فورا ، بدلا من مجرد القعود والتصفيق لى ؟!

... ولا يفتأ رجال المال يدفعونكم دفعا للمخاطرة ويزجون بكم الى مجازفات رهيبه ، ستنتهى بتدميركم حتما ، لو أصررتم عليها . ولكن ، لا تلقوا باللوم على رجال المال . فهم مخلصون وشرفاء ووطنيون . انهم يصنعون هذا الصنيع بمشروعاتهم التجارية والمالية ، ويرون انها طريقة ناجحة وفعالة . ويحسبون - قياسا على هذا - انها لو طبقت على مشروعات شخص آخر ، فلا بد أن تنجح وأن تثمر . ولعل هذا يحفزكم بل يحتم عليكم ان تربوا سلالة من رجال الدولة ، ليحلوا محل رجال المال في حكم بلادكم ولا ضرب لكم مثلا فريدا : لقد خضنا معا غمار حرب عالمية في أوروبا . واقرضتم أوروبا نحو خمسة مليارات من الدولارات بضمان انجلترا . وماذا جنيتم نظير ذلك ؟ تدمير ثلاث امبراطوريات ، وحلول النظام الجمهورى الأمريكى كنظام قومى نموذجى ، محل الحكومات الملكية فى أوروبا . ان معظم ملوك أوروبا الآن فى المنفى مطرودين وبقيتهم هم من تسمونهم ملوكا دستوريين ومعناه أنهم ليسوا ملوكا على الاطلاق وبذلك يتمتعون فى عروشهم الوهمية بوقت طيب وبشعبية بين مواطنيهم تدخل السرور على قلوبهم . وانا أقول ان هذه الثمرة التى جنيتموها نظير نقودكم ، كانت عادلة تماما . ولكن هناك أمرا آخر ، ستكون له أهمية اكبر من ذلك فى المستقبل : ذلك أنكم اتقدتم روسيا . واستنتج من تصفيقكم اننى وجدت على الاقل ، بعض الأمريكين الذين يعلمون أنهم أنقذوا روسيا عندما سقطت القيصريه ، حاولت روسيا أن تجرب شكل حكومتكم فأقامت ماتسميه جمهورية بورجوازية .

ولكن البلاد كانت فى حاجة يائسة لاعادة بنائها . ولم تستطع الجمهورية البورجوازية أن تصنع شيئاً الا أن تتكلم وتتكلم كالكونجرس تماماً ، فستطت بلا حول لها ولا قوة ، عندما قبض البلاشفة على زمام الموقف وفرضوا حكومة ايجابية حقيقية على بلادهم الحائرة . وكانت أمام البلاشفة مهمة مروعة تواجههم : روسيا بسكانها البالغ عددهم مائة وستون مليوناً من الفلاحين الجهلة نصـف المتوحشين الذين لا يعرفون شيئاً عن التطور الصناعى العصرى ، ولا كيف يديرون الماكينات . كانت هناك قبل الحرب صناعة صغيرة ، ولكنها كانت كلها فى أيدي أفراد من الانجليز والبلجيكيين والايطاليين والالمان . ومع ذلك عندما اضطر الحكام الروس الجدد الى انقاذ هذا الحشد الهائل من السكان من المجاعة والجهل والتوحش والقدارة والعبودية ، تبينوا أن ذلك متعذر عليهم ، ما لم يضعوا فى روسيا أسس صناعة الآلات الحديثة بكل وسيلة ممكنة ولم يكونوا يعرفون كيف يحققون ذلك . أيتجهون - فى طلب التعليم والتدريب - الى مستغليهم السابقين من الانجليز والبلجيكيين والايطاليين والالمان ؟ كلا . وهكذا بومضة من ومضات الالهام اتجهوا الى امريكا . . . وانتقدتهم امريكا بفضل توجيه وارشاد وتعليم مهندسيكم الامريكيين الكفاء . ولم يتملقهم المهندسون الامريكيون ، بل جاءوا وشاهدوا وقالوا لهم : « حالتكم تدعو الى الفرع . ومحاولاتكم لبناء صناعة آليّة حديثة لا رأس لها ولا قدم ، هى مجرد فوضى مفرجة . ومن رابع المستحيالات أنكم ستخرجون يوماً ما من هذه الفوضى . يمكننا أن نقول لكم ماذا عليكم أن تفعلوه ، وطريقة فعله . ولكن هل يستطيع فلاحوكم غير المدرّبين تنفيذ ما نشير به أم لا . . . تلك مسألة أخرى » . وهكذا قال المهندسون

الامريكيون الاكفاء للروس . وأنا أعرف شخصيا الأمريكي الذي حمل الى موسكو ذلك التقرير الذي يستوقف النظر جدا ، ويتضمن كافة المعلومات المطلوبة في هذا الشأن . وقد مر هذا السيد بلندن وهو في طريقه الى موسكو فوضع تقريره تحت أنظار بعض الخبراء الانجليز . وأضاف الخبراء الانجليز بعض المقترحات القيمة ، ولكنهم قالوا : « هل تظن أن الروس سيستحملون منك هذا التعريض وهذا الفضح لجهلهم وعدم كفايتهم ؟ اذهب وسلم لهم تقريرك ، وسوف يسلمونك للبوليس ليعبر بك الحدود في اليوم التالي . لا شك سيمنعون هذا التقرير من التداول ، ولن يسمع به أى شخص بعد ذلك »

وهنا قال مواطنكم الأمريكي الذي كان يمثل شركة أمريكية مقتدرة : « هذا لا يعنينى فى شيء . لقد دفع الروس ثمن كتابة التقرير ، وسوف نعطيه لهم ويمكنهم ان يفعلوا به ما يشاءون ، يمكنهم ان يمنعوا نشره وتداوله كما تفعل أية حكومة انجليزية أو أمريكية فى مثل هذا الموقف ، ولكنهم على أية حال سيحصلون على البضاعة التى دفعوا ثمنها ، وسيحصلون على بضاعة جيدة »

وقد اخطأ الخبراء الانجليز . ففى خلال ثمان وأربعين ساعة من تسليم التقرير فى موسكو أمر الروس بطبع عشرة الاف نسخة منه ، وبتداولها على أوسع نطاق ، بل اخذت مكبرات الصوت التى ركبوها فى جميع أنحاء البلاد تصرخ مذيعة التعليمات والارشادات الواردة فى التقرير ، وتقول للعمال الروس بوجوب وقف كل تبديد وكل تعطيل وكل خطأ فى العمل ، وان عليهم ان يتعلموا كيف يديرون ماكيناتهم وكيف يعتنون بها . ودعى العمال الأمريكيون الى روسيا ليعلموا العمال الروس فنون العمل فى المصانع ، ودعى المديرون الأمريكيون ليعلموهم ادارة المصانع . والان

الامر بات كما تعرفون - فقد شمر الروس عن سواعدهم واجتازوا ازمتههم بالرغم من ان المعلمين الامريكيين قالوا ان من الصعب ان يتصور الانسان ان ذلك كان ممكنا في تلك الظروف . وتلاحظون ايضا ان المنتجين الروس كانوا متحررين من ذلك الاحتكاك المروع الذي تولده المنافسة والذي يضيع علينا الكثير في بلادنا حيث يتقاتل كل مدير مع الآخر من اجل الربح ، وحيث ينقسم كل مصنع على نفسه بسبب الصراع الطبقي . لقد شمر الروس عن سواعدهم واجتازوا ازمتهم لانهم شمروا عن سواعدهم معا واجتازوا ازمتهم معا . وكانت النتيجة انهم أصبحوا الان احدى الدول الصناعية الكبرى في العالم .. والفضل لامريكا ..

قد يقول بعضكم بصراحة : « هذا شيء يملأ نفوسنا غبطة ، على نحو ما . ولكن هل قصدنا بالضبط الى هذه النتيجة ؟ » اقول ربما كان الجواب على هذا السؤال هو بالنفي .. ولكن الا تكون البصيرة السياسية العمياء التي اعطيتم حقلكم العادل منها ، هي التي حملتكم على ذلك من حيث لا تشعرون ، وأرشدتكم الى الصواب على الرغم منكم ؟ وعلى أية احوال ، فقد ساعدتم فعلا على وضع اسس النظام الشيوعي في روسيا . والان ، اقول لكم ان من المهم جدا لكم ان تستمر الشيوعية في روسيا وأن تبقى . والا هل تدبرتم، أيها السيدات والسادة ، حالتكم وكيف تكون فيما لو عادت روسيا بكل ما لديها من موارد وامكانيات جديدة .. لتصبح من جديد دولة رأسمالية استعمارية ؟

لقد كنا جميعا في أيام شبابنا المبكر .. نخاف من روسيا خوفاً الموت . كنا نتحدث عن ارادة بطرس الاكبر كأنها

ارادة الله . ولقد صنع مستر رديارد كبلنج (١) شهرته كشاعر وطنى ، وبطل مكلل الهامة بالفار عندما هاجم فى شعره الدب الابيض الكبير وشنع عليه وصوره فى صورة القوة الغاشمة التى تهدف الى وضع مخالباها على الهند تمهيدا لوضع مخالباها على آسيا كلها ثم السيطرة على العالم بأسره . وانى لاحب ان أسأل السادة المغفلين قصار النظر الى درجة خبيثة ، ممن يملئون الصحف الامريكية شهرا بروسيا ويرددون كل أنواع الاكاذيب السخيفة عنها ، زاعمين ان الشيوعية الروسية قد أفست وان الشعب الروسى يتضور جوعا ، احب ان أسألهم ماذا تظنون انكم فاعلون ؟ هل تريدون ان تعود القيصرية مرة أخرى ؟ وبصرف النظر عن قيصر او لا قيصر ، هل تريدون اقامة نظام رأسمالى روسى ينافس نظمنا الرأسمالية على الاسواق المتبقية لدينا ؟ هل تريدون ان تحفروا القبر الذى دفنت فيه الشيوعية ، الدب الابيض وتعيدوه الى الحياة بمخالبه الرهيبه بعد ان تضاعفت حدتها ورهبتها عشرات المرات ؟

ترى ماذا تكون النتيجة اذا مانجحت مساعى هؤلاء السادة المغفلين ؟ افرضوا انكم اطحتم بالمستر ستالين كما اطاح الحلفاء الملكيون بنابليون فى سنة ١٨١٥ واستبدلوا به دوقا او ارشيدوقا من أسرة ملكية ، وحكومة من الدبلوماسيين «دقة قديمة» من المتعاونين مع اصحاب أملاك «دقة قديمة» والواقعين جميعا تحت سيطرة رأسماليين

(١) Rudyard Kipling ١٨٥٦ - ١٩٣٦ شاعر الاستعمار البريطانى الاكبر المتفنن بالامبراطورية وصاحب شعارات «عبد الرجل الابيض» و « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ولعله لفرط حماسه، كان المؤذن على قرب خراب الاستعمار واضمحلال الامبراطورية الوشيك . وخاصة فى قصيدته Recessional

« دقة قديمة » ، ليقاتلوا معا فى سبيل أسواق جديدة - ولكنهم فى هذه المرة سيقاتلون الجيش الاحمر الذى لا يقهر، الجيش الذى أنشأه تروتسكى!.. ترى ماذا عليكم أن تفعلوا بعد ذلك ؟ سيكون عليكم أن تضاعفوا أسطولكم أربعة أضعاف ، وأن تضاعفوا قواتكم الجوية ضعفين على الأرجح، ومع ذلك لن ترى أعينكم النوم خوفا من الدب الابيض ومن حسن حظ امريكا ، ان العناية الالهية مازالت ترمقها بعين العطف ، وجعلت من روسيا دولة شيوعية . وطالما بقيت روسيا دولة شيوعية ، فلن يكون لديكم ماتخشونه منها . ان الشيء الوحيد الذى هو أولى بأن تقلقوا من أجله ، ليس ما يحدث فى روسيا ، بل ما يحدث فى الصين وما سوف يحدث فى الصين . (١) وأنا آمل بكل اخلاص - لصالحكم - أن تسوى الصين مشاكلها المتناثرة وذلك بتعهد النواة الشيوعية الموجودة بها حاليا ، لتنمو وتكبر وتهيمن على رقعة بلادها بأسرها ، بحيث تصبح الصين وروسيا دولتين شيوعيتين قويتين . عندئذ يستطيع كل أمريكى أن يقعد تحت كرمته أو تحت شجرة التين فى حديقته دون ان يخشى شيئا . اذا انتم لم تستطيعوا تقدير الشيوعية الامريكية حق قدرها ، فلا أقل من أن تتعلموا كيف تقدرون الفائدة التى تعود على امريكا من تحول البلاد الاخرى الى الشيوعية . ولكم فقط أن تتصوروا الولايات المتحدة وأمامها من الدول الرأسمالية لا اليابان فقط ، بل روسيا أيضا كدولة رأسمالية ، والصين كدولة رأسمالية ! أولى بكم ان ترتجفوا من هول الصورة (٢)

(١) كان شو فى سنة ١٩٣٣ يتنبأ بما سوف يحدث فى الصين فى سنة ١٩٦٤

(٢) اعترفت الولايات المتحدة رسميا بالاتحاد السوفيتى فى ذلك العام نفسه سنة ١٩٣٣ وكانت اخر البلاد الرأسمالية التى اعترفت بها ، ومازالت الى اليوم ، لم تعترف بالصين

والآن ترى ما الذى ستفعلونه فى هذه الامور ؟ الا
تشعرون وانا اقلب أمامكم هذه المسائل ظهرا لبطن ، انكم
فى حاجة ماسة جدا الى أكاديمية للعلوم السياسية ؟
وانها يجب أن تكون أكاديمية أمريكية وليست أكاديمية
أوروبية « نصف عمر » ؟ منذ نحو خمسين سنة مضت ،
وضعت أنا وبعض أصدقائى ، وكلهم بهذه المناسبة قد
انتقلوا الى الدار الاخرة حاملين معهم ايمانهم الطيب
وقدراتهم الوافرة - وضعنا أسس مايسمى بالاشتراكية
الفابية فى انجلترا كاحدى العقائد السياسية ، وكانت
الاشتراكية الفابية من ألفها الى بائها عقيدة انجليزية
خالصة . عرفنا كل شىء عن فريدريش لاسال وعن كارل
ماركس وعن الاشتراكية الديمقراطية ، وعرفنا كل شىء
عن فوريير (١) وبرودون وبلانكى (٢) فى فرنسا ، وعرفنا
عن باكونين (٣) فى روسيا . ولكننا عندما عرضنا نظامنا
الاشتراكى الفابى على الجمهور الانجليزى لم ترد فيه كلمة
واحدة عن كارل ماركس أو أى اشتراكى أجنبى آخر .
لقد صنعت الاشتراكية الفابية من البداية الى النهاية وفقا
للمخططات الانجليزية وبالفكر الانجليزى ، واستنادا الى
الحقائق الانجليزية

وهأنذا أنصحكم - وأحضكم بقوة - عندما تتقدمون
لتدعيم هذه الاكاديمية للعلم السياسى ، وللمساهمة فى

(١) C. Fourier ١٧٧٢ - ١٨٢٧ الاشتراكى الثالى الفرنسى
كان يتجه بفكره الى مجتمع زراعى بعيد عن الرأسمالية ولكنه فشل
فى اقامة المستعمرات الزراعية التى كان يحلم بها
(٢) L. Blanqui ١٨٠٥ - ١٨٨١ الاشتراكى الفرنسى الثورى
مؤلف كتاب « النقد الاجتماعى » وداعية مذهب الاقلية الواعية من
الصفوة الذى أخذت عنه الحركة السندكالية ..
(٣) MC. Bakunin ١٨١٤ - ١٨٧٦ الزعيم الفوضوى الروسى
الشهير خليفة برودون مؤسس المذهب الفوضوى

عملها الذى يتلخص فى صياغة دستور جديد للبلاد ،
أنصحكم وأحضكم بقوة أن تجعلوه دستورا أمريكيا من
الآلف لليا . ولا تشغلوا أنفسكم بكارل ماركس . لقد
كان كارل ماركس نبيا جبارا ، ومع ذلك تكاد جميع الأخطاء
الإدارية التى وقع فيها الشيوعيون فى روسيا ، ترجع الى
تمسكهم بحرفية الأورثوذكسية الماركسية ، بينما ترجع
سر نجاحهم العظيم بقيادة ستالين . . ان ستالين كان
يتميز فى روسيا بأنه زعيم وطنى أولا وقبل كل شيء .
ويقول ستالين : « لسوف أرسى دعائم الشيوعية فى
روسيا ، وبذلك أقيم للشيوعيين نموذجا يحتذونه فى كل
مكان . فاذا لم يشاءوا اتباع هذا النموذج ، فهذا
شأنهم : ان روسيا بلاد شاسعة وكبيرة جدا ! وهى تكفينى
وقد عولت على انقاذ روسيا تاركا البلاد الأخرى لتنفذ
نفسها بنفسها »

وكان محقا تماما فيما ذهب اليه . ونجح فى شق
الطريق الذى رسمه لنفسه . وأرى أن عليكم فى أمريكا
أن تلجأوا الى تلك البصيرة السياسية التى لمحتها فيكم وأن
تصوغوا الدستور كله بأنفسكم ولأنفسكم من واقع الحقائق
الأمريكية ، وبالفكر الأمريكى ، ووفقا للمخططات الأمريكية ،
وذلك حتى تتمكنوا من تحويل الأمريكى المائة فى المائة الى
انسان أمريكى مائة فى المائة ، وليس هذا فقط ، بل الى
رجل دولة مائة فى المائة

والان أيها السيدات والسادة لابد أن تكون هناك نهاية
لكل شيء ، حتى للخطب التى يلقيها برناردشو . ولم يعد
لدى ما أضيفه الا أن أقول اننى جئت الى هنا لاسدد
دينا قديما على لأمريكا . ففى شبابى كنت متمردا على
العقيدة السلفية ، مناضلا من أجل العلم الحديث والفكر
الحديث وتقدمهما فى الاتجاه المضاد للعقيدة السلفية : كما

كانت نفسى مليئة بحب التطور والاكتشافات الجديدة فى الطبيعة الفلكية والفنون الجميلة . ولكنى كنت لا أعرف شيئاً عن الاسس الاقتصادية التى يقوم عليها المجتمع ولا عن أهميتها للتاريخ والعلم السياسى . كان العلم فى نظرى يقع برمته خارج دائرة السياسة ، ولم أكن أعرف أن هناك شيئاً اسمه العلم السياسى . وذات ليلة ، ذهبت بمحض الصدفة الى قاعة للمحاضرات فى لندن . وهناك سمعت رجلاً يخطب ، وقد حول خطابه مجرى حياتى كله . كان الرجل أمريكياً من سان فرنسيسكو ، وهو هنرى جورج . وكان قد شاهد بعينه مدناً على شاكلة سان فرنسيسكو وهى تتولد من معسكرات ومخيمات ، فتنمو لتصبح مدناً غنية فاحشة الغنى ، ولاحظ أن الناس مع ازدياد الثراء ، كانوا يزدادون تعاسة وفقراً . وكانت السياسة التى تسيطر عليهم ، فوضى لا خلاص لهم منها - وكان التقدم الأمريكى فيما نسميه بمضمار الحضارة - مصحوباً بانخفاض مروع فى مستوى حياة عامة الشعب . كان التقدم فى كل مكان معناه الفقر (١)

أقول ، ان هنرى جورج وضع قدمى على أول الطريق ، طريق الاقتصاد والعلم السياسى . ولم ألبث أن قرأت كارل ماركس ومؤلفات جميع الاقتصاديين السياسيين فى ذلك الوقت ، ولكن هنرى جورج الأمريكى كان هو الذى دفعنى الى ذلك . ولما كان ذلك هو بداية اهتمامى بالشئون العامة ، فقد حسبت أن من اللائق أن آتى الى أمريكا فى نهاية حياتى ، لارد لها شيئاً من الدين الذى أدين لها به : وأعنى به شيئاً من ذلك الدافع الذى دفعه هنرى جورج فى كيائى ..

(١) يشير الى كتاب هنرى جورج : « التقدم والفقر »

ثم ان على لامريكا ديونا أخرى • كان الناس فى انجلترا
بعد مرور سنوات على ذلك العهد ، فى حيرة من أمرى •
ترى أى شخص أكون ؟ وسر هذه الحيرة اننى لم أقنع
لنفسى بشهرة واحدة فى مجال واحد ، بل صنعت لنفسى
نحو خمسين منها ، فى خمسين مجالا • والذين يعرفون
شهرتى فى ناحية ، لا يعرفون شهرتى فى النواحي الأخرى
بحيث بدأ برناردشو كما لو كان حزمة من أشخاص
مختلفين • وهكذا بقيت شخصيته غير واضحة ولا مفهومة
الى أن جاء سيد أمريكى آخر هو أستاذ الرياضيات الذى
أشرت اليه فى أول خطابى ، البروفسور أرشيبولد
هندرسون ، فقدمنى الى الجمهور فى صورة كاملة وواضحة
ومفهومة (١) • وكان وقع ذلك فى انجلترا مفيدا جدا لى ،
وهنأت نفسى على أننى أصبحت موضوعا يشغل ذهن أحد
علماء الرياضيات ويستمتع به • ونتيجة لذلك تشكأت فى
شكل رياضى دقيق ، وأصبحت شخصا حقيقيا له أبعاد
حقيقية ..

والان لعلكم أدركتم لماذا اخترت هذه الجمعية بالذات ،
لاخطب فيها مفضلا اياها على ما عداها مع أن كل جمعية
أخرى فى أمريكا تقريبا ، قد طلبت منى أن أخطب فيها -
السبب هو أن هذه الجمعية ، جمعية أكاديمية العلوم
السياسية ، هى أهم هيئة فى أمريكا اليوم • والعمل الذى
تنهض به هو العمل الذى سينقذ أمريكا اذا كان ثمة شئ
يمكن أن ينقذ أمريكا • ولن يمتد بى العمر لارى ثمرة هذا
الانقاذ ، ولكنى آمل أن تكون نبوءتى عنها نبوءة صادقة
غير كاذبة

(١) يشير الى مؤلفات هندرسون عن شو ..

شوداروين الداروينية وضبط النفس

زعمت الداروينية ان العلاقة الحقيقية التي تقوم بيننا ، هي علاقة بين متنافسين في صراع من أجل البقاء ، والبقاء فقط ، وان كل عمل من أعمال الرحمة والاخلاص والاخوة والروح الرفاقية القديمة ، هي محاولة عقيمة وخبيثة لتخفيف حدة هذا الصراع وللإبقاء على الانواع الدنيئة من الكائنات الحية التي تبذل الطبيعة جهودها لاجتثاثها كما تجتث الاعشاب الضارة . وليت الامر يقتصر على ذلك ! فحتى في مجتمعات الاشتراكية التي لم توجد الا بهدف احلال قانون الاخوة والروح الرفاقية محل قانون الخطف والمنافسة ، واحلال الحكمة والعناية الالهية محل الاندفاع العنيف الاهوج من شفا جرف الى قاع البحر ، حتى في تلك المجتمعات وجدت الناس يعتبرونني ملحدا عاطفيا جاهلا لاننى حيثما دعا دعاة الداروينية الجديدة لم أحاول قط ان أخفى عنهم احتقارى الفكرى لما في مذهبهم من وحشية وفجاجة وبدائية عمياء ومنطق سطحي ، فضلا عن اشمئزازى الفطرى مما فيه من مجافاة بشعة للروح الانسانية والفطرة الانسانية

ولما لم يكن فى الداروينية مكان لارادة الانسان الحرة

أو لاى ارادة أخرى ، فقد زعم الداروينيون أن ليس هناك شىء اسمه ضبط النفس . ومهما زعموا فـضبط النفس هو الصفة الأساسية الوحيدة التى تجعل للبقاء قيمة ، والتى يتحتم على قانون الانتخاب الخاضع للظروف أن يبنـيها ويطورها بثبات واطراد على المدى الطويل . أما النـصـفـات التى لا تخضع لضبط النفس ، فيمكن انتخابها لفترة محدودة أو فى ظروف معينة لتثبت صلاحيتها للبقاء والتطور . ولنضرب لذلك مثلا : هناك أناس يتصفون بالشراهة والتكالب على الطعام بلا ضابط ولا رابط ، هؤلاء الناس هم أنشط الناس سـعـيا وراء الطعام والشراب ، ومن ثم ففى فترات القحط ونقص المئونة سيزداد ما عندهم من قوة ودهاء وحيلة بفضل نشاط مساعيهم ، غير أن أقصى ما يمكنهم أن يفعلوه لن يتسبب فى هلاكهم من كثرة الأكل بسبب ندرة الطعام أصلا . أما إذا تغيرت الأحوال وتوفر الزاد والطعام بكثرة ، فإن هذا التغير كـفـيل بالقضاء عليهم من الإفراط فى الأكل ، ونلاحظ هذا كثيرا فى الرجل الفقير الذى كان يتمتع فى فقره بالصحة والعنفوان ، فإذا أصبح مليونيرا بفضل إحدى المصادفات أو بضربة من ضربات الحظ فى مجال التجارة الرأسمالية المتنافسة ، إذا به يمضى من فوره فيبلغ فى الأكل بشراهة حتى يحفر قبره بأسنانه . غير أن الرجل الذى يتمتع بضبط النفس ، يبقى ويعيش متغلبا على هذه التقلبات فى الظروف بتكييف نفسه معها ، فلا يأكل من الطعام أقصى ما يمكنه أن يأكله ، ولا أقل ما يمكنه أن يأكله ، بل الكمية الصالحة له لا غير . ما هو ضبط النفس ؟ انه ليس الا احساس حيوى على درجة عالية من الرقى والتطور ، يتولى السيطرة على الشهوات البدائية المجردة وتنظيمها . وقد تجاهل الداروينيون الجدد - تحت شعار الانتخاب الطبيعى - وجود هذا

الاحساس السامى الرائع ، وتجاوزوا عنه ولم يلتفتوا الى الدليل الواضح الذى يدل عليه وهو أنه الصفة الوحيدة التى يتميز بها الاصلح ليبقى . وبالاختصار اسقط الداروينيون من حسابهم أرقى واسمى قضية اخلاقية فى الوجود ، فكشفوا بذلك عما يعانونه من افتقار فى الالمام بالموضوع الذى يعالجونه من كافة نواحيه ، وهو عيب منهم يستحق الرثاء ، لقد فضحوا بأنفسهم عجزهم الغبى عن ملاحظة القوى التى تحرك الانتخاب الطبيعى نفسه ، وعليها يعتمد

نموذج من الهجاء اللاماركم التشموى (١)

ولم يقع الفلاسفة « الحيويون » (٢) فى مثل هذه الأخطاء : فنيته مثلاً وهو يفكر فى اكتشاف الحقيقة المركزية الكبرى لإرادة القوة ، لم يشغل نفسه بتر أذيال الفيران (٣) ، ولكنه لم يجد مشقة فى أن يستنتج أن الهدف النهائى لإرادة القوة ، هو السيطرة على النفس ، أما الذين يسعون وراء القوة من أجل القوة ، ومن أجل السيطرة على الآخرين وعلى الممتلكات المادية ، فيقتفون أثراً كاذباً

وبانقراض الداروينيين الأوائل اشتدت حدة التشنيع بطبيعة الحال على خلفائهم . فقد كان لدى أولئك الرواد

(١) J.P. Lamarque ١٧٤٤ - ١٨٢٩ العالم الطبيعى الفرنسى الذى سبق داروين بنظرية التطور « أول من قال أن البيئة تؤثر فى الوراثة وواضع قانون وراثة الصفات المكتسبة . وبسبب معارضة رجل الدين كوفيه ماتت نظريته فى المهد »

(٢) Vitalists

(٣) يشير شو هارتا الى البعثة البيولوجيين الذين يجرون أبحاثهم فى العمل على الحيوانات الحية

الاولا ، أساس من الثقافة القديمة يبنون عليه نظريتهم وحججهم ، ولم يكونوا في الواقع داروينيين بالمعنى العصري للكلمة أكثر من داروين نفسه . كانت لهم هيبة القادم الجديد ودهشته ، فلما ذهب هكسلي (١) وتندال (٢) وسبنسر (٣) وداروين ذهبت معهم هيبتهم ودهشتنا ، وبقينا مع شخوص هزيلة قميئة ممن بدأوا بداروين ولم يأخذوا عن أحد آخر ، ومن ثم وجدتنى فى سنة ١٩٠٦ أطلق لفضبى العنان واقدف الداروينيين الجدد (٤) بحمم من الهجاء المقذع فى العبارات التالية :

« الحق اننى لا أريد أن أكون سبابا ولا شتما ، ولكننى كلما فكرت فى هؤلاء الاغبياء الصفار المساكين وهم يتشبهون تشبها خطرا بناحية واحدة من نظرية التطور ، ناحية تستطيع الخنفساء السوداء أن تفهمها دون عناء ، ثم يحيطون أنفسهم ببطانة من الشخصيات التى لاتساوى قرشا ونصف من طراز توركيمادا (٥) ، وتجدهم لذة فى الولوغ فى الفضائح التى يبلغ فيها مشرح الحيوانات الحية ، ويستعرضها أمامنا كأنها اكتشافات علمية تصنع التاريخ . انهم يعرضون أمامنا تجارب قاموا

(١) T. Huxley ١٨٢٥ - ١٨٩٥ عالم البيولوجى البريطانى ومن اكبر دعاة الداروينية : جد الدوس وجوليان هكسلي

(٢) Tyndall ١٨٢٠ - ١٨٩٣ الطبيب العالم البريطانى فى الطبيعة والبيولوجيا

(٣) H. Spencer ١٨٢٠ - ١٩٠٣ الفيلسوف البريطانى اهم مؤلفاته « المبادئ الاولى » ٣ اجزاء وكان فى بداية حياته من انصار لامارك ثم أصبح داروينيا متعصبا وهو الذى صاغ عبارات : الصراع من أجل البقاء ، والبقاء للأصلح

(٤) Neo-Darwinians

(٥) Torauemada ١٤٢٠ - ١٤٩٨ أحد قضاة محاكم التفتيش فى اسبانيا . أعدم على يديه ما بين ٢٠٠٠ و ٨٨٠٠ متهم

بها لتثبت أن الكلاب تضعف ثم يصيبها الهزال ثم تموت
إذا لم يقدم لها الطعام ، وأن الألم الشديد يجعل الفيران
تتفصد عرقا ، وإنك إذا بتيت رجل كلب أنجب الكلبجروا
له أربعة أرجل . واني لاتساءل فيما بينى وبين نفسى :
أى شعوزة تسلطت على الاذكاء والانسانين بحيث جعلتهم
تأثروا بهذه الطغمة من الاوغاد والدحالب والنصابين
والكذابين ، وبمن هم اسوأ من هؤلاء جميعا : من المغفلين
السذج ذوى النيات الحسنة ؟ خير لنا ألف مرة أن يعود
موسى وسبرجيون (١) وهو واعظ مشهور في ذلك
الوقت) من جديد . وانت على أى حال لا يمكنك أن
تكون داروينيا جديدا فاهما لمذهبك ، بدون خيال
ولا ميتافزيقا ولا وحدان ولا ضمير ولا شرف - لان
قانون « الانتخاب الطبيعي » ليس له أى مدلول أخلاقى ،
ما دام يتناول تلك الناحية من التطور التى ليس فيها
هدف ولا غاية ولا ذكاء والتى قد يكون من الانسب أن
تسمى : « بالانتخاب العرضى » او الانتخاب بالصدفة او
بما هو أفضل من ذلك : « الانتخاب غير الطبيعى » ، لانه
ليس ثمة شيء أبعد عن الطبيعة وعن ما هو طبيعى من
الصدفة والشيء العرضى . واذا أمكن اثبات أن الكون
قد نشأ عن مثل هذا الانتخاب ، فلن يطبق البقاء فيه
الا البلاء والاوغاد »

الانسانون ومشكلة البشر

ومع ذلك فقد سعد الانسانون بالداروينية كما سعد

(١) C.H. Spurgeon ١٨٢٤ - ١٨٩٢ الواعظ البريطانى
المعدانى الكالفنى من أشهر وعاظ لندن واشتهر بفصاحة اللسان
وقوة الحجة ولكن فى تأييد التعصب والتزمت والرجعية الفكرية .
ويقصد بعودة موسى وسبرجيون عودة الفرقة الارهابية التهديدية التى
سادت « العهد القديم » كما أشار الى ذلك فى المختصر الدينى

بها أى شخص فى أول الامر . بعد أن حيرتهم وبلبلتهم مشكلة الشر وقسوة الطبيعة . كان الأنسائيون قوما من طراز شيللى ولكن غير ملحدين . فقد كانت حجة المؤمنين المبررة لمشكلة الشر وقسوة الطبيعة ، أضعف من حجة الملحدين بدرجة مروعة : فهم لم يستطيعوا انكار ما فى الطبيعة من حقائق قاسية لا يمكن أن تنسب الى الله والى ارادة الله ، فالإيمان بالله مستحيل على أى شخص مفكر ، الا اذا آمن بالشیطان فى نفس الوقت وعلى قدم المساواة . ولا يصدق أحد فكرة الشیطان الذى تصوره اللوحات الفنية بقرنين وذيل كالحرية . ويتقلب فى جحيم مستعر من الحجارة الموقدة . ان الشیطان على هذه الصورة ليس الا عفريتاً خيالياً لا يؤمن أحد حقاً بوجوده ، ولكن الشر المنسوب اليه ، شر حقيقى وواقعى جداً بما يكفى لاقناع أى شخص بوجوده وواقعيته . وهنا يقول الملاحدة ، ان صانع الشر اذا كان موجوداً حقاً ، لابد أن يكون قوياً جداً بحيث يتمكن من التغلب على الله . . هذا والا كان الله مسئولاً مسئولية اخلاقية عن كل شئ يسمع للشیطان بارتكابه . . وأيا كانت حقيقة هاتين النتيجةين ، فهى لا تعفينا من تلك الحقيقة الفظيعة الثابتة : وهى ان ما فى الطبيعة من قسوة ، هو من فعل فاعل شرير ومن تدبير ارادة شريرة ، ولا يمكن أن تنسجم مع البواعث التى تدفعنا نحو العدالة والرحمة ونحو حياة أفضل .

فما ان اكتشفت نظرية « الانتخاب الخاضع للظروف » ، حتى أعفينا تماماً من مواجهة هذه الحقيقة الفظيعة ، لأنها ليست الا وسيلة لاقناعنا بان الفظائع والاهوال — وان كانت تحمل كل مظاهر التدبير المحكم والفعل المتعمد بذكاء — ليست سوى مصادفات وحوادث عرضية ليس

لها أى دلالة أخلاقية على الاخلاق . افرض أن شخصا ما يراقبنا من النجوم ورأى حادثة مروعة تقع فى كوكبنا الارضى تسبب فى وقوعها قطاران مزدحمان بالركاب يسيران بأقصى سرعة ويصطدم أحدهما بالآخر . كيف يمكنك أن تقتنع هذا المراقب المحايد ، بأن كارثة تقع بمثل هذا التدبير المحكم والتعمد الذكى والتخطيط العبقري ، لم تكن مدبرة ومقصودة تماما ؟ ألا يستنتج منها على الفور أن عمال الاشارة أبالسة شياطين ؟

ان نظرية « الانتخاب الخاضع للظروف » هى غالبا نظرية مصادمات : أى أنها نظرية خاصة باثبات براءة الاعمال الشيطانية التى كثيرا ما تبدو فى ظاهرها مدبرة متعمدة ، وعلى هذا النحو أراح داروين بال الانسانيين راحة كبرى فضلا عن أن زودهم بمعرفة أوسع للحقائق : حقا انه قضى لهم على صفة الالوهية وهى القدرة على كل شئ والاحاطة بكل شئ ، ولكنه فى نفس الوقت أبرأ ذمة الله من تهمة قبيحة : تهمة القسوة . ولكن ارتياح الانسانيين كان ارتياحا سطحيا ، فالتأمل الجدى العميق جدير بأن يبين لهم أن هناك ما هو أسوأ من كل ما يمكن أن يتصوروه فى القوى الشيطانية : تلك الطغمة الغاشمة من القوى العمياء الصماء الخرساء التى لا قلب لها ولا شعور ولا ادراك ، تضرب كما تضرب العاصفة الشجرة فتطيح بها ، وتصيب كما تصيب الصاعقة فتفنى وتحرق . وبالرغم من وضوح ذلك ، فهو لم يخطر على بال الانسانيين الطيبين وقتئذ لان الناس عادة لا يفكرون بعمق وجدية وهم فى غمرة أول سعادة يحسون بها ، وخاصة اذا كانت سعادة الهرب والتخلص من موقف كرهه لا يحتمل . ان مثلهم فى هذا ، كمثل

الحاج الذى وصفه باثيان (١) فى رحلته عندما لم يتمكن من رؤية كوة الباب ولا وهدة القنوط ولا القلعة التى يقطنها عملاق اليأس ، ولكنه رأى فقط النور المشرق فى نهاية الدرب ، ومن ثم انطلق نحوه فى سعادة وسرور ، وهكذا انطلق الانسانيون الطيبون فى ايمانهم بالتطور

وكانوا فى ذلك على حق: لان مشكلة الشر تنهزم بسهولة أمام التطور الخلاق . فاذا كانت القوة الدافعة للتطور - قوة قادرة على كل شيء أى ليس ثمة حد نهائى لانجازاتها - واذا كان لابد لهذه القوة من أن تناضل فى هذه الاثناء ضد المادة والظروف من خلال التجربة والخطأ - فلا شك أن الدنيا تكون مليئة بآثار تجاربها الفاشلة . ألم يكن من المحتمل أن يلقى المسيح وهو سائر فى طريقه نمرا مفترسا ، أو أن يتصارع رئيس الكهنة مع حاكم روماني يدا بيد ؟ وفى مثل هذه الظروف الا ينطبق على الاثنين قانون البقاء للأسوأ لا للأصلح ؟ ان موزار قد رزق عبقرية تفوق مواهب الاباطرة وكبار الاساقفة، ولكنه ابتلى برثة عليلة تدبل وتنهار فى مسكن معتم كرية عطن الهواء . فاذا ما قسرنا جميع مصائبنا وكوارثنا بأنها اما مصادفات مجردة واما نتيجة لخطايا ارتكبتها وكفرنا عنها باخلاص ، فلن تكون هناك مشكلة للشر فقط بمعناها الفيكتوري التقليدى . ان الفلسفة الدينية التى تعتنقها النسوة اللواتى تعلن لنا انهن انقلبن ملحيدات كافرات فى اللحظة التى جلسن فيها الى جانب مهود اطفالهن يراقبن « يد الله » وهى تخنقهم خنقا بالدفتريا، تتبعها فلسفة اخرى اكثر تطورا هى فلسفة بلانكو

(١) John Bunyan ١٦٢٨ - ١٦٨٨ الكاتب الانجليزى صاحب

رحلة الحاج Pilgrim's Progress « مترجمة »

بوسنت (١) الذى يقول : « عندما خلق الله الدفتريا ، وتلك أيام خلت فيما أحسب ، كانت الدفتريا هي أفضل شيء يمكنه أن يفكر فيه في ذلك الوقت ، فلما اتضح على يديه أنها خطأ ، جعلك أنت وأنا ، نقاتل ونكافح الدفتريا من أجله »

كيف أن لسة واحلاة من داروين جعلت المسالم ٤٥

أسرة واحدة

وثمة شيء آخر يثير اهتمام الانسانيين بالداروينية : ان داروين قام بمهمة اذاعة فكرة التطور ، وجعلها فكرة شعبية ، كما أنه أضاف اليها نصيبه الخاص فيها . والان تمد النظرية العمامة للتطور ، صاحب النزعة الانسانية بأساس علمي يستند اليه في نزعته ، لان التطور يؤكد ويثبت المساواة الأساسية بين جميع الاحياء ويجعل قتل الحيوان جريمة كجريمة قتل الانسان على السواء . قد يكون من الضروري أحيانا قتل الناس كما قد يكون من الضروري دائما قتل النمرور المفترسة ، ولكن الفارق النظرى القديم بين عمليتى القتل ، قد أزاله التطور ومجاه . وعندما كنت طفلا صغيرا وقيل لى ان كلبتنا وببغاءنا - وكنت على علاقة حميمة بهما - ليسا مخلوقين مثلى ، وانما هما حيوانان أعجمان وأنا انسان عاقل ، لم أصدق ما قيل لى ، ولم أكتف بذلك ، بل كونت لنفسى رأيا واعيا فى المسألة من أن التفرقة بيننا تفرقة زائفة ، فلما فضت لى مغاليق نظريات داروين لأول مرة ، قلت

(١) بطل مسرحية The Shewing-up of Blance Posnet لبرناردشو سنة ١٩١١ وهو يؤمن بما يؤمن به شو، ان الله هو القوة الحيوية أو قوة التطور الخلاق

والجئت في القول اننى اكتشفتها كلها بنفسى قبل أن
أبلغ العاشرة من عمري وانى الآن واثق تماما من أن
غرورى الصبيانى كان له ما ييسره . وسبب ذلك
أن الاحساس بالقربى بين جميع أشكال الحياة ، هو كل
ما يلزم لجعل نظرية داروين نظرية مقبولة بل لجعلها
نظرية ملهمة أيضا . كان لدى القديس أنطونيوس (١)
استعداد ناضج لقبول نظرية التطور وهو يعظ الاسماك
في البحر ، وكذلك القديس فرانسيس وهو يطلق على
الطير اسم اصدقائه الصغار . اننا مصابون بالغرور لاننا
نعتبر فكرة الريوية لونا من ألوان التمايز الطبقي العلوى
كفكرة الملكية الارضية ، ولم نعتبرها الصخرة التى
نشيد فوقها صرح المساواة . وقد أدى بنا هذا الغرور
الى التشبث بالفكرة التى تقول ان الله منحنا امتيازات
خاصة عندما جعلنا فى معزل عن بقية مخلوقاته ، ورفعنا
فوقهم درجة . فجاء التطور وانتزع منا الغرور . والان
قد نقتل برغوثا دون أقل شعور بالندم ، ومع ذلك نعلم
على أية حال . . . اننا قتلنا أحد أبناء عمومتنا . ولا شك أن
مما يصدم شعور البرغوث وهو سيد المخلوقات النطاطة
أن يرى المخلوق الآخر الذى خلقه له البرغوث الاكبر
خصيصا ، وعلى عجل ، ليكون مصدرا لطعام البراغيث ،
يراه يسحقه بوحشية ويقضى عليه بظفر ابهامه الحاد
الهائل . ولكن ليس ثمة برغوث يتوفر لديه من الحماية
ما يجعله يقف بين البراغيث ليعظهم ويقول ان الانسان
عندما يفتك بالبراغيث انما يطبق أسلوب الانتخاب

(١) St. Antony ٢٥٠ - ٣٥٠ م . أول راهب مسيحي
يولد في مصر الوسطى . وقد اعتكف في دير مبمون بالقرب من الفيوم ،
ثم تهرب في صحراء سيناء حيث يقوم الى الآن دير مار انطونيوس وبعد
أبا الرهبان المسيحيين . كان يكلم الحيوانات ويتوهم الاوهام

الطبيعى الذى سيتولد منه فى النهاية برغوث أسرع حركة وأعلى قفزة بحيث لا يستطيع أى إنسان أن يمسك به ، وأقوى بنية وأصلب عودا بحيث لا يؤثر فيه أى مسحوق مبيد للحشرات أكثر مما يؤثر الاستركتينين فى الفيل . .

لماذا أَرْضى داروين الاشتراكيين ؟

لم يقف الانسانيون وحدهم بين المرحبين المتحمسين لداروين : فقد كان من حسن حظه أنه أَرْضى كل شخص فى نفسه غرض يخفيه . تحمس لداروين العسكريون دعاة الحرب كما تحمس له الانسانيون دعاة الرحمة والسلام ، وتحمس له الاشتراكيون كما تحمس له الرأسماليون . ومما حمس الاشتراكيين بصفة خاصة ، اصرار داروين على ابراز اهمية الوسط والبيئة . ربما كانت أقوى حجة أخلاقية تستند إليها الرأسمالية هو ايمانها بقوة تأثير الاستقامة الفردية والخلق الفردى القويم . فجاء روبرت أوين (١) ليبدل جهودا يائسة ليقنع انجلترا بأن من فيها من المجرمين والمنحرفين والسكيرين ، وغوغاء جاهلين أغبياء ، هم ضحايا الظروف والبيئة واننا لو اقمنا عالما أخلاقيا جديدا كالذى يحلم به لوجدنا أن الجماهير التى تولد فيه ستنشأ متعلمة تنتشر بينها الاخلاق الفاضلة لان المجتمع المتعلم تسود فيه الاخلاق الفاضلة . ويمكن العثور على الرد على ذلك فى كتاب حياة جوته للويس (٢) . كان لويس يحتقر

(١) Robert Owen ١٧٧١ - ١٨٥٨ الاشتراكى

الانجليزى المثالى . صاحبه كتاب العالم الاخلاقى الجديد

(٢) G.H. Lewes ١٨١٧ - ١٨٧٧ ناقد وكاتب وصحفى

انجليزى وهو زوج الكاتبة جورج البيوت واعظم مؤلفاته

Biographie of Boethe : ترجمة حياة جوته

فكرة تحكم الظروف في الشخصية الانسانية ، وأشار الى تباهن الشخصيات في الطبقة الحاكمة الفنية ليثبت دعواه . فليس ثمة تشابه في الظروف يمكن أن يكون أكثر جمودا من الظروف التي ينشأ فيها أبناء النبلاء الاقطاعيين الانجليز المولودين في القصور الريفية الانجليزية : فهم يرسلون اولادهم الى ايتون أو هارو ومنها الى أوكسفورد أو كامبردج حيث تتشكل عقولهم وعاداتهم في قوالب ثابتة جامدة . ومن شأن هذا الروتين الجامد أن يقضي على الفردية اذا كان لأي روتين أن يقضي عليها . ومع ذلك فالأفراد لا يخرجون منه مختلفين اختلاف بت (١) عن فوكس (٢) ولورد راسل (٣) عن لورد كيرزون (٤) ومستر ونستون تشرشل عن لورد روبرت سيسيل (٥) . كما أن رأي لامارك في التطور قد عزز به أهمية العامل الوراثي في شخصية الفرد باعتباره العامل الحاسم الذي يقرر مصيره ومستقبله : فلو أمكن للزرافة أن تطيل عنقها اذا ما أرادت أن تطيله وحاولت ذلك

(١) W. Pitt ١٧٥٩ - ١٨٠٦ كان رئيسا لوزارة بريطانيا وعمره ٢٥ سنة وكان من كبار الاستعماريين ومن خصوم الثورتين الأمريكية والفرنسية . ومن أنصار حرية التجارة

(٢) C.J. Fox ١٧٤٩ - ١٨٠٦ من مشاهير الساسة البريطانيين ومن خصوم وليم بت وكان من كبار مؤيدي الثورة الفرنسية وواضع أسس الليبرالية البريطانية

(٣) J. Russel ١٧٩٢ - ١٨٧٨ من زعماء حركة الإصلاح السياسي في بريطانيا . له الفضل في صدور قانون الإصلاح سنة ١٨٣٠

(٤) G.N. Curzon ١٨٥٩ - ١٩٢٥ أحد كبار الاستعماريين البريطانيين ونائب الملك في الهند ووزير في وزارة الحرب برياسة لويد جورج سنة ١٩١٦ . شعار أسرته :

Let Curzon hold, what Curzon had

(٥) R. Cecil ١٨٦٤ - السياسي البريطاني المحافظ وداعية التعاون الدولي . وضع مع وودرو ويلسون والجنرال سمطس مشروع عصبة الأمم ، نال جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٢٧

فالرجل يمكنه ان ينمى شخصيته بالطريقة نفسها . ان
المثل القديم الذى يقول « حيثما وجدت الارادة وجدت
الوسيلة » يبلور نظرية لامارك فى التكيف الوظيفى
ويخلصها فى عبارة واحدة . ويشعر ذوو العقول القوية
بشدة ان هذه النظرية تعد قاعدة اخلاقية ، اما ذوو
العقول الضعيفة فيشعرون نحوها بشيء من الورع
الدينى المطمئن . وهكذا ليس ثمة رد يرد به على
الاشتراكيين اقوى من ان يقال لهم اذهبوا واصلحوا
انفسكم قبل ان تدعوا اصلاح المجتمع . فاذا كنت غنيا
فلن يتضاعف سرورك بغناك ، اكثر من ان تشعر فيما
بينك وبين نفسك ان ثروتك قد جاءتك بفضل مالك من
شخصية متفوقة ! ولقد حولت الثورة الصناعية كثيرا
من البلاد الجشعين الى اثرياء فاحشى الثراء ، لم يكن
هناك ما هو اشد اذلالا لهم واقلقا لراحتهم من ان تقول
لهم ان هطول الذهب فى جيوبهم صدفة محضة ، كهطول
الثلج على مظلاتهم ، وانه سقط على الظالمين والعاذلين
على السواء . وليس هناك ما هو اشد اطراء لهم وتعريزا
لجانبيهم من ان تقول انهم اثرياء لانهم فاضلون

اما الان ، فقد اكتسحت الداروينية هذه الاوهام
المتعلقة بالاستقامة الفردية وطهرت الدنيا منها . بل
فعلت ما هو اكثر من مساندة حجة روبرت اوين عندما
اكتشفت ان للبيئة التى يعيش فيها الكائن الحي تأثيرا
فعالا وقويا ، وكان ذلك اكبر مما ادعاه روبرت اوين فى
يوم من الايام . ونهضت لتؤكد ان المشردين الافاقين
يتولدون من البؤر السكنية القذرة لا بسبب الخطيئة
الاولى : وان البغايا والعاشرات يتولدن من أجسور
الكفاف والجوع لا من عهر او بغاء كامن فى الانثى ! لقد اقلت
الداروينية بحجة العلم القوية فى جانب الاشتراكيين

الذين قالوا ان الشخص الذى يريد اصلاح نفسه عليه أن يصلح المجتمع أولا ، ثم أكدت الداروينية أننا اذا كنا نريد فى مجتمعنا مواطنين أصحاء موسرين لابد لنا من مدن وقرى صحية موسرة ، وأن هذه لن توجد الا فى اوطان صحية موسرة . ويمكننا أن نخرج من هذا بالحكم على ذلك الطراز من الشخصيات التى لا تبالى بصالح جيرانها ما دامت شهواتها مشبعة ورغباتها مترعة ، بأنه طراز من الشر مخرب ومدمر وهدام ، وأما ذلك الطراز من الشخصيات التى تهتم اهتماما عميقا بالبيئة التى يعيشون فيها ، فهو الطراز الوحيد من الناس الذين يمكن احتمالهم والابقاء عليهم فى مجتمع دائم الازدهار والرخاء. ثم بينت الداروينية أن التغيرات المدهشة التى أحدثتها روبرت أوين فى اطفال المصانع عندما غير ظروفهم ، هى ظواهر لا تشير دهشتنا فى هذه الايام ولا تعد شيئا الى جانب التغيرات التى يحدثها الوسط والبيئة لا فى عادات وسلوك الافراد فقط بل فى الانواع نفسها وليس فى الانواع فقط بل فى التباثل أيضا . ومن الواضح أن هذه التغيرات تفعل فعلها فى الافراد الذين لا شخصية لهم ولا يتمتعون بشيء من الإدراك والوعى الفكرى . لا عجب بعد هذا ان يستقبل الاشتراكيون داروين بأذرع مفتوحة

داروين وكارل ماركس

ثم ان للاشتراكيين نبهم الخاص المؤمن بالتنطور ، وقد فضح هذا النبي مدرسة منشستر (١) وقضى القضاء المبرم على ما كان لها من اعتبار ، كما فضح داروين أسطورة جنة عدن وقضى على ما كان لها من اعتبار .

(١) مدرسة الاقتصاديين الانجليز فى أربعينيات القرن الماضى اصحاب ملهبة حرية التجارة

أعلن ماركس في بيانهِ الشيوعى الصادر فى سنة ١٨٤٨ (والذى يتمتع الآن فى روسيا بقداسة الكتاب المنزل) أن الحضارة كائن عضوى يتولد عن طريق « الانتخاب الخاضع للمظروف » ، ونشر المجلد الاول من كتابه رأس المال فى سنة ١٨٦٧ عندما كانت هناك ثورة قائمة ضد عبادة الاصنام الموروثة ، وصاحبها ثورة أخرى على التقاليد التى كانت محترمة فى ذلك الوقت تقاليد البارونات الاقطاعيين القراصنة وكذلك على نفاق البورجوازيين وجشعهم ونفختهم الكذابة وتجردهم من الانسانية بعد أن أفسدهم تماما ايمانهم بمعنى شيطانى للنجاح وهو انه جمع وتكديس للارباح . فمأن بين ماركس أن علاقة البورجوازيين بالمجتمع هى علاقة لأخلاقية هدامة ، وأن صديريات قصانهم المنشاة البيضاء ، تخفى وراءها أبشع المظالم وأحط السرقات حتى أصبح النبى الملهم فى عين كل انسان شريف بلفته رسالته أو وصل اليه كتابه . لقد قال وأثبت كل ما أراد الشرفاء أن يقولوه وأن يثبتوه ، ورفضوا أن يستمعوا الى أى قول يقال ضده . أما الآن فلم يعد ماركس معصوما بأى حال : واذا ما تتبع المرء آراءه الاقتصادية بدقة ، وجد أن نصفها مستعار من غيره ونصفها الآخر حصل عليه من « منازلهم » أى باجتهاده كما يفعل أى كاتب هاو ، وأنها ليست بالآراء ولا بالأبحاث الاقتصادية الملائمة حتى للاشتراكية . أما نظريته عن الحضارة فقد عرضت من قبل فى كتاب « باركل وتاريخ الحضارة » (١) وهو كتاب له فى عقول قرائه ما لكتاب رأس المال من مكانة

(١) H. Burkle ١٨٢١ - ١٨٦٢ المؤرخ الانجليزى صاحب كتاب تاريخ الحضارة فى انجلترا فى جزئين . وهو صاحب نظرية المناخ وتأثيره فى الحضارة

تاريخية . وفي الجزء الاول من رأس المال - وهو الجزء المقروء من الكتاب على نطاق واسع - لا تجد شيئاً عن الاشتراكية فكل ما فيه من ملاحظات عن العمال والرأسماليين يدل على أن ماركس لم يستنشق قط هواء المصانع ، وأنه بحث عن الأسانيد والحجج ليرسأله في داخل الكتب الزرقاء في مكتبة المتحف البريطاني . وإذا قورن بداروين بدا شخصاً ليست لديه أى قدرة على الملاحظة ، فليس في رأس المال حقيقة واحدة لم تؤخذ ولم تنقل من كتاب ، وليس فيه قضية لم يبدأ غيره اثارتها أو بحثها . ولكن ماركس على أية حال فضح البورجوازية وقضى على هيبتها وعلى سمعتها الاخلاقية قضاه مبرماً . وكان في ذلك الكفاية وفوق الكفاية : فقد أمسك - كداروين - بالدنيا من خطامها فضلاً عن أنه أحرز ما لم يحرزه داروين وهو اتصافه بحقد لا يعرف الرحمة وبموهبة اليهود الادبية وبطاقات رهيبة من المقت والهجاء والسخرية اللاذعة ، أى بجميع الصفات المريرة التى تنشأ في وقت مبكر في أى شاب عبقرى نال حظاً من التدليل في صغره (كان ماركس الطفل المدلل في أسرة ميسورة الحال) وعانى الكثير من الكبت والاضطهاد في نظام اجتماعى لا ينسجم معه أى انسجام ، ثم عانى النفى والتشريد والفقر المدقع فيما بعد . وهكذا عثر ماركس وداروين فيما بينهما على صنمين تربطهما علاقة وثيقة ، وأصبح كل منهما بذلك ، نبياً لدين جديد

لماذا ارضى داروين الاستغلايين أيضاً ؟

ولكن كيف بداروين وقد نجح الى هذا الحد مع الاشتراكيين ينجح مع الرأسماليين أيضاً ؟ فليس من

السهل الاستفادة من كلا العالمين اذا كان أحدهما يدعو الى حرب الطبقات بينما يزاولها الآخر بعنف وضراوة ؟ وتفسير ذلك أن الداروينية ارتبطت مع الرأسمالية بعلاقة وثيقة لدرجة أن ماركس اعتبرها نتاجا اقتصاديا أكثر منها نظرية بيولوجية . واقتبس داروين فكرته الرئيسية الخاصة بضغط السكان على موارد المعيشة المتوفرة ، من بحث كتبه مالتوس (١) عن تعداد السكان كما جاء بفكرته الأخرى القائلة بضرورة انقضاء زمن لا نهاية له تقريبا لكي يحدث فيه هذا الضغط تأثيره ، جاء بها من الجيولوجي «لييل» الذي استطاع أن يقضى تماما على الرأي الذي دعا به كبير الاساقفة «أشر» عندما قدر عمر الأرض من نصوص الانجيل بأنه ٤٠٠٤ سنة قبل الميلاد تضاف إليها سنوات ما بعد الميلاد . أما بحوث الاقتصاديين من انتاج ريكاردو الخاصة بقانون تناقص الغلة والذي لم يكن سوى ترجمة مدرسة منشستر لنظرية الزرافة والأشجار ، فقد كانت موضوع مناقشات عنيفة جدا عندما كان داروين شابا في مستقبل العمر . والحق ان اكتشاف الآثار الاقتصادية لقانون «الانتخاب التجارى» فى الأراضى ومواقع البناء على يد الفسيوقراطيين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، وكذلك اكتشاف قانون التنافس على خبز الكفاف على يد مالتوس الذى أرجعه الى ضغط السكان على وسائل البقاء المتوفرة ، هذه المكتشفات قد نقلت العلم السياسى

(١) T.R. Malthus ١٧٦٦-١٨٢٤ الاقتصادى البريطانى . صاحب « مبدأ تعداد السكان كما يؤثر فى مستقبل تحسين الجنس البشرى » وفيه يقول أن السكان يزيدون بأكثر من زيادة الموارد الغذائية المتوفرة . وأن الحرب والفقر والمجاعات والرذيلة كفيلة بانقاص تعداد السكان . ومن ثم فالاجور لابد أن تهبط الى حد الكفاف لتحسد من زيادة السكان ..

الى ذلك الجو، المختنق الكاتم للأنفاس ، جو القدرية
الكثيب ، والقدرية هي الآفة المميزة للداروينية . وقبل
أن ينشر داروين سطرًا واحدًا من مؤلفاته بوقت طويل ،
كان الاقتصاديون من أتباع ريكاردو ومالتوس ينادون
بشعار صندوق الأجور الجبرى ويؤكدون للعمال أن
الحركة النقابية تحدد لا جدوى منه لقوانين الاقتصاد
السياسى الجبرية المحتومة التى لا مناص منها ، وهذا
يشبه تمامًا ما يؤكد الداروينيون فى وقتنا هذا من أن
تشريع منع الخمر هو تحد لا جدوى منه لقانون الانتخاب
الطبيعى ، وأن الطريقة الحقيقية لعلاج الإدمان على
الخمر هي اغراق البلاد فى الخمر الرخيصة « الجن »
وترك الأصلح ليقبى . وبعد فان الكوبلندية (١) ليست
سوى التخلي عن التجارة للانتخاب الخاضع للظروف
من الصعب أن نبالغ فى أهمية الدعاية السياسية
والدينية الواسعة النطاق ، التى مهدت الطريق تمهيدا
منظما للداروينية وأحاطتها بالجو الاخلاقى الخاص بها .
فلم يحدث قط فى التاريخ - على حسب علمنا - أن
بذلت مثل هذه الجهود الحساسة المدعومة بالاموال
السخية والمنظمة سياسيا بدقة ، لاقتناع الجنس البشرى
بأن كل تقدم وازدهار وخلاص سواء للأفراد أم للجماعات،
انما يعتمد على الصراع الذى لا ضابط له من أجل الطعام
والمال ، ويعتمد على إبادة القوى للضعيف ، ويعتمد على
مبدأ التجارة الحرة والعقد الحر والمنافسة الحرة
والحرية الطبيعية وشعار .. دعه يعمل .. وبالاختصار
يعتمد على مبدأ تحطيم الخصم وسحقه وافلاسه بكل

(١) نسبة الى كوبدن المتعصب للمذهب حرية التجارة

وسيلة فاجرة فى حيز الامكان ، وعلى أن كل تدخل من جانب الحكومة الموجهة وكل تنظيم يتجاوز تنظيم البوليس ليتولى حماية عمليات النصب والاحتيال المشروعة من عدوان المعتدين ، وكل محاولة لوضع هدف انسانى وخطة انسانية وجو انسانى فى المجال الصناعى ، يعتبر عملا موجهها ضد قوانين الاقتصاد السياسى الجبرية التى لا يمكن تغييرها . بل ان البروليتاريا نفسها كانت متعاطفة مع هذا الاتجاه ، مع أن الحرية الرأسمالية كانت تعنى بالنسبة لهم عبودية الاجر الخالية من أى ضمانات مشروعة كان العبيد يتمتعون بها فى سوق النخاسة . كان الناس قد ملوا الحكومات والملوك والكهنة المتسلطين باسم العناية الالهية ، وأرادوا أن يعرفوا بأنفسهم كيف تدبر الطبيعة الامور اذا ما تركت وشأتها . وقد عرفوا ذلك بعد أن دفعوا الثمن غاليا فى تلك الايام التى كانت لانكشاير تستهلك فيها تسعة أجيال من العمال عبيد الاجر فى جيل واحد من ساداتهم الرأسماليين . غير أن ساداتهم ازدادوا ثراء فوق ثراء ، ومن ثم كانوا راضين عن الاوضاع كل الرضا ، وأثبت باستتيات (١) بالحجج المقنعة أن الطبيعة رتبت « الهارمونيات الاقتصادية » التى ستتولى حل المشكلات الاجتماعية بأفضل مما يستطيعه الشيوقراطيون والارستقراطيون والغوغائيون ، فان الحكمة الالهية *deux ex machina* هى البلوتوقراطية المطلقة « حكم الاغنياء المطلق » التى لا ضابط لها

(١) F. Bastiat ١٨٠١ - ١٩٥٠ الاقتصادى الفرنسى
مؤلف كتاب *Harmonies of Political Economy* يؤيد فيه
بشدة حرية التجارة *Laissez-faire* والفردية الاقتصادية

شودأروين النطور في المسرح

على خشبة المسرح (وهنا أصل في نهاية المطاف الى الدور الذي أعبه أنا شخصيا في المسألة) عملت الكوميديا كفن هدام ساخر وناقد وسلبى ، على إبقاء المسرح مفتوح الابواب بعد أن ماتت التراجيديا الرفيعة . فمنذ مولير الى أوسكار وايلد مر بنا طابور من الكتاب المسرحيين الكوميديين الذين وان لم يكن لديهم شيء ايجابي يقولونه لنا بصفة أساسية فقد كانوا على الاقل في حالة تمرد وثورة على الزيف والخداع ، ولم يكونوا كما زعموا يعملون على تطهير أخلاقنا بالسخرية فقط ، بل كانوا كما قال جونسون يعملون على تطهير عقولنا من الحذقة ، فنراهم لدى وقوع أى خطأ ، يبدون أمارات القلق وعدم الارتياح وهذا اوثق دليل على الحيوية الذهنية . وفي تلك الاثناء انتحلت اسم التراجيديا وادعته لنفسها مسرحيات يقتل فيها كل شخص في الفصل الاخير تماما كما انتحلت اسم الكوميديا المسرحيات التى يتزوج فيها كل شخص في الفصل الاخير رغم أنف مولير . جوهر القول أن من غير

الممكن وضع تراجيديات أو كوميديات باتباع وصفة مكتوبة
تعين اللحظات الأخيرة في الفصل الأخير . فلم يؤلف شكسبير
هاملت من مجزرتها الختامية ، ولا الليلة الثانية عشرة من
زواجها الختامى . ولم يسع شكسبير أن يصور تصويراً
واعياً تعاليم وأفكار دين من الأديان أو فلسفة من الفلسفات
لأنه لم يكن له دين واع ولا فلسفة واعية . وعلى ذلك كان
لابد له من ممارسة مواهبه وملكاته الفطرية غير العادية -
في ذلك الفن المسلى الممتع : فن التقليد والمحاكاة ويمنحنا
ظاهرة « رسم أبعاد الشخصية » (١) وهى الظاهرة التى
جعلت تمثيلياته بهيجة وممتعة كروايات سكوت وديماس
وديكنز . كما أنه عمل على تطوير ذلك الفن العجيب المثير
للدهشة ، فن تشييد ملجأ لنا من اليأس بوضع قناع من
الدعابات على قساوات الطبيعة . ومع ذلك ، ومع كل
ماله من مواهب ، فلا زالت حقيقة أمر شكسبير قائمة
ثابتة وهى أنه لم يجد الإلهام قط ، ليكتب مسرحية
واحدة ذات أصالة . لقد أعاد كتابة تمثيليات قديمة
واقتبس للمسرح قصصاً شعبية وفصولاً من التاريخ من
كتاب هولنشىد (٢) : كرونىكلز ومن تراجم بلوتارك . وقد
فعل هذا (أو لم يفعله لان الفن كالمعادلة الجبرية فيه
كميات سالبة) بجرأة تثبت أن حرفته أوسع بكثير من
ذمته وضميره . حقا أنه لم ينقل أبدا شخصياته من
القصة المستعارة نقلاً حرفياً ، وسبب ذلك أنه كان يلقي فى
إعادة خلقها من جديد مشقة أقل ومتعة أكبر مما لو نقلها
نقل مسطرة ، ومع ذلك نراه يقتبس من القصة المستعارة

(١) Delineation of character

(٢) R. Holinshed مات سنة ١٥٨٠ مؤلف

Chronicles of England Scotland and Ireland وقد أخذ عنها

كتاب المسرح الإليزابيثى قصصهم ومنها أخذ شكسبير قصص : ماكبت

- لير - ومعظم سيمبلين

كل ما فيها من جرائم وشرور ليكدسها بلا تحفظ أو تحرز فوق شخصياته المرهفة ومخلوقاته اللطيفة مهما كان ذلك منفرا وكريها وخاليا من كل انسجام . وكانت حاجته الحيوية الملحة لفلسفة مايؤمن بها ، تدفعه وتستحثه طوال الوقت للبحث عن فلسفة خاصة به بطريقة المحترفين العجيبة : طريقة ادخال الفلاسفة والحكماء كشخصيات في مسرحياته ، وأحيانا يجعل من أبطاله أنفسهم فلاسفة وحكماء : ولكنهم عندما يمشون على خشبة المسرح ، اذا بهم صفر اليدين بلا فلسفة يعرضونها وليسوا أكثر من شخوص متشائمة هجاءة سليطة اللسان . أما خطبهم الفلسفية المزعومة التي يقفون أحيانا ليلقوها على مسامع المتفرجين مثل خطبة : عصور الانسان السبعة (١) ومثل مناجاة الانتحار (٢) ، فتبين مدى عمق الظلمات التي كان شكسبير يتخبط فيها بالنسبة للفلسفة ومعناها ومفهومه عنها . لقد فرض شكسبير نفسه بالقوة ليعد من بين أعظم كتاب المسرحية بدون أن يتخطى قدمه ولو مرة واحدة - حدود الارض التي تتجلى فيها عظمة ميكل أنجلو وبيتهوفن وجوته وشعراء المسرح الاثيني انقديم . ولقد كان جديرا بالألا يحظى بأى نصيب من العظمة على الاطلاق مالم يتوفر لديه قدر من العقيدة الدينية يجعله يدرك أن واقعه اللاديني واقع يأس وقنوط . . ومسرحية الملك لير التي تشمخ على سواها ، يمكن أن تكون ميلودراما عادية لا أكثر مالم تعترف بشكل قاطع أنه اذا لم يكن هناك ما يقال عن الكون أكثر مما قاله عنه هاملت لكنا « عند

(١) في مسرحية « كما تهواه » الفصل الثاني المنظر السابع ، والتي يصف فيها الدنيا بأنها مسرح والناس بأنهم ممثلون
(٢) في مسرحية « هاملت » الفصل الثالث المنظر الاول . والتي يبدأها بأن تكون أو لا تكون ، تلك هي المشكلة . ويقول فيها ان الضمير يجعلنا جبناء

الالهة كالذباب عند الصبية العابثين : يقتلوننا فى
ألعابهم « (١)

وظل كتاب المسرح من عهد شكسبير ، يناضلون
مناضلة ضد نفس الظاهرة ، ظاهرة الافتقار الى دين
يدينون به أو فلسفة يؤمنون بها ، فاضطر الكثيرون منهم
أن يكونوا مجرد قوادين وتجار ملذات وشهرة ، ومهما
ارتفعت مطامحهم عن ذلك المستوى ، فلم يجدوا موضوعات
يعالجونها أفضل مما كانوا منغمسين فيه فعلا . لقد
أصيبوا جميعاً ابتداء من كونجراف (٢) الى شريدان (٣)
بالعقم الشديد على الرغم من لباقتهم فى استخدام الالفاظ
بحيث أنهم مجتمعين لم يستطيعوا أن ينجزوا ما يضارع
انتاج مولير وحده . كانوا كلهم يخجلون من حرفتهم
(ولم يكن ذلك بغير مبرر قوى) ويفضلون أن يعتبرهم
الناس مجرد فتيان عصريين يمارسون هواية ماجنة
فاجرة . كان جولد سميث (٤) صاحب النفس القوية
الوحيدة التى نجت من هذه البؤرة الفاسدة التى اختلط
حابلها بنابلها

ثم عمد أئمة الكتاب المعاصرون الى (والذين أصبحوا
الان مخضرمين) الى المشاكل الاجتماعية الصعبة
فخطفوها خطفا ، وجعلوها هدفا يهديهم . أبعد من هدف
كسب المال والشهرة . وقد أعرب لى أحدهم عن احساسه
بالغيرة من كتاب المسرح الاغريقيين ، لان الاثينيين لم

(١) فى مسرحية « الملك لير » الفصل الرابع المنظر الاول

(٢) W. Congrave ١٦٧١ - ١٧٢٩ المؤلف المسرحى

الكوميدي المشهور بحسن الصنعة أهم مسرحياته Love for love

(٣) R. Sheridan ١٧٥١ - ١٨١٦ أهم مسرحياته

The Rivals - School for Scandals

(٤) O. Goldsmith ١٧٣٠ - ١٧٧٤ صاحب مسرحية

She Stoops to Conquer

يكونوا يطلبون منهم « أقنعة جديدة » لنصف
دسته من الافكار ، هي كل ما يدور حولها
المسرح الحديث ، بل كانوا يطلبون منهم تقسيم
أعظم الدروس وأبلغ العبر التي يمكنهم استخلاصها
من الاساطير الشعبية المألوفة والمقدسة في بلادهم . قال :
« لماذا لا نكتب جميعنا مسرحيات مثل الكترا وانتيجون
وأجا ممنون (١) ، ونبين ما في استطاعتنا أن نفعله بها ؟ »
ولكنه لم يكتب واحدة منها لان هذه الاساطير القديمة لم
تعد لها الصفة الدينية المقدسة : لقد ماتت أفروديت
وآرتيميس وبوسيدون (٢) ، وأصبحن أشد موتا من
تماثيلهن . ثمة كاتب آخر يحتل مركزا قياديا ، يجد
في متناول يده - بل عند أطراف أنامله - كل حيلة
معروفة من الحيل « الفارس » البريطانية والدراما
الباريسية ، ولكنه لم يستطع في نهاية الامر أن يكتب
حرفا بدون أن يلقي موعظة دينية ، ومع ذلك لم يعثر
لمواظفه على نصوص اعلم مما في البيوريتانية المزيفة
من آيات النفاق أو مما في المضاربات على الزواج التي تجعل
ممثلاتنا الشابات حريصات على سمعتهن حرصهن على
نضارة بشرتهن . وهناك كاتب ثالث أرق قلبا من أن يكسر
خاطرنا بعرض الحقيقة عن أية تجربة مريرة ، فجعل
يداعب عواطفنا بالشوق واللهو والمتعة مخترعا ذلك كله
من أرض السحاب الخرافية التي تقع بينه وبين السماء
الفارغة . أما عملاقا المسرح في عصرنا هذا، وهما إبسن (٣)

-
- (١) الكترا ابنة اجا ممنون وانتيجون ابنة أوديب من أمه ، وكلهم
من أعظم الشخصيات التراجيدية في الاساطير اليونانية
(٢) الهة الجمال والعفة والبحر على التوالي
(٣) H. Ibsen ١٨٢٨ - ١٩٠٦ أشهر كتاب المسرح
النرويجيين وزعيم المدرسة الواقعية في المسرح العالمي ترجمت معظم
مسرحياته الى العربية

أوسترنديبرج (١) فلا يجدان في عالمنا من الراحة والعزاء والسلوى أكثر مما نجده نحن - بل الحق يقال ان مايجدانه من ذلك أقل بكثير جدا مما نجده - لانهما أنكرا علينا ذلك العزاء الشكسبرى - الديكنزى الذى يمنحه لنا الضحك من الشر والسخرية بالقسوة ، وهو عزاء يمكن أن يسمى بدقة : العزاء المضحك ، أو العزاء الكوميدي . ثم يأتى بعدنا خلفاؤنا المتحررون فاذا بهم يحتقروننا احتقارا وهم محقون فى ذلك تماما . ولكنهم لن يستطيعوا ان يفعلوا شيئا أفضل مما فعلناه مادامت الدراما باقية حيث هى ، فى مرحلة ما قبل التطور . وليتأملوا جوته - ذلك الاستثناء الفذ من القاعدة : لم يكن جوته بأثرى ولا اخصب من شكسبير أو إبسن أو سترندبرج فى الموهبة الدرامية ، ومع ذلك كان يقف عاليا وفى أعلى عليين بينما يعرض خلفاؤنا المتحررون على نواجذهم فى الوحل ، فى سخط عقيم ، أو على أحسن الاحوال يجدون لدى صغراوية فى السخرية بمعنتهم . ان جوته يقف بين آلهة الاوليمب : أما العمالقة الآخرون فهم أبالسة جهنميون فى كل شيء الا فى تحريرهم الصدق دائما ، وفى استنكارهم للكفر السائد فى عصرهم ، ومعنى ذلك أنهم ممرورون يأسون . والمسألة ليست مسألة تواريخ فقط . فلقد كان جوته مؤمنا بالتطور فى سنة ١٨٣٠ ، ولا زال كثير من كتاب المسرح فى سنة ١٩٢٠ ، من صغار السن منهم ، لم تمسهم بعد يد التطور الخلاق . ولقد « تدرون » إبسن لدرجة أنه استغل قوانين الوراثة على المسرح بنفس الوفرة التى كان كتاب

(١) A. Strindberg ١٨٤٩ - ١٩١٢ أشهر كتاب المسرح السويديين أهم أعماله الاب . من جولى « مترجمتان » والطريق الى دمشق . ورقصة الموت

المسرح الاثينيون القدماء يستغلون بها ربات اليومينيدس (١) وان لم يكن في مسرحياته أى اثر يدل على معرفة أو ايمان بالتطور الخلاق كحقيقة علمية عصرية . حقا ان طموحه الشعري واضح وضوحا كافيا ، في مسرحية «الامبراطور والجاليلى» ، غير ان احدى مميزات ايسن الفائقة ان العلم كان هو الشيء الصحيح الوحيد في نظره : ثم انه ترك وراءه تلك النبوءة الخاصة بالمستقبل ، والتي كان عرافه الرومانى يسميها «الامبراطورية الثالثة» - كحلم طوبوى مثالى عندما استقر به الحال وبدأ يعالج الحقائق الواقعية معالجة جادة في مسرحياته التالية التى تعالج الحياة العصرية والتي غزا بها أوروبا وقهرها ، وحطم بها النوافذ المتربة فى كل مسرح متعفن نخره السوس فى جميع أرجاء أوروبا من موسكو الى منشستر

الدور الذى لعبته فى المشكلة

فى أثناء عملى ككاتب مسرحى ، تبينت أن هذه الاوضاع لايمكن أن تطاق أو يصبر عليها . كان المسرح العصرى (التمشى مع الموضة) يقدم وصفة جادة واحدة كعلاج لهذه الاوضاع : أن يتناول موضوع الخيانة الزوجية . مع أنه أشد الموضوعات املاا عند الكاتب الجاد ، مهما كان رأى الجمهور فيه ، الجمهور الذى يطالع أخبار النشاط الذى يقوم به رجال المباحث ويضرب صفحا عن المقالات والافتتاحيات . وهكذا جريت أن أعالج موضوعات ملكية أراضى القسس السكنية ، ومذهب حسرية الحسرب (الابسنية الكاذبة) ، والبغاء والبروح العسكرية والزواج والتاريخ ومشاكل السياسة اليومية والمسيحية «الطبيعية»

(١) Eumenides أو الفيوريز ، إلهة الغضب والانتقام والحسد فى الاساطير اليونانية

والشخصية القومية والشخصية الفردية ومتناقضات المجتمع التقليدي ، واصطياد الأزواج ومشاكل الضمير ، والمهن ومايكتنفها من أوهام وغش واحتيال ... وكانت كل هذه الموضوعات مصوغة في سلسلة من مسرحيات السلوك الكوميدي على الطريقة الكلاسيكية التي لم تعد في وقتها شائعة ولا مألوفة ، لان الحيل الميكانيكية « للبناء الدرامي » الباريسي كانت أمرا لازما ومحتمما de rigueur في المسرح . غير أن هذا وان ملأ فراغى ، وثبت ودعم مكانتى في مجال المهنة ، إلا أنه لم يجعلنى الفنان المصور لدين العصر الذى أعيش فيه ، وهو الشرط الذى يحقق وظيفتى الطبيعية كفنان . كنت على وعى تام بهذه الحقيقة ، لاننى كنت على علم تام وبصفة دائمة ، أن الدين بالنسبة للحضارة هي مسألة حياة أو موت . وفي الوقت الذى كانت فيه فكرة التطور الخلاق تنمو وتنضج اكتشفت أننا أصبحنا أخيرا قاب قوسين أو أدنى من التوصل الى دين جديد يحتوى على أول شرط فى جميع الأديان التى سيطرت فى يوم من الأيام على وجدان الانسانية ، هذا الشرط هو أنه يجب أن يكون أولا وأساسا ميتابولوجيا (١) . وكان هذا الاكتشاف نقطة تحول حاسمة بالنسبة لى ، لاننى لاحظت أن ظاهرة عبادة الانجيل أى اعتباره طلسمًا له قوة سحرية ، تصمد فى وجه كل النيران التى أطلقتها عليها المدفعية العقلانية التى سلطها عليها هيوم (٢) وفولتر ومن اليهما ، ثم لاحظت بعد ذلك أنها انهارت أمام هجمات المؤمنين بنظرية التطور مع أنهم أقل من أولئك موهبة ومقدرة ، ولم يكن ذلك لشيء

أو ما وراء البيولوجيا على غرار

(١) Metabiology
ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا
(٢) D. Hume

الا لان الداورينيين فضحوا عبادة الانجيل واعتبروه سحرا مقدسا ، ومن ثم قضوا على الثقة فيه كوثيقة بيولوجية وكمرجع علمي . ومنذ تلك اللحظة فقد الانجيل واقعته واحدا بعد آخر ، وزالت سيطرته على وجدان الناس أما أنا ، فقد كانت روح القرن الثامى عشر الايرلندية تتسلط على وتجعل من المستحيل ان اومن بشيء او ان اصدق اى شيء مالم افهمه بعقلي كمنظيرية علمية بالرغم من كل ماكان سائدا في معسكر العلم وانصار العلم من دجل بشع وغش وخزعبلات ومنكرات ومطامع وأوهام بلهاء ، وبالرغم مما كان لدى تجار العلاج والعلماء المزيفين من اكاذيب مكشوفة ومزاعم كهنوتية يثونها في دأب واصرار في عقول ابنائنا في « التعليم الثانوى » الحديث لدرجة اننى كنت اجدنى في بعض الاحيان مكرها على وضع تعريف محدد يميز بين العلم والمعرفة حتى لا اضلل قرائى . ولكننى لم آنس قط ان الحكمة نفسها - بدون المعرفة - قد تكون اشد خطرا من الجهل الانتهازى الصرف ، وانه لابد لنا من شخص يتقدم ويمد يده الى جنة عدن ليطهرها من الاعشاب الضارة كما ينبغى ان تظهر ..

وعلى هذا الاساس عالجته فى سنة ١٩٠١ أسطورة دون جوان فى شكلها الموزارى (١) وجعلتها رمزا دراميا للتطور الخلاق . ولكن لما كنت فى ذلك الوقت فى ذروة موهبتى الكوميدية الخلاقة ، فقد بالفت مبالغة شديدة فى زخرفتها وترويقها ببذخ كبير وأحطت الاسطورة بكوميديا طويلة ، لم تشكل الاسطورة منها الا فصلا واحدا

(١) نسبة الى موزار وأوبراه الخالدة « دون جيوفانى » المؤلفة حول أسطورة دون جوان

وكان ذلك الفصل قصة قائمة بذاتها « جاء على هيئة حلم لا يؤثر في حركة المسرحية » (١) بحيث يمكن انتزاع الكوميديا وتخليصها منه ، وتمثيلها قائمة بذاتها . والواقع أنه كان من الصعب عرض المسرحية كما هي بالكامل نظرا لطولها الهائل مع أن هذه المعجزة قد تحققت مرات معدودة في اسكتلندا على يد مستر بيرس الذي كان يقبض بيديه على ناصية أمل ضائع من آمال الدراما التقدمية في ذلك الحين . كما انني زودت المسرحية المطبوعة باطار مؤثر يتألف من مقدمة ومن تذييل سميته «مفكرة الثوري» ، ومن عرض ختامي من الحكم والامثال أطلقتها مفرقة كما تطلق الالعب النارية . وكان لذلك وقع شديد فيما يبدو ، أدار رءوس الناس لدرجة أن احدا منهم لم ينتبه الى الدين الجديد الذي وضعت في مركز الدوامة الذهنية في المسرحية . والان ، هأنذا أقرر انني لم أقفز تلك القفزة الذهنية هكذا في الهواء ولمجرد المغالاة والتهور وسوء التقدير . لقد فعلت ما فعلت لان من أسوأ التقاليد التي التزم بها النقد المسرحي الشائع في ذلك الوقت، ألا يكون للجدية الذهنية أو للرصانة الفكرية محل على خشبة المسرح ، وان المسرح ليس الا مكانا للتسلية الضحلة ، وان الناس يذهبون الى المسرح للترويح عن أنفسهم بعد الجهود الهائلة الذي يبذلونه طوال اليوم في المدينة . وبالاختصار ، كان الكاتب المسرحي مجرد شخص كل وظيفته ان يصوغ من العواطف الرخيصة ، حلوى رخيصة غير صحية لبيعها للناس . وكان ردي على هذا ، أن جمعت كل ما لدى من بضاعة ذهنية ووضعتها في « فترينة » الدكان ، وعليها لافتة : « الانسان الاعلى » . وقد نجح هذا الجانب من

(١) الفصل الثالث من مسرحية الانسان والانسان الاعلى

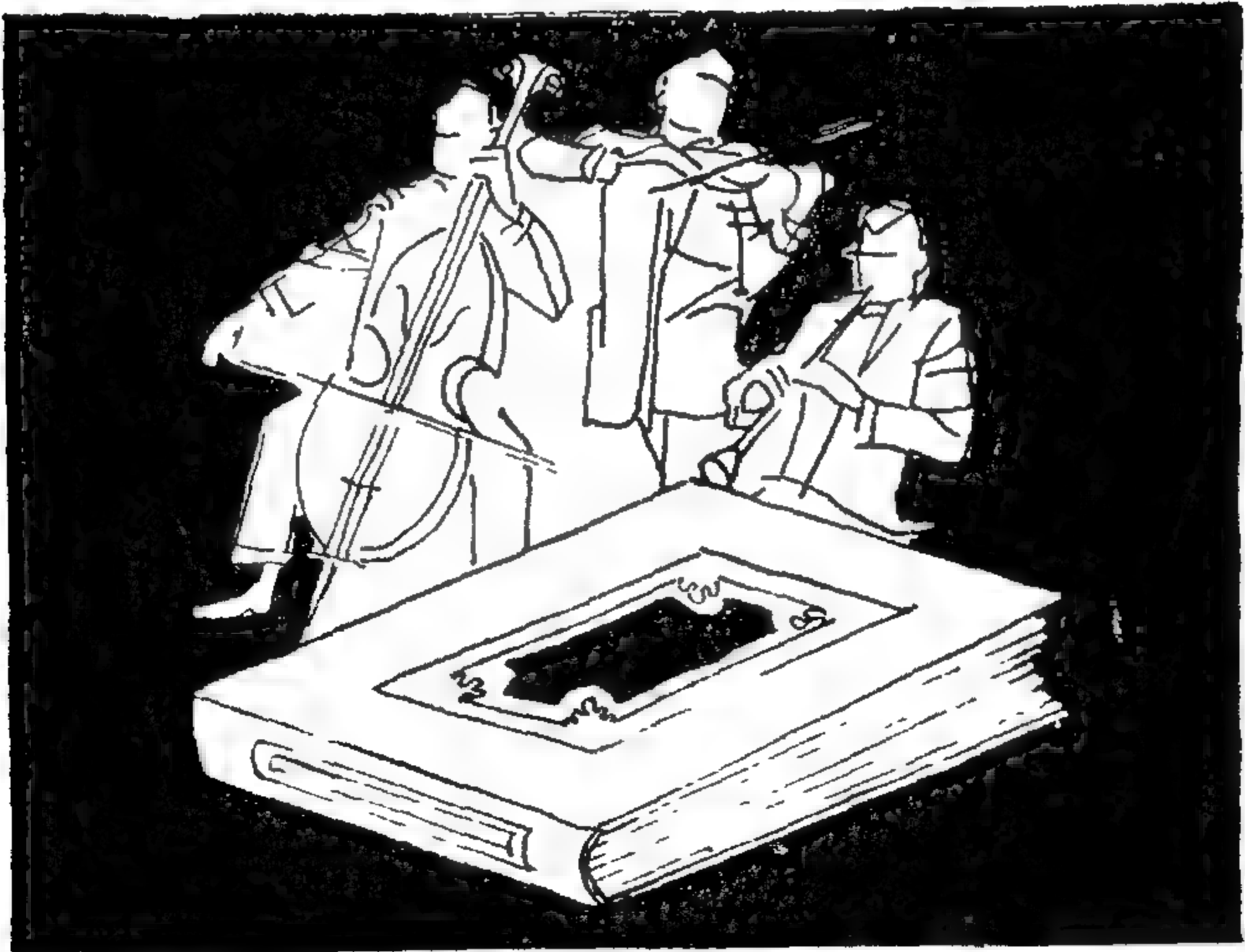
خطتى فى أداء الغرض منه . وكللت الكوميديا بالنصر على خشبة المسرح بفضل حسن الحظ والتمثيل الجيد ، كما كانت المسرحية المطبوعة محل جدل طويل . ومنذ ذلك التاريخ ، لم تقم قائمة للرأى القائل بأن المسرح دكان لبيع الحلوى الرخيصة ، ولم يعد له أى وزن أو اعتبار

والان هأنذا ارانى ملهما لان اصوغ من نظرية التطور الخلاق أسطورة ثانية وفى هذه المرة بدون شطحات أو مبالغات أو زواق ، بينما تتسرب رمال عمرى من ساعة حياتى الزمنية ، وبينما تهرم وتشيوخ خصوبة سنة ١٩٠١ فتنحول الى مهاترة شيخ طاعن فى السن فى سنة ١٩٢١ ثم كانت الحرب بمثابة التحذير الصارم بأن المسألة ليست من المسائل التى تحمل على محمل العبث والاستهتار . واذا بى أتخلى عن أسطورة دون جوان بملابساتها الجنسية، وأعود من جديد الى أسطورة جنة عدن . وعمدت الى استغلال اهتمام الناس الابدى بحجر الفلاسفة الذى يمكنهم من الخلود والعيش الى الابد . وآمل ألا أكون قد وقعت تحت تأثير وهم كبير ، اكبر مما لا بد ان يتصوره أى انسان، بالنسبة لما شرعت فيه من وضع انجيل للتطور الخلاق ، وما فى ذلك المشروع من بدائية وفجاجة . ولكنى أبذل جهد الاستطاعة فى مثل سننى، فقواى ومواهبى تحبو وتتضاعل، وتلك بشرى سارة للذين ضاقت صدورهم بعقريتى والمعيتى عندما كنت فى زهرة العمر وعنفوان الشباب . ويحدونى الامل فى ان مائة اخرى من المسرحيات الدينية الاسطورية ، أرشق من أسطورتى هذه وأكثر مطابقة لمقتضى الحال ، تدبجها أيد أكثر شبابا من يدي ، سوف تسبق مسرحيتى على الطريق وتتركها وراءها بشروط طويل ..

بهذا الامل أعلن انسحابى وأعطى اشارة لرفع الستار

الفصل الثالث

- تو لستوى - تراجيدى أم كوميدى؟
- نيتشة - أداء فريضة الشيطان.
- بيتهوفن .
- شو وفاجنر - كنز الراين



تولستوى - تراجيدى أم كوميدى ؟

ترى هل كان تولستوى تراجيديا أم كوميديا ؟ التعريف الشائع للتراجيديا هى الدراما الثقيلة التى يقتل فيها كل شخص فى الفصل الاخير ، والكوميديا هى الدراما التى يتزوج فيها كل شخص فى الفصل الاخير . والتعريف الكلاسيكى للتراجيديا أنها دراما تطهر الروح عن طريق الرحمة والرغبة ، والكوميديا دراما تطهر الاخلاق بالسخرية . هذه التعريفات الكلاسيكية التى يمثاها اسخيلوس وسوفوكليس ويوريديس مقابل اريستوفان فى المسرح الاغريقى القديم ، ويمثلها كورنيل وراسين مقابل مولير فى المسرح الفرنسى ، مازالت أفضل التعريفات التى يستطيع الناقد أن يعمل بموجبها الى حد كبير . غير أن المدرسة البريطانية طالما شنت على المدرسة الكلاسيكية وعلى الذوق الفرنسى وتحدثهما ، فلم يكن ثمة شيء يمنع الكاتب المسرحى الانجليزى من مزج الكوميديا بالتراجيديا ، بل من مزج التهريج بالتراجيديا : فالاباه فى الملك لير

(*) مادة خطاب مرتجل القاه شو بمناسبة احياء ذكرى تولستوى فى قاعة كنزواى فى لندن ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ . انترناشيونال مجازين نيويورك سنة ١٩٢١

« تراجيدى » . ولم يستطع شكسبير أن يخرج البواب من « ماكبت » ولا المهرج من « أنطونيو وكليوباترة » ولا أمل ولا رجاء فى اصلاحنا فى هذا الشأن ، فهو عيب ميثوس منه تماما . وليت الامر يقتصر على هذا ، بل نحن قد نرى فى ذلك مزية وفضلا كبيرا

علينا اذن أن نتعرف على نوع ثالث من الدراما ونتمعن فيه : هو يبدأ كتراجيديا تتخللها شذرات من الفكاهة مثل « ماكبت » ، وينتهى ككوميديا خالية من أى فكاهة ، بعد أن احتلت مكان الفكاهة فيها سخرية انتقادية مريرة الى حد ما . ولا تسمى نتيجة هذا المزيج ميلودراما لان اصطلاح الميلودراما ، أصبح يعنى الدراما التى تعمل فيها الموسيقى المصاحبة للتمثيل على ابراز العواطف والانفعالات البدائية . ثم ان هنا منذ البداية نوع جديد حقا من الدراما ليس فيه اتحاد للعناصر المختلفة ، وان كان فيه تقارب صريح بين الفكاهة والفزع فى التراجيديا ، وبين الثقل والخفة فى الكوميديا ، فأمامك ماكبت وعدو البشر (١) ودون جوان (٢) والعبرة بالخصواتيم (٣) وثروليوس وكريسيدا (٤) ، وكلها مسرحيات لا تنتمى فى نظر أرسطو وفولتير الى أى من النوعين ولا تخضع لقاعدة واحدة او كما يقال لا هى سمك ولا لبن ولا تمر هندی وفى انجلترا ، عندما اغتالت الرقابة الدراما الجادة وأجهزت عليها واضطر كتاب الدراما الى التعبير عن أنفسهم بالرواية ، أصبح الخليط أشد خروجاً على القواعد ، وانحرافاً عن القوانين مما كان فى أى يوم مضى .

كوميديا مولير الخالدة

(١) misanthrope

مولير

(٢) Le festin de Pierre

(٣) لشكسبير All is well that ends well

(٤) لشكسبير

وقد عالج هذا اللون من الرواية فيدلنج (١) ثم بلغ أوجهه في ديكنز وأن كانت مبالغيات ديكنز جسيمة بأن يوضع لها حد لو أنه اضطر لاختضاع شخصياته الروائية مثل ميكاوبر ومسرز ويلفرس موضع الاختبار على خشبة المسرح ، وعندئذ كان حريا بأن يتبين على الفور أن الأدوار التي تقوم بها ليست إلا مجرد نكتة واحدة تلقى مرارا وتكرارا ، وأنها تفتقر إلى الموهبة التي تخلق وتطور المادة التي تتألف منها الحركة المسرحية . ولو دخل ديكنز باب المسرح لاضطر لأن يبدع شخصيات أفضل من الحالة ساليز . وبعد ديكنز لا يسع المرء أن يفكر في أي كاتب عظيم أنتج ذلك الخليط المختلط أو « السلطة » من الكوميديا والتراجيديا إلا أناتول فرانس (٢) . وأتاتول فرانس في هذا الصدد ، شخص لا رجاء فيه هو الآخر حتى في أثناء أشد محاولاته الفنية جدية للملاحظة مظاهر الحياة وهارمونييات الفن وتسجيلها في ترجمته الذاتية : « بير الصغير » ، فاذا به ينهار ويخوض في فصول من التهريج الجامح « ولك فقط أن تتأمل شخصية الخادم ريدجون والشخصيات الشابلينية سسيمون نانتواد الباييجابي » ثم يخجل من نفسه ويرعوى ليعود إلى قصة حياته الحقيقية بعد أن أدرك أنه فقد كل حق له في الوقوف موقف الشهادة أمام القضاء ، ويبدعه « بير الصغير » باعتبارها الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، وليسكن

(١) H. Fedling ١٧٠٧ - ١٧٥٤ مؤلف رواية « نوم جونز » إحدى روائع الأدب الإنجليزي . وقد انجبه إلى الرواية لتعنت الرقابة المفروضة على المسرح في أيامه

(٢) Anatole France ١٨٤٤ - ١٩٢٤ الكاتب الفرنسي الساخر وصديق شو . صاحب « جريمة سلفربونار » وتاييس « مترجمة » وثورة الملائكة « مترجمة » والالهة غيرئي « مترجمة » و « التاريخ المعاصر »

روسو في عونه ! (١) وأتاتول فرانس في جانبه الكوميدي هو ديكنز الفرنسي متنكرا خلف قناع من الثقافة الواسعة، ونرى في إحدى قصصه الأولى جوكاست أبا البطلة شخصية كوميدية ديكنزية كاملة . بل لعلها اكمل وأكثر تناسقا مما استطاع ديكنز نفسه أن يصوره من الشخصيات على الورق على الإطلاق

وبعد ديكنز ، استكملت الكوميديا تطورها في نوع جديد سمى تراجيكوميديا بحسب المحاولات التي بذلت لوضع تعريف له . لقد ظلت التراجيديا الرفيعة حيث هي منذ البداية لم تتطور قط : فهي اما فشلت في تحقيق الغرض منها ولم يعد فيها من التراجيديا شيء واما توقفت حيث كانت ولم يشعر أحد بحاجة تدفعه الى المضي بها الى ابعد مما وصلت اليه ايام الاغريق . كانت الحاجة الوحيدة التي شعر الناس بها ، هي حاجتهم الى الترويح عن انفسهم ، الى أن يطلقوا من صدورهم تنهدة الارتياح ، وهكذا فعلى الرغم من بقاء التراجيديا على حالها السابق ابتداء من اسخيلوس الى ريتشارد فاغنر (وهو آخر الشعراء التراجيديين العظام في أوروبا) فان ظاهرة الاستعانة بوقت من الفكاهة أو « بساعة حظ » - وهي ظاهرة نقرنها دائما بشكسبير - قد سادت وتفشت وتغلبت حتى على اسخيلوس ، فقد خلقت خفراء كوميديين خافوا من الذهاب لنجدة أجاممنون ، وتظاهروا بأن ليس ثمة شيء يحدث ، وهذه الظاهرة نفسها تغلبت على أحسن انتاج فيكتور هوجو عندما سقط بطله دون سيزار دي بازان متدحرجا من المدخنة . غير أن التراجيديا ظلت بصفة أساسية مترتبة على قمتها العالية ، بسيطة لم تشبها شائبة ، بطولية

(١) مشيراً إلى العبارة التقليدية التي يرددها الشاهد في المحاكم الغربية مقسماً على الكتاب المقدس ومستعيناً بالله

المضمون ابتداء من سوفوكليس الى فردى
ولم يكن هذا شأن الكوميديا . فعندما أفسحت «زوجات
وندسور المرحات» (١) الطريق لمسرحية « الزواج على
الطريقة العصرية » (٢) ، وأفسح روميو الطريق لهاملت
وبانش (٣) لدون جوان وبتروفيو (٤) لالا فيفا (٥) -
وعموما عندما أفسحت المسرحية الصاخبة العنيفة ، ومبدأ
الفكاهة من أجل الفكاهة ، الطريق الى مبدأ تطهير الاخلاق
تطهيرا جادا من خلال التهكم والسخرية والنقد اللاذع على
أوسع نطاق - عندئذ قل نصيب الشاعر الكوميدي من الفكاهة
والقدرة اللانهائية على التهكم ، وأصبح بالتدريج انسانا
ساخرا ناقدًا يكشف أساسا عن مهازل تراجيدية عميقة
وانفسح المجال أمام نوع من الكوميديا يحتوى على قدر
من التراجيديا أكثر مما تحتوى عليه التراجيديا الفاجعة
نفسها ، تماما كما يحتوى الزواج غير السعيد بل الزواج
السعيد على قدر من التراجيديا أكثر مما تحتوى عليه حادثة
قطار سكة حديد مثلا . فمسرحية شكسبير المرة ذات
العنوان المر : « العبرة بالخواتيم » تسبق أبسن وتتنبأ
بمجيئه ، وخاتمتها السعيدة التى يسخر منها عنوانها
فيها من العزاء والسلوى أقل مما فى خاتمة روميو وجولييت .
ثم جاء أبسن فكان هو الشاعر الدرامى الذى وضع بقوة
وحزم أساس الكوميديا . . التراجيدية باعتبار أنها ضرب
من العزاء والسلوى أعمق وأكثر جدية من التراجيديا
التقليدية . ان أبطاله يموتون بلا أمل أو شرف ، وموتاه
أشخاص منسيون حل محلهم غيرهم ، يمشون ويتحدثون

(١) لشكسبير

(٢) marriage à la mode

(٣) الاراجوز

(٤) شخصية فى مسرحية ترويض العامية لشكسبير

(٥) شخصية فى مسرحية نواج فيجارو

مع أشباح الماضي ، وجميع شخصياته أبطال كوميسيديون ونهوضهم وسقوطهم ليس من قبيل التشنجات المطهرة للروح بالرحمة أو بالاستنكار ، بل من قبيل التحدى والنقد الموجه للمجتمع وللمتفرج باعتباره مواطنا له صوت فى الانتخابات . انها شخصيات يائسة ، ومع ذلك لاتخلو من الامل ، لانها فى الاغلب تجسيد لنقد المواقف الفكرية الزائفة والتي هى بطبيعتها الفكرية يمكن أن تعالج بفكر افضل ..

وهكذا أصبحت الكوميديا هى الشكل الارقى للدراما . فلقد كان عنصر الصدفة هو نقطة الضعف فى التراجيديات - مع ما للصدفة من وقع فعال - لان من المستحيل جعلها ممتعة وأنقاذا من وطأة الضجر والاملال . لقد تسبب « منديل » يد فى افساد مسرحية عطيل وهو ما تبينه شكسبير نفسه فيما بعد عندما كتب « حكاية الشتاء » . وينزل الستار على « مدرسة الفضائح » (١) فى اللحظة التى تبدأ فيها العلاقات بين سرفيس الخائن وبين ليدى تيزل الاشد منه خيانة ، تثير اهتمام المتفرج واستمتاعه لأول مرة منذ بداية المسرحية . ان الكوميديا التراجيدية الحديثة سواء فى مأساتها أو ملهاتها ، تبدأ من حيث انتهت التراجيديات والكوميديات القديمة وحملت عصاها ورحلت عن خشبة المسرح ، وأصبح لدينا فعلا مسرحيات مكتوبة ومعرضة ، تتناول الاحداث التى وقعت لشخصيات ابسن من قبل أن يبدأ الفصل الاول (٢)

والان ، يمكننا بسهولة ، أن نضع تولستوى فى خيانة التراجيكوميدين الى أن يخترع لنا أحد الناس اسما افضل من

(١) مسرحية شريدان

(٢) يشير الى مسرحيات له ولغيره مثل والتر بيزانت قائمة على شخصيات ابسنه مثل نورا فى بيت الدمية وغيرها

ذلك . وتولستوى من بين جميع الشعراء الدراميين لديه أقوى قوة على التدمير بلمسة واحدة ، متى شاء أن يدمر . ورواياته تبين ذلك المرة بعد المرة : يدخل الرجل بيتا حيث يرقد شخص مسجى ميتا . وهنا لا يلجأ تولستوى الى مواعظ تقال أو الى سخرية مكشوفة بل الى البساطة التي يجيد استخدامها اجادة تامة ، فيخبرك فقط أن الحانوتى ترك غطاء التابوت موكوئا على الجدار فى مدخل الصالة ، وأن الضيف يدخل حجرة الاستقبال ، ويتربع جالسا على شلته . وفى لمحة واحدة نرى المهزلة والسخافة والتفاهة فى مواكبنا الجنائزية المظلمة وفى عواطفنا الفياضة التى نعرب عنها فى المدافن، نراها وهى تضحك بملء أفواهها فى وجوهنا . أو يذهب القاضى الى المحكمة ليتربع فى كرسى عال شاهق يصدر منه أحكاما كأنها الاحكام المنزلة ، ويرسل باخوانه من خلق الله الى المشانق والسجون . ولا يسمح تولستوى لشيء أن يخفف من وقار المناسبة ، فلا جبين القضاى ينعقد ، ولا عين له ترمش - ولكن تولستوى يخبرنا أن القاضى يقوم قبل أن يترك غرفته ، ببعض التمرينات البدنية واحد اثنين واحد اثنين . وهكذا فى لمحة بصر نرى انقاضى مطروحا أمامنا فى الوحل بفرائه ومخمله وشاحه الأرجوانى وهيله وهيلمانه جاعلا من نفسه وسائر القضاة هدفا لسخرية لا يمكن وصفها بأى كلام يقال . أما ديكنز فيحملنا على الضحك وهو يصف « فتاحة » الزجاجة فى يد أورفلنج وهى تنفصل عن السدادة وتلطمها فى ذقنها . ونجد أنفسنا نهتف ونهلل للكاتب العايب ولكنه يترك مسز أورفلنج وهى ليست أسوأ حالا ولا أقل مكانة فى أعيننا مما كانت بعد مرور خمس دقائق . أما تولستوى ففي مقدوره أن يزهد روحا بفتساحة الزجاجة دون أن يسمح بتسرب أدنى إشارة أو أقل تلميح بأنه كاتب عايب أو ساخر أو حتى بأنك ستضحك

هذه الطريقة الرهيبة - وان كانت كوميدية في أصلها -
هي الطريقة المتبعة في جميع مسرحيات تولستوى ماعدا
مسرحيته الاولى : « سلطان الظلام » التي تعتبر في جملتها
تراجيديا حقيقية . أما مسرحية « ثمار الثغافة » التي
سبقت مسرحية « زواج آن ليت » (١) لجرانفيل - باركر
بوقت طويل ، كما سبقت مسرحيات تشيكوف - هذه
المسرحية هي الحلقة الاولى من سلسلة « بيوت
الحشرات » (٢) وأشدّها قدرة على التدمير والافناء . فهو
يلمس بقلمه حجرة الاستقبال والمطبخ . وممسحة الارجل
في مدخل الصالة ومناضد الزينة في الطابق العلوى ،
فاذا بها تفنى وتلاشى كما تفنى وتلاشى جنة كلنجسور
باشارة من بارسيفال (٣) . « والجثة الحية » تتمتع بحياة
كالتى كان يتمتع بها اكثر النبلاء الاقطاعيين في بدخهم
وفخفختهم . غير أن نظام النبلاء الاقطاعى ينهار ويتهاوى
كنظام اجتماعى ، ويصبح ترابا تذروه الرياح باشارة عابرة
من المؤلف الى أن النبيل العريق الاصل اذا لم يحصل على
وظيفة في الحكومة كجندي أو كدبلوماسى ، لا يبقى أمامه
مايفعله الا أن يقتل نفسه بالخمير والنساء . انها حالة من
الحالات التى يقال فيها : « لعنة الله عليكم أيها النبلاء
المرحون . ولتنقلب عليكم كل الاشياء فزعا وحزنا
وهلاكاً ! »

-
- (١) The Marrying of Ann Leet تأليف Granville Barker
١٨٧٧ - ١٩٤٦ المثل والمخرج المسرحى قام بتمثيل واخراج عدد
كبير من مسرحيات شو . والكاتب الواقعى المعاصر لشو
(٢) Heartbreak House مسرحية شو بهذا الاسم « ترجمت
بعنوان منزل القلوب المحطمة »
(٣) Pareival البطل السليم النية فى اوبرا فاجنر الخبيثة
بهذا الاسم

غير أن تحفة تولستوى ورائعته الكبرى هي مسرحية « نور سطع في الظلام » (١) وفيها يدير لمسته المدمرة الى نفسه في نزعة انتحارية ، حتى تنزل به الكارثة بلا رحمة . اما أن يصبح « بطل سيبا ستوبول » جنديا من الدرجة الثانية فشيء لا يؤبه له ، وأما أن تصبح ليفين في « أنا كارنينا » خادمة عادية محبة للشغب والنقار ، فلا يكاد يلتفت اليه أحد . ان المؤلف الذي يصنع التراجيكوميديا نبى عظيم ولكنه متجسد في هيئة انسان أبله غشيم نزاع الى القسوة والشر . وعندما يكتب مستر آيلمر مود (٢) ترجمة حياة تولستوى يمسك بالميزان في انصاف وعدالة بين الزوج والزوجة غير ملق أى اهتمام بما يقال من أن الرجل العظيم معصوم لا يمكن أن يرتكب خطأ . وعندما وقف من تولستوى موقف الناقد الذي يمزج نقده بالاحترام ، اذا بتولستوى نفسه يبدو لنا قاسيا لا يرحم نفسه ، واذا بقسوته تمتاز بالاحتقار . ان تولستوى لا يريد أن يضيف على نفسه فضل انهاء مسرحيته . لقد ترك الفصل الاخير غير مكتوب ولكن مع تعليمات دقيقة عن الطريقة التي ينبغي أن يطلق بها الرصاص عليه كالكلب المسعور بيد أم الشاب الذي حطمه بتعاليمه ، كما حطم كل شخص اخر انصت اليه . . (٣)

ومع ذلك فلم يصدر تولستوى - في الواقع - الحكم بادانة نفسه : لقد أوضح فقط أنه كان مدركا تماما مافي مذهبه الفوضوى من فجیعة مدمرة ، بل كان على استعداد لمواجهة فجيعته المدمرة مفضلا ذلك على أن يقبل أو يساند

(١) ترجمها الاستاذ احمد حسين المعامى - سنة ١٩٦٢ الناشر مكتبة الانجلو

(٢) Aylmer Maude كاتب احسن ترجمة لحياة تولستوى

(٣) يشير الى ان نهاية مسرحية نور سطع في الظلام لم تكتب لان تولستوى مات قبل انمامها

سياسة النهب والعنف لا شيء الا لان اللصوص والعسكريين لديهم من السلطة السياسية ما يكفي لجعل النهب والعنف أمورا مشروعة . ولا بد من القول بأنه لو رفض كل انسان ان يتساهل في مبادئه او يقبل فيها الحلول الوسط ، فان ضروريات الظروف ستحتج إعادة بناء النظام الاجتماعي على أسس شريفة وسلمية . ولكن أفكار تولستوى وآراءه الخاصة بإعادة بناء النظام الاجتماعي لم تتجاوز فيما يبدو قبوله لفكرة هنري جورج عن ضرورة تأمين الأرض بلا نقد ولا تحفظ . ولم يبد على تولستوى أن خطر له قط ، أن عملية إعادة بناء النظام الاجتماعي أيا كانت — فلا بد وأن تنطوي على قدر من الضغط على الفرد واضطهاده الى حد ما على يد الدولة ، وان هذا القدر من الضغط والاضطهاد سيكون أكبر مما هو واقع في ظل النظام الحاضر ، لان هذا النظام يمارس الضغط ويفرض الاضطهاد بصفة غير رسمية وان كانت مظاهر الضغط والاضطهاد موجودة وواضحة في كل مكان ، بل ان النظام الحاضر يعتمد في كل ذلك على الظروف الراهنة المسئولة عن فقر البروليتاريا . ولم يتمكن تولستوى — كأى ارسقراطى مدلل الى حد ما ومزيف الى حد ما وهو ما كانه فعلا — لم يتمكن من احتمال الضغط أو القهر أو الاضطهاد ، فرفض رفضا تلقائيا ان يهتم أو ان يلتفت للمشكلة العملية الملحة مشكلة إعادة بناء النظام الاجتماعي وفقا لمبادئه ، أى مشكلة تقسيم الحد الأدنى من الجهد اللازم لابقائنا على قيد الحياة ، وتوزيع ثماره بالتساوى بيننا . وقد تبين لينين أن هذه المشكلة تستلزم اطلاق كثير من الرصاص على المعاندين والمعارضين . وتولستوى مثل كثير من الانبياء غيره ، كان يدعو بالموعظة الحسنة والنية السليمة ، ولكنه لم يعثر قط على الوسيلة لتحقيق ما يدعو اليه . ومن ثم كان تأثيره على الحمقى من ذوى النزعة الفردية « وقد وضع نفسه بينهم

في مسرحية نور يسطع في الظلام « تأثيرا خطيرا ، بل على
أعظم جانب من الخطورة

ومع ذلك ، فقد كان تولستوى من كبار المحللين
الاجتماعيين عندما كشف لنا كأستاذ من أساتذة الدراما
التراجيكونميدية ، عما في حياة الغرور والبلادة من تعاسة
وسخافة - مع أنها هي الحياة التي نضحى في سبيلها
بشرفنا وبسعادة جيراننا

نيتشة - أداء فريضة الشيطان

منذ سنوات قليلة ، كانت هناك شركة لندنية تجارية للنشر تعمل تحت اسم : هنرى وشركاه . وكانت سياستها في العمل ، سياسة متهورة تتلخص في القيام بمشروع عجيب هو أن تدعو أفرادا من جمهور القراء ممن يصعب إرضاؤهم ليشتروا بمبلغ سنوى متساو تقريبا ، في دفع إيجار دار في ميدان جروزفتر ، وبهدف إصدار صحيفة يتولى كتابتها كلها من أولها الى آخرها عبقرى من العباقرة ، وتوزع عليهم مرتين في الاسبوع وعلى مائدة الافطار . ولم يخطر لهم أن يكلفوا ليدى راندولف تشرشل (١) بالقيام بتحريرها ولكنهم دعوني أنا لكتابة العدد الاول . ووعدهم ولكنى لم أنهض قط لتحقيق الموعد وفى تلك الاثناء اخذت الشركة تتسلى بإصدار طبعة انجليزية لمؤلفات فردريك نيتشة آملة أن يكون ذلك أكثر مافى جعبتهم من المشروعات طيشا وتهورا بعد مشروع الصحيفة . ولم أكن أنا شخصا أصدق وجود أشخاص باسم هنرى وشركاه

* ستر داي ريفيو ١٣ مايو سنة ١٨٩٩ بمقتضى نشر مؤلفات فردريك نيتشة لأول مرة مترجمة الى الانجليزية . فى جزئين (الناشر فيشر آنوين لندن)
(١) أم وينستون تشرشل

فلم تكن الشركة الا تجسيدا حيا للمسترجون . ب . جرين
ذلك الرجل الجسور المحب للمخاطرة والذي أسس
« المسرح المستقل » وأخذ لندن على غرة عندما أحدث فيها
انفجارا مدويا بعرض مسرحية الاشباح ، لابسن . ولم
يستطع الا بصعوبة ان يعثر على من هو أفضل من نيتشه
ليحدث في لندن انفجارا مماثلا يكون له نفس . الوقع .
وظهر من ترجمة اعمال نيتشه جزءان ، قبل ان تدفع
الشركة ثمن تهورها ، ولم يكن لها في الامر حيلة ، بتصفية
حساباتها تصفية نظيفة شريفة ، وبيع جميع ممتلكاتها
ومخلفاتها ، والاختفاء تماما من دنيا الناشرين

ومما يستلفت النظر ، أن يقدر للمشروعين الطوبويين
الذين قام بهما هنري وشركاه ، أن يعيشا بعد وفاة
أصحابهما الذين دفنت مع عظامهم مشروعات تجارية أخرى
كانت أقرب الى النجاح من وجهة النظر العملية .
فصحيفتهم الدورية التي كان ثمنها مرتفعا بصورة وقحة
تدمج المشترك فيها بوصمة الثقافة الارستقراطية - على
وشك الصدور الان . وأما ترجمة أعمال نيتشه فقد
واصلت طريقها الثورى الانقلابى على يدمستر فيشر آنوين
المحترم

ان نيتشه هو محامى الشيطان ، فى روب المحامى
العصرى . وفى الزمن الماضى عندما كانت تثار قضية اثبات
صفة القداسة على أحد الاولياء ، كانوا يسمحون للشيطان
بأن يوكل عنه محاميا يتولى الدفاع عن حقوقه فى روح
ذلك الولي . وبطبيعة الحال لم يدر فى خلد أى انسان أن
ينهض مدافعا عن حقوق الشيطان واعتباره أحد الموجهين
والقادة للجنس البشرى وان كان قد أسىء فهمه كثيرا فضلا
عن تمتعه بالاصالة والاستقلال فى الفكر . واستمر
الحال مع ذلك حتى القرن التاسع عشر عندما تجاسر وليم

بليك (١) فعبر الحاجز الى الناحية الاخرى - وألف حزبا للشيطان . ومن حسن حظه أنه كان شاعرا ومن ثم اعتبر مجنونا مشيعا بالتناقض بدلا من أن يعتبر زنديقا وكافرا . وحقق الحزب تقدما طفيفا في فترة طويلة نسبيا ، لان البلاد كانت في ذلك الوقت منغمكة في عرض دينها على النار المطهرة في بوتقة النقد التي فاحت منها أخيرا رائحة عناصر وخامات افريقية بدائية . غير أن هذا النقد المطهر بالغ في تمجيد الواجب والاخلاق والقانون وحب الغير ، ووضعها في مرتبة تفوق مرتبة الايمان الديني . وأقامت البلاد جمعيات اخلاقية وتولتها بالرعاية تاركة الشيطان صديقي العجوز المسكين (فقد كنت أنا أيضا مولودا شيطانيا) في حالة أسوأ مما كان فيها في أي وقت . ومضى مستر سوينبورن (٢) يشرح بليك ويفسره . بل تمادى الى أن هتف ينادى الشيطان بقوله : « فلتهبط علينا من عليائك ! ولتخلصنا من الفضيلة ! » غير أن ايماءات بوتني (٣) الورعة أثرت عليه وعادت به الى الصف ، وهو الان رجل محترم تماما يخشى شكسبير كما يخشى الله . وأطلق مارك توين (٤) يضع شرارات شيطانية في سماء الادب ، لم يكد ينتهي من اطلاقها حتى سقط صريع المناخ

(١) W. Blake ١٧٩٧ - ١٨٢٧ الشاعر الانجليزى المتنبى والمتهم بالجنون . كان يزعم أنه يرى الملائكة والسياطين ويتحدث اليهم ، ويصورهم في شعره

(٢) A.C. Swinburne ١٨٣٧ - ١٩٠٩ الشاعر الانجليزى الوثني المتمرد ، أخذ عن بليك وبودلير

(٣) Putney بلدة في جنوب غربى لندن وهى مسقط رأس سوينبورن

(٤) Mark Twain صمويل لانجهورن كليمنس ١٨٣٥ - ١٩١٠ الكاتب الأمريكى الساخر مؤلف مقامرات هكلبرى فن «ترجمت» ونوم ضویر «ترجمت»

الامريكي الكاسح ، الذي تسود فيه قيم الفروسية والواجب
والدمائة أى قيم نبلاء الاقطلاع . ثم هبت فى باريس نفحة
شيطانية يائسة مزيفة تنهض على عقيدة دينية جامدة
تقرر أن أمير الظلام (الشيطان) ليس جنتلماناً، ممازعزع
الثقة فى عبادة ابن الصباح (الشيطان أيضاً) عبادة
صادقة . وبدأت المسألة كما لو كان كل شيء قد ضاع
عندما عثرت القضية على ابن درامى مخلص لها كل
الاخلاص فى شخص ابسن الذى كان اول امام حقيقى
أمسك بتلابيب القيم التقليدية قيم الواجب وانكار الذات
والمثالية والتضحية ... الى آخر عناصر المؤامرة الموجهة
ضد الشيطان ، وجرها جميعا الى ساحة المحاکمة .

وما اكثر الذين وضعتهم هذه المؤامرة من المحامين الممتازين
المدافعين عن الشيطان ، موضع الاتهام والتلبس بالجريمة .
فقد انتشر زعم مخجل وشائن ، يزعم أن للرجل الصالح
أن يفعل أى شيء يراه صوابا (والصواب فى هذه الحالة
معناه بالطبع أى شيء يحبه الرجل الصالح) بدون أى
اعتبار لمصالح الاشرار والفاستدين أى مصالح المجتمع
بصفة عامة . وما أن ظهر ابسن حتى ولى هذا الزعم
مدبرا ، ثم حوضر وألقى القبض عليه ووضع فى قفص
الاتهام وارغم على أن يدافع عن نفسه ، وبهذا - أى فى
نهاية المطاف - أصبح لحزب الشيطان نفوذ وسلطان

وفى اثر الكاتب الدرامى جاء الفيلسوف : فى انجلترا
ج . ب . ش . وفى المانيا نيتشه وكان نيتشه قد جلس
طويلا يتعبد عند قدمى فاجنر الذى كان بدوره يتعبد عند
قدمى بطله سيجفريد ، وكان سيجفريد شيطانيا طيبا .
ولكن كان من سوء حظ نيتشه أنه بعد أن تهيأ لاستقبال
موسيقى فاجنر بحماسة شيطانية جامحة ، كأقصى ما يكون

الجموح ، ذهب الى بيروت (١) ذهاب المتحمس المندفع
فاستمع الى موسيقى فاجنر وهناك انقشعت عنه سحابة
الوهم بقسوة مروعة لانه كان في ذلك الوقت عاجزا عن
احتمال أخف أنواع الموسيقى حتى أوبرا كارمن . وهكذا
طرح صنمه المعبود أرضا ، وماان ذاق لذة تحطيم
الاصنام (ولعل عادة تحطيم الاصنام هي الوحيدة التي
فيها من الفائدة بقدر ما فيها من اللذة) حتى أصبح
شيطانيا مريدا ، يتندر بالنكت ويلقى بالحكم والامثال ،
ثم احتل مركزه « على الجانب الاخر من الخير والشر » ،
وتخطى بقيمه الخاصة قيما الاخلاقية ، وسعى بصفة
عامة لانقاذ البشرية من حكامها وأئمتها الذين يسرون
على الصراط المستقيم ، ولكن بلا ضمير لديهم على
الاطلاق ..

والمجلد الذي أصدره توا ، مستر فيشر آنوين ، يحتوى
على كتاب « تسلسل الاخلاق » ترجمة مستر وليم
هاوسمان كما يحتوى على الامثال والحكم المنظومة التي
نقلها الى الانجليزية مسترجون جراى بأسلوب اكثر من
ذكى . ثم أعيد نشر كتاب « هكذا تكلم زرادشت » (٢) في
مجلد مصاحب للمجلد السابق ، وهو الاخر نفحة من
الحكمة الشيطانية بأسلوب شديد التركيز ..

(١) Bayrouth المدينة البافارية في المانيا حيث شيد فاجنر
« مسرح العيد » حسب تصميمه . وافتتح المسرح سنة ١٨٧٦ بأوبرا
فاجنر خاتم النبلونج . وظل المسرح والمدينة وأهلها أوفياء لموسيقى
فاجنر الى اليوم

(٢) Thus Spake Zarathustre (مترجم الى العربية)

بيتهوفن ..

منذ مائة عام ، هز قبضته في وجه السماء المزمجرة ،
لاخر مرة ، عجوز أعزب شكس نكد الطبع ، ضلب الراى
في السابعة والخمسين من العمر ، بلغ منه الصمم انه لم
يكن يستطيع ان يسمع موسيقاه ، وان عزفتها أوركسترا
كاملة ، ومع ذلك كان يستطيع أن يسمع صوت الرعد .
مات كما عاش متحديا الله ومستفزا الكون . بل كان هو
التحدى نفسه مجسدا . لم يكن يلقي الدوق الكبير
وحاشيته سائرين في الطريق الا وجذب قبضته بشدة وثبتها
فوق رأسه وتقدم بخطوات واسعة ليخترق جمعهم لايلوى
على شيء . كان سلوكه وسيره أشبه بسير وسلوك وابور
الزلط : جاف الطبع (مع أن أكثر وابورات الزلط طيبة
هادئة الطبع الى درجة الخنوع) . وكانت عنايته بملبسه
أقل الى حد ما من عناية خيال المآتة بملبسه : حدث
بالفعل أن قبض عليه البوليس مرة بتهمة التشرذ بعد أن
رفض ان يصدق ان مثل هذا الشخص الرث الملهل الثياب
يمكن أن يكون مؤلفا موسيقيا شهيرا فضلا عن أن يكون
معيدا متنقلا تتعبد فيه روح جامحة صاخبة ومن أشد
الارواح جموحا وصخبيا ، روح وجدت التعبير عن نفسها
في الصوت المجرد . . وكانت والعق يقال روح جبار . ولو

(*) مجلة راديو تايمز ١٨ مارس ١٩٢٧ بمناسبة العيد المئوى لوفاته

أننى كتبت عن أشد الارواح جبروتا - مما يعنى أشد جبروتا من روح هاندل - فان بيتهوفن نفسه كان خليقا بأن يلومنى . . ثم أى انسان هذا من بين البشر الهالكين يمكن أن يدعى أن له روحا أقوى وأشد جبروتا من روح باخ ؟ أما القول بأن بيتهوفن أشد الارواح جموحا وصخباً على الإطلاق ، فبعيد عن كل شك . ففى مؤلفاته غضب شديد متهور فى شدته ، غضب يستطيع بسهولة تامة أن يحتويه ويسيطر عليه وان كان هو فى الغالب لا يريد ذلك . . كما أن فيها أيضا مراحا صاخبا مجلجلا معربدا ، وهذا الغضب وذاك المرح يفوقان أى شىء من جنسهما فى مؤلفات غيره من الموسيقيين جميعا . يكتب بعض السذج اليوم ان عملية نقل النبرة الموسيقية هى وسيلة جديدة لمنح النص الموسيقى أقوى دفعة ممكنة ، غير أن أشد أنغام الجاز عريضة وصخباً ، تبدو كأنها « صلاة العذراء » اذا ما عزفت بعد افتتاحية ليونورا الثالثة لبيتهوفن . ولم تستمع اذننى قط وبكل تأكيد ، لعازف زنجى أمكنه أن يلهم أحلك الراقصين الزنوج لونا ليرقص كما لو كان الشيطان مجسدا *diable au corps* كما تفعل الحركة الاخيرة من السيمفونية السابعة ولم يحدث قط أن موسيقيا غير بيتهوفن أذاب مستمعيه فى لجة من الشجن العاطفى الكامل بما فى موسيقاه من جمال وحنان وسحر ، ثم قلب لهم ظهر المجن فجأة وسخر منهم بنفخات مستهجنة من النفير ، تحتقرهم وتزرى بهم لانهم بدوا حمقى وسفهاء على هذا النحو المهين . لا أحد سوى بيتهوفن يمكنه أن يحكم بيتهوفن أو يتحكم فيه . وعندما يرفض أن يتحكم فى نفسه - كما يحدث كلما أدركته النبوة . . ينطلق جامعا لا يمكن كبحه أو التحكم فيه وانه ذلك الجموح الصخب ، وتلك الفوضى المتعمدة ،

وهذه السخرية اللاذعة ، وذلك الاستهتار الجسور بقواعد السلوك التقليدية ، كل هذا وذاك هو ماوضع بيتهوفن في معزل عن عباقره الموسيقيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قرنى التقاليد المتحجرة والرسميات المترزمة . كان بيتهوفن موجة عملاقة في تلك العاصفة الهوجاء التي هبت من أعماق الروح الانسانية وأنتجت الثورة الفرنسية . ثم يناد شخصاً واحداً - مهما كان هذا الشخص - بياسيدى . كان على غير شاكلة موزار - وهو أعظم من سبقه من الموسيقيين في مجال تخصصه - الذى كان منذ طفولته يفصل شعره ويمشطه ويلبس لباساً فاخراً ويلتزم بقواعد السلوك الحسن في حضرة الشخصيات البارزة من ملوك ونبلاء . وغضب موزار الصبانية على مدام بومبادور عندما قال لها : « من تكون تلك المرأة التى لا تقبلنى ؟ ان الملكة نفسها تقبلنى » ، شئ لا يمكن لاحد أن يصدق أنه يصدر عن بيتهوفن الذى كان في ذلك الوقت جرواً لم يلحق بعد ، بل حتى بعد أن شب وكبر وأصبح دباً كبيراً أشيب . كان فى موزار ارهاف التقاليد والمجتمع الارستقراطى كما كان فيه ارهاف الطبيعة وحده الروح . كان ارهاف موزار وجلوك (١) أرهاف بلاط لويس الرابع عشر ، وكان ارهاف هايدن (٢) ارهاف سادة الريف الاقطاعيين فى زمانه . أما بيتهوفن فكان بوهيميا سخاباً كرجل من أبناء الشعب . كان هايدن أرهاف حساً وأسمى نفساً من أن يغار ويحقد عندما أعلن أن تلميذه موزار هو أعظم موسيقى عاش على ظهر الارض

(١) C.W. Gluck المؤلف الموسيقى التشيكي المعاصر لموزار

١٧١٤ - ١٧٨٧

(٢) F.J. Hayden المؤلف الموسيقى الالماني ١٧٣٢ - ١٨٦٠

استاذ موزار

فى اى يوم من الايام — هايدن هذا لم يستطع مع بيتهوفن صبرا ، وقال موزار — وهو أبعد نظرا — عندما أصفى لعزف بيتهوفن : « سوف تسمعون عنه يوما ما » . وكان بيتهوفن يكن لموزار مهابة كبيرة بل فزعا معويا شديدا : فقد كان فى استطاعة موزار أن يحيط أحد الأوغاد الارستقراطيين فى أوبرا دون جيوفانى ، بهالة من السحر والنشوة ، ثم يعمد بموهبته الدرامية المطبوعة على القلب والتحول فى موقفه الاخلاقى وبلا تحرز ، فينسج هالة من القداسة والطهارة حول ستراسترو واضعا كلماته فى خدمة موسيقاه الفذة التى لم يؤلف موسيقى مثلها من قبل ولا من بعد ، موسيقى لا يبدو أى صوت من أصواتها فى غير موضعه كما لو كان قد خرج من فم الله

لا . لم يكن بيتهوفن دراميا مطبوعا ، كان القلب الاخلاقى فى نظره استهتارا يدعو الى الاشمئزاز ، ومع أن موزار كان لا يزال فى نظره أستاذ الاساتذة (وليس هذا مديحا أجوف أو مبالغا فيه ، بل يعنى بكل كلمة أن موزار سيد المؤلفين الموسيقيين فعلا ، أكثر بكثير مما يعنى أنه مجرد مؤلف ذائع الصيت) فقد كان فى نظره أيضا خادما ذليلا فى حاشية البلاط يرتدى سراويل الخدم القصيرة بينما كان بيتهوفن رجلا من صميم الشعب Sans Culotte (١) وكان هايدن أيضا خادما من خدام البلاط يرتدى بزة البلاط التقليدية : حقا لقد وقفت الثورة بينهم حائلا كما وقفت بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . غير أن موزار كان فى نظر بيتهوفن أسوا مكانا من هايدن لانه كان

(١) كلمة فرنسية كانت تعنى الشخص الذى لا يرتدى سراويل نرى رجال البلاط ، أى الرجل من عامة الشعب . وكان رجال البلاط فى أوائل الثورة الفرنسية يطلقونها على رجال الحزب الديمقراطى (الشعبى) فى باديس سخريه منهم

فى موسيقاه يستهين بالاخلاق . فكان يعبر عن الرذيلة
بنفس الاسلوب الساحر الذى يعبر به عن الفضيلة ، ومن ثم
هب ثائرا فى وجهه بما فى قلبه من نزعة بيورتانية كامنة
فى قلب كل رجل من صميم الشعب Sansculotte
ضاربا صفحا عما لموزار من فضل عليه عندما افضى اليه
بكل امكانيات وأسرار موسيقى القرن التساسع عشر .
وهكذا تراجع بيتهوفن فى بحثه عن البطل ، عائدا أدراجه
الى هاندل (١) الذى كان هو الآخر عجوزا أعزب صلب
الرأى من نفس طينته وعجينته ، وكان يحتقر جلوك
معبود موزار وبطله مع ان كانتاتا « الباستورال » هى
« واوراتوريو المسيح » أقرب فى الموسيقى للمناظر التى
افتتح بها جلوك أوبراه « أورفيوس »

شكرا للاذاعة ، فبفضلها يستمع لأول مرة ملايين من
ذوى الميول الموسيقية الى موسيقى بيتهوفن فى هذا
الاحتفال السنوى بذكرى وفاته ، وقد سمت تطلعاتهم
الى أعلى عليين بفضل مئات المقالات الصحفية التى أهالت
على بيتهوفن جميع التقاريط والمدائح والمرائى التقليدية
التي تلقى بغير تمييز على جميع المؤلفين الموسيقيين
العظام . غير أنهم سيعودون بالحيرة وخيبة الامل كما عاد
معاصروه عندما استمعوا منه الى موسيقى لم يكونوا
يتوقعونها ، بل كانت فى أغلبها ضوضاء أوركستريالية لم
يروا فيها مايمكن أن يسمى موسيقى على الاطلاق - فى
وقت كانوا يستطيعون فيه تقدير جلوك وهایدن وموزار
أحسن تقدير - وتفسير ذلك بسيط كل البساطة . هو
أن موسيقى القرن الثامن عشر كانت موسيقى رقص .
والرقص نمط من الخطوات المتناسقة يلد للراقص ان يحرك

(١) G. F. Handle ١٦٨٥ - ١٧٥٩ المؤلف الموسيقى الالماني

جسمه وفقها ، وموسيقى الرقص نمط من الاصوات المتناسقة يلذ للمستمع أن ينصت اليه حتى وإن لم يرقص على إيقاعها . ومن ثم فالأنماط الصوتية وإن كانت تبدأ بسيطة كرقعة الشطرنج إلا أنها بفضل الهارموني ، تطول وتتعدد وتزداد ثراء وخصوصية حتى تصبح أشبه بالسجاجيد العجمي الفاخرة . والمؤلفون الموسيقيون الذين يصممون هذه الأنماط لا يتوقعون من الناس أن يرقصوا على إيقاعها ، فليس في مقدور بشر أن يرقص على سيمفونية لموزار إلا إذا كان درويشا من الدراويش يظل يدور ويدور حول نفسه بغير توقف : والواقع أني أرهقت اثنين من الشبان المدربين على الرقص - من أمرهم عسرا - عندهما حملتهم على أن يرقصوا على إحدى افتتاحيات موزار . بل إن نفس أسماء الرقصات القديمة سقطت من الحساب ولم يعد لها ذكر ، فبدلا من المتابعات الموسيقية التي كانت تتألف من الساراباند ، والبافان والجافوني والجيج (١) ، صممت السوناتات والسيمفونيات التي تتألف من أجزاء تسمى حركات ، وهذه الحركات موزعة على حسب سرعتها إلى أليجرو وأداجيو وسكيززو وبرستو (بالايطالية) . غير أن الموسيقى ظلت طوال عهدها ابتداء من مقدمات باخ (٢) الموسيقية إلى سيمفونية « جوبيتر » لموزار ، تقدم لنا نمطا صوتيا متناسقا وتمنحنا في كل وقت المتعة التي كان يشعر بها الراقص القديم في شكل المقطوعة ومضمونها وعلى أية حال ، تستطيع الموسيقى أن تصنع ما هو أكثر من مجرد إبداع أنماط صوتية جميلة : إن الموسيقى تستطيع أن تعبر عن الوجدان ، فأنت يمكنك أن تنظر

(١) أسماء رقصات قديمة كانت شائعة فيما قبل القرن السادس عشر وبعضها ذكرها شكسبير
 (٢) J.S. Bach ١٦٨٥ - ١٧٥٠ أبو الموسيقيين الكلاسيكيين

الى سجادة عجمية ، وأن تنصت الى مقدمة موسيقية
لباخ باعجاب مجرد لايتجاوز حدود الاعجاب ، ولكنك
لايمكنك أن تنصت الى افتتاحية « دون جيوفانى » دون
أن تجد نفسك وقد انتزعت انتزاعا من الحالة الوجدانية
التي أنت عليها ، وطوح بك في حالة وجدانية أخرى
معقدة تهيك لمجابهة قدر رهيب ومروع الى حد ما ..
قدر يحجب وراءه ضربا من السرور العظيم الذى يحتوى
مع ذلك ، على لفحة شيطان مريد . ولو أصفيت للحركة
الآخيرة من سيمفونية « جوبيتر » لموزار ، لاستمعت فيها
الى نفس الصخب والضجيج والعجيج الذى تسمعه في
الحركة الآخيرة لسيمفونية بيتهوفن السابعة : قصف
من قرع الطبول المتتابع - تاو - تاو - راو - راو زاده حدة
وصرامة وبأسا ، لون عجيب من الجمال الجامع الحزين
.. جمال تلمحه كالخيوط الدقيق الذى يتخلل نسيج النمط
الموسيقى طولا وعرضا . ومع ذلك فالحركة عمل نموذجي
للتصميم النمطي وتحفة موسيقية ترتفع شامخة في جميع
الازمان ..

والان ، ماذا فعل بيتهوفن ؟ وما الذى دعا عددا من
فحول معاصريه الى أن ينفذوا أيديهم منه بأسا ،
ويعتبرونه شخصا مخبولا تعتريه من آن لآخر نوبات
صحو وأعية يمتزج فيها التهريج بالدوق الرديء ؟ سبب
ذلك أن بيتهوفن استخدم الموسيقى استخداما كاملا كأداة
للتعبير عن الحالات النفسية والوجدانية وصرف النظر
تماما عن التصميم النمطي كهدف في حد ذاته . والحق
يقال انه ظل طوال حياته يستخدم الانماط القديمة محافظا
على التقاليد متمسكا بها (وهذه بالمناسبة صفة أخرى
من صفات الرجل الشعبى الصميم Sans Culotte

لولا أنه حملها بشحنة جارفة من الطاقة العاطفية والوجدانية التي ترتفع الى أسنى مراتب الحماسة الانسانية - الحماسة التي تصاحب الفكرة والتي تتضاءل الى جوارها نشوة الجسد وتتضاءل حتى تسقط الى مرتبة الحيوانية الخالصة ، لدرجة أنه يجعل من المستحيل على المستمع أن يعثر وسط عاصفة الانفعال الجارفة ، على أى نمط على الإطلاق . مثلاً : تبدأ سيمفونية البتولية « ابرويكا » بنمط (مستعار من افتتاحية كتبها موزار في صباه) يتبعه نمطان أجمل منه بكثير جداً ، ومع ذلك فهي مشحونة بطاقة هائلة تفتك بالانماط فتكا وتمزقها بوحشية في وسط الحركة ، وهكذا ينطلق بتهوفن باعتباره موسيقياً نمطياً . . . في جموح وجنون وهو يقذف المستمع بمجموعات كاملة من الألحان الرهيبة دفعة واحدة بحيث تسمع جميع الحان المقطوعة في وقت واحد لا لشيء إلا لأنه يريد ذلك ويحبه ، ويريد أن يملك على أن تحس به وأن تريده وتحبه أنت أيضاً . .

ها هو ذا بين يديك سر بتهوفن كله : كان في مقدوره أن يصمم أنماطاً كأفضل وأحسن ما تكون الانماط ، وكان في مقدوره أن يكتب موسيقى يبقى جمالها معك ولك طوال حياتك ، وكان في مقدوره أن يتناول موضوعات ناشئة كالعصا ، بل كأنشف ماتكون العصا ، ثم يصوغها صياغة بهيجة ممتعة بحيث تجد فيها شيئاً جديداً كلما استمعت اليها ولو استمعت اليها مائة مرة . . وبالاختصار في مقدورك أنت أن تقول فيه كل مايمكنك قوله في أعظم مؤلفي الانماط الموسيقية قاطبة ، ولكن خاصيته المميزة ، العلامة التي تجعل بتهوفن يختلف عن الآخرين كلهم ، هي قدرته على أحداث الاضطراب في نفوسنا ، قدرته على فرض مزاجه الجبار علينا

غضب برليوز (١) غضبا شديدا من موسيقى فرنسي
عجوز أعرب عن الانزعاج والاضطراب الذي يبعثه فيه
بتهوفن بقوله أنا أحب الموسيقى التي تهددني وتدغدغني
حقا ان *J'aime la musique qui me brase.*

موسيقى بتهوفن لاتهدد ولا تدغدغ بل هي الموسيقى
التي توقظك من سباتك وتستفزك للوقوف على قدميك .
أما الحالة النفسية الوحيدة التي تجعلك تصدف عنها ،
فهي عندما تشعر بالرغبة في أن تترك لحالك

إذا ما أدركت ذلك ، فستمكن من أن تتخطى القرن
الثامن عشر وما فيه من فرق موسيقى الرقص القديمة التي
عفى عليها الزمن (وبهذه المناسبة أقول ان فرق الجاز
هي نفسها فرق الرقص القديمة مصطبغة بالصبغة
البتهوفينية) ، ولن تفهم موسيقى بتهوفن فقط ، بل كل
ما هو أشد عمقا في الموسيقى التي جاءت بعد بتهوفن أيضا .

(١) L.H. Berlioz ١٨٠٢ - ١٨٦٩ المؤلف الموسيقي الفرنسي

شوفاجنز - كنز الراين

دعنى أفترض هنيهة أنك فتاة شابة حسناء : ولتحاولى معى أن تتخيلى نفسك فى تلك الشخصية قاطنا فى كلوندايك (١) منذ خمس سنوات مضت . المكان يغص بالذهب النضار . اذا قنعت بمشاهدة الذهب وتركته حيث هو كما يترك العقلاء ازهار الحديقة فلا يقطفونها - مكتفية منه ، ببساطة تامة وبروح نقية ، بمشاهدته والتمتع بلونه وبريقه وأصالته وقيمه الغالية ، فلن يضار أحد بحصولك على هذه المتعة . ومادمت فى هذه الحالة النفسية ، فإن العصر « الذهبى » أو الفردوس الأرضى يبقى ويدوم

والان لنفرض أن رجلا أقبل ، رجلا ليس للعصر

(*) من كتاب الفاجنرى الكامل The Perfect Wagnerite طبعة كونستابل وشركاه لندن سنة ١٩٢٣ وتحتوى على أربع مقدمات للطبعات السابقة وكانت الطبعة الاولى سنة ١٨٩٨

(*) Rheingolde الحلقة الاولى من رباعية فاجنر أوبرا خاتم الاقزام أو Neblüng! Ring وتمثل فى أربع ليال متتالية أما الحلقات الثلاث الأخرى فهى : الفالكيرى - سيجفريد - الليل يرخى سدوله على الآلهة !

(١) Klundyke منطقة فى شمال كندا كانت محط رجال الباحثين عن الذهب فى أواخر القرن الماضى وقد نضب الان معينها من الذهب

« الذهبى » اى معنى عنده ولا يحس احساسك بالفردوس الارضى ، ولا يملك القوة التى تجعله يعيش فى العصر الحاضر ، وبالاختصار رجلا تستحوذ عليه الرغبات والشهوات والمطامع العادية كأكثر من تعرفينهم من الرجال . افترضى وأنت الشابة الحسناء ، أنك أفشيت لذلك الرجل سرا تعرفينه وحدك : انه لو قطف زهرة هذا الذهب الوهاج ثم صهره ثم حوله الى نقود وأموال فسوف يعمل ملايين من الرجال تحت سوط الجوع الخفى ، فوق ظهر الارض وتحت ظهر الارض ، بالليل وبالنهار ليكدسوا المزيد من الذهب له وحده حتى يصبح الرجل سيد العالم ! ولكنك سرعان ماتبينين أن هذا المشروع لن يغريه كثيرا كما تتصورين لانه يتطلب أولا بعض المشقة البغيضة الى نفسه ، ثم لأن هناك شيئا آخر يرغب فيه ويشتهي بأقوى مما يرغب فى الذهب ويشتهي شيئا فى متناول يده لا يتطلب مشقة ولا بغضا : ذلك الشيء هو أنت نفسك . فما دام فؤاده مشغولا بحبك فالذهب لا يعنيه ولا كل ما يعنيه الذهب . ومن ثم فالعصر «الذهبى» يبقى ويدوم . غير ان عملية المفاضلة بين الحب والذهب ليست وقفا عليه وحده . فربما كان الرجل قميئا دميما بغضا شحيحا ثقیل الظل لا تميل اليه نفسك ، ومشاعره وعواطفه التى يبدىها نحوك ، ربما بدت لك سخيفة مضحكة تدعو الى الاحتقار . فى هذه الحالة قد تصدینه عنك صدودا وتذلینه امر الذل وتخيبين أمله فيك خيبة كبرى . ماذا يتبقى له الا أن يلعن الحب الذى لا يمكنه الحصول عليه ، وان يتحول الى الذهب بقلب متحجر وضمير لا يعرف الندم ؟ ومن ثم يذهب هو بعصرك الذهبى ويتركك تندين جماله المفقود وصفاءه وتقافته .. وخلق البال الذى لن يعود ..

وفى تلك الاثناء يكون ذهب كلوندايك قد وجد طريقه الى مدائن العالم وعواصمه الكبرى . ولكن المحنة القديمة ما فتئت تتجدد وتكرر باستمرار بل انها تتوالد وتتكاثر: محنة الرجل الذى يعرض عن كل ماهو نافع وخلاق من ألوان النشاط البشرى التى تدعم أركان الحياة حيث يمكن أن تنمو أشرف وأسمى طاقات الانسان ، يعرض عن ذلك ليكرس نفسه وكل جوارحه لجمع الذهب وتكديسه . . واقعا تحت تأثير حلم سحرى نشوان ، بأن يتسلط على ما فى الذهب من قوى بلوتونية سفلية (١) وأن يجد الذهب دائما طوع يمينه مستجيبا للمستته . ولكن الذين يقدمون على التضحية بالحب طواعية على هذا النحو . . هم قلة من الناس . فليس من السهل قمع الدوافع الانسانية السامية واعتبارها دوافع شاذة متحررة الا بعد أن تتدعم بسلطة المال البلوتونية ، وتصبح ثابتة الاركان بحيث ينكر على الانسان كل شئ حتى رغباته البسيطة البريئة ، فلا يستطيع اشباعها الا بعد أن يشتريها بالذهب ، هذا أو يكون نصيبه الذل والمهانة والحرمان - عندئذ فقط يضطر ذوو النفوس النشيطة والهمم العالية الى بناء حياتهم كلها على تل من الثروات والاموال - تل من الذهب . وعلى هذا النحو سارت بنا الامور ، كأنه القدر المحتوم . اما كيف حدث ذلك فواضح كل الوضوح للذين لديهم القدرة على فهم مايدور حولهم فى مجتمعاتنا البلوتوقراطية (٢) ، وفى كبريات عواصمنا ومدننا الحديثة . . . لو تأملوا

(١) Plutonic نسبة الى « بلوتو » اله القوى السفلية (ما تحت الارض) ، الجهنمية فى أساطير الرومان القدماء . وهو واهب الثراء والبركات النابعة من جوف الارض
(٢) Plutocracy حكم الاغنياء

المشهد الاول

ذلك هو موضوع المشهد الاول من أوبرا كنز الراين .
فبينما أنت جالس تنتظر رفع الستار تلتقط أذنك فجأة
لحنا أرضيا مندفعاً من الاعماق ، أعماق نهر جبار . وإذا
باللحن ينجلي ويتضح أكثر فأكثر ، وتجد نفسك كأنك
تقترب رويدا رويدا من سطح الماء ، ويقع بصرك على
الاضواء المنعكسة من صباب الماء الأخضر وفقاعيته المتألقة
وهي تتفلت هنا وهناك ثم يرتفع الستار وترى عيناك
ماسمعه اذنك : أعماق نهر الراين وسمكات ثلاث غريبة
النظرة ، مسحورة ، أشبه بحوريات الماء وهن يغنين ويمتنعن
أنفسهن متاعاً جميلاً . ولا يتغنين بأغاني الملاحين (١) ولا
ينشدن أناشيد الملاحين (٢) التي تدور حول لوريللي (٣)
عذراء الراين ، بل كن يدندن بأى هراء يخطر على بالهن
وينسجم مع وقع سباحتهن ، ورقص الماء من حولهن ، انه
العصر « الذهبى » . أما البقعة التي يجذب اليها حوريات
الراين فكتلة هائلة من الذهب الوهاج هي كنز الراين الذى
يحملن له كل تقدير - تقدير لا علاقة له على الاطلاق بقيمته
التجارية - لجماله الباهر وسنائه الذى يخطف الابصار .
وفى التو واللحظة ينكشف بريق الذهب لان الشمس لم
تعد تضرب بأشعتها فى أعماق الماء

وسرعان ما يظهر شيطان قمىء مسكين : قزم بائس
يأتى متلصصاً عبر الصخور الزلقة الرابضة فى قاع النهر -

Ballads (٢)

Barcarolles (١)

(٣) Lorelei عذراء الراين التى تقول الاسطورة الجرمانية انها
بعد ياسها من حبيبها القادر فلانفت بنفسها فى النهر . وكان شبحها
يظهر للملاحين على صخرة فى وسط الراين وهى تمشط شعرها وتغنى
وتغرى الملاحين لتهلكهم على الصخور . وكل من وقع بصره عليها
يفقد عقله أو بصره ، وكل من استمع الى غنائها يظل هائماً على وجهه
الى الابد

مخلوق فيه من الطاقة ما يجعله قويا في البسطن غنيا في
العاطفة ، ولكن فيه من ضيق الافق وقصور الذكاء ما يجعله
وحشا أنانى الخيال : أى أنه أغبى من أن يدرك أن مصلحته
الشخصية لا يمكن أن تقاس الا كجزء من مصلحة العالم ،
ممتلىء حتى حافته بالقوة الوحشية الفاشمة بحيث
لا تستطيع قبضته أن تمسك بشيء حتى ولو كان مكسبه
الشخصى نفسه . مثل هؤلاء الاقزام معروفون في لندن
ومنتشرون فيها بكثرة . ها هو ذا يقبل وفى داخل نفسه
يعتمل باعث قد يكون مثمرا : لقد جاء باحشا عن شيء
يفتقده فى نفسه ، باحشا عن الجمال وخفة الروح والخيال
والموسيقى . ولما كانت حوريات الراين يمثلن فى عينيه كل
هذه المعانى فقد ملأته رؤيتهن بالامل واللهفة والحنين ، ولم
يراجع نفسه لحظة واحدة ، فى انه لا يملك ما يقدمه لهن ،
لا يملك شيئا أى شيء يرغب فيه . لم يفكر فى هذا الامر
لان ضيق افقه الطبيعى جعله عاجزا عن أن ينظر الى أى
شيء من الزاوية التى ينظر بها اليه أى شخص آخر .
وهكذا - وبكل بساطة - يعرض نفسه عليهن كعشيق .
ولما كن خاليات البال من أمثال هذه الامور ، لانتمائهن الى
عناصر الكون الاولى ، كن مجرد كائنات شبه حقيقية .
وهن فى ذلك يشبهن كثيرا الفتيات الصغيرات العصريات .
ويرفضن رغبته فى الحياة ومطلبه فى الحب لان القسزم
المسكين صدم احساسهن بالجمال الجسمانى وخالف
مفهومهن الرومانسى للبطولة لانه كان دميما ثقيلا الظل
جشعا ومثيرا للضحك والسخرية ، وهكذا يهزان به
بقسوة ، بل بفضاعة . يتظاهرن بالوقوع فى غرامه من أول
نظرة ثم يتفلتن عنه مبتعدات ، عابثات به شر العبث ،
والقن على المسكين اكواما من النكات والمهانات حتى خرج
عن طوره من القضب والكمد ، ثم ينسين كل شيء عنه

عندما يبدأ الماء من جديد يتألق في أشعة الشمس ويهكس الذهب سناءه وروعته . فيتركته وحيدا ليستفرقن في صلاة نشوى لكنزهن الثمين ! ومع أنهن يعرفن جيدا مغزى حكاية كلوندايك فلم يشعرن بأى خوف من أن يفتصب القزم الذهب منهن ، لأن الكنز لن يدعن لاحد حنث بقسم الحب ، ولم يأت القزم اليهن الا ساعيا مخلصا وراء الحب . غير أنهن نسين أنهن قد سممن مسعاه بسخريتهن وقتلن رغبته بانكارها عليه ، وانه الان وقد أصبح موغر الصدر أيقن من أن الحياة لن تمنحه شيئا لا يستطيع انتزاعه منها بالقوة ، بالقوة البلوتونية ، قوة المال السفلية . ان الموقف هنا هو بالضبط كموقف رجل فقير خشن من العوام الاجلاف ، تقدم الى أحد النوادي الارستقراطية فعرض نفسه عليهم يريد أن يحتل مكانا بينهم ، فاحتقره القوم هناك ، وأذلوه وأهانوه وعرفوه انه لايمكن أن يطمع في يوم من الايام ان يرغم هذا المجتمع الارستقراطي على الركوع عند قدميه الا اذا كان مليونيرا واشترى لنفسه من قلب هذا المجتمع زوجة حسناء كاملة الرفاهية والتربية والتهذيب . لا خيرة له في الامر : فهو يقسم بقسم الحب كما يقسم به الالاف منا كل يوم . وما أن يصبح الكنز في قبضة يده ، حتى يختفى في الاعماق تاركا ساحرات الماء يصرخن ويولولن بلا جدوى : « أوقفوه ! امسكوا اللص ! » بينما يبدو النهر كما لو كان قد غرق في الظلام وأخذ يغيب عن أنظارنا — ونصعد نحن رويدا رويدا من الاعماق الى فوق — الى مملكة السحاب

والان ترى أية قوة في الدنيا يمكنها أن تقف في وجه « البريك » — قزمنا — بعد أن تقمص شخصيته الجديدة . . . شخصية البلوتوقراطي الحقود ؟ وسرعان ماينهمك في استغلال قوة الذهب فيحكم على قطعان غفيرة من زملائه

الأقزام بأن يكدحوا ويشقوا كالعبيد فوق ظهر الأرض
وتحت ظهر الأرض يلهب ظهورهم سوط الجوع الخفى
ويدفعهم دفعا الى العمل . وهم لا يرون سيدهم أبدا أكثر
مما يرى ضحايا « الأعمال الخطرة » فى مجتمعنا ، حملة
الاسهم الذين يبدو أثر سلطانهم مع ذلك ملموسا وظاهرا
للعين فى كل مكان يسوق ضحاياه الى الهلاك سوقا . ان
الثراء الذى ينتجونه بعملهم يصبح قوة اضافية تزيد من
فقرهم واملاقهم . وبقدر مايسرعون فى جمع المال يتسرب
المال من أيديهم الى أيدي سيدهم ليزيدوا من عتوه
وجبروته . ويمكنك أن ترى بنفسك هذا وهو يحدث فى
كل بلد متمدن حيث يكدح ملايين الرجال والنساء فى مرض
ومسغبة ليكدسوا المزيد والمزيد من الثراء لاقزامنا من
عينة « البريك » ، ولا يبقون لانفسهم الا المرض الفظيع
والعذاب الاليم والموت المبكر . وهذا الجزء من قصة
الاوربا ليس رمزيا ، بل حقيقى بصورة مروعة وواقعى
بصورة مروعة وعصرى بصورة مروعة ، والآثار التى
تركها على حياتنا الاجتماعية اثار فظيعة مدمرة لدرجة
أننا لم نعد نعرف طعم السعادة الا قليلا ، والقليل الذى
نعرفه منها لا يكفى لان تأبه له ، أو نخشى ضياعه . انه
الشاعر وحده بماله من بصيرة نافذة الى صميم الحياة ،
وما يجب أن تكون عليه الحياة ، الشاعر وحده هو الذى
يضيق ذرعا يمثل هذه الاوضاع . ولو كنا جنسا من
الشعراء لكنا جديرين بوضع حد لها قبل نهاية هذا القرن
الشقى (١) . ولكن بما أننا جنس من الأقزام ، الأقزام فى
أخلاقنا وطباعنا وتفكيرنا ، فنحن نعتبرها أوضاعا لا ثقة
جديرة بالاحترام وتدعو الى الارتياح ونسمح لها بأن
تضاعف شرورها فى جميع الاتجاهات . ولو لم تكن فى

(١) يكتب شو فى سنة ١٨٩٨

الدنيا قوة عليا ، تعمل ضد البريك ، لكن مصير الدنيا هو الدمار التام

ومثل هذه القوة موجودة فعلا . هناك على أية حال القوة الالهية ، وهناك ذلك الشيء الغامض الذى نسميه الحياة ، الحياة التى تنظم نفسها فى جميع الاشكال والكائنات الحية . الطيور والوحوش والخنافس والاسماك ، ثم تسمو منها الى تلك المعجزة الانسانية التى تتمثل على هيئة اقزام ذوى مكر ودهاء أو فى هيئة عمالقة كادحين ذوى عضلات مفتولة وقدرة على مواصلة الكد والكدح راغبين أبدا فى شراء الحب والحياة لا باللعنات العدمية والاستنكارات الانتحارية ، بل بالعمل اليدوى الصبور لخدمة قوى عليا أرقى منهم . وهذه القوى العليا بدورها تتمثل فى هيئة أدعى الى مزيد من العجب ، هيئة الأفذاذ النادرين قد يسمون بالمقارنة بمن تحتهم ، آلهة ، أى مخلوقات قادرة على التفكير ، مخلوقات تمتد أهدافها بعيدا الى ما وراء اشباع الشهوات الجسمانية والعواطف الشخصية ، لانهم يدركون ان العالم لا يمكن أن ينهض من وهدة العبودية الا باقامة نظام اجتماعى على أساس من الروابط المشتركة التى تتفرع كلها من عقيدة أخلاقية واحدة . ولكن كيف للقوة الالهية ان تقيم هذا النظام فى عالم من العمالقة الاغبياء فارغى العقول الذين لا يسعون الا لتحقيق أغراضهم الشخصية المحدودة ولا يمكنهم بحال أن يفهموا الاهداف الالهية ؟ وهكذا وجدت القوة الالهية نفسها وجها لوجه أمام الغباء ، فكان عليها أن ترضى بحل وسط . ولما كانت غير قادرة على أن تفرض على العالم قانون الفكر الخالص ، اضطرت الى تطبيق قانون آلى يتألف من بنود ووصايا وعقوبات وحشية صارمة تقضى على العصاة وتبيدهم . وبالرغم من كل العناية

والحرص والدقة التي صيغت بها هذه القوانين وطبقت ، بحيث كانت تمثل في لحظة اصدارها اسمى فكر وارقاه لدى الذين صاغوها وشرعوها ، الا أن هذا الفكر لا يكاد ينقضي عليه يوم واحد حتى يكون قد نما وتطور واتسع بنمو الحياة وتطورها واتساعها بغير توقف . واذا بقانون الامس يتقاصر عن فكر اليوم شكلا ومضمونا . ومع ذلك ما القول اذا ما جاء مشرعو ذلك القانون وواضعوه من اصحاب المقام السامى فانتهكوه وخرقوه قبل أن يبلغ من العمر أسبوعا ، ويضربون بأنفسهم المثل في الخروج على القانون ؟ انهم بذلك يقضون القضاء المبرم على كل ماله من هيبة على رعاياهم ، أنهم بذلك يحطمون السلاح الذى صاغوه وصقلوه ليرسوا به قواعد الحكم بما فيه مصلحتهم . وعلى هذا فقد فرض المشرعون منذ البداية على أنفسهم أن يحافظوا من كل بد على قدسية القانون وان يتمسكوا بحرفية القانون وحصانة القانون حتى ولو لم يعد القانون يمثل فكرهم أو ينسجم معه ، وهكذا سارت بهم الامور حتى وجدوا انفسهم فى نهاية المطاف منخرطين فى تلافيف شبكة معقدة لا نهاية لها من اللوائح والبنود والتشريعات - لم يعودوا يؤمنون بها البتة ، وان كانوا مع ذلك يضيفون عليها من القداسة والحصانة - بحكم العادة والتقاليد ما يجعلها مرهوبة الجانب ويفرضون على من ينتهكها من العقوبات ما يجعل من المتعذر عليهم هم انفسهم الفكك منها . على هذا النحو التجأت القوة الالهية الى القانون ، وأدى بها ذلك الى أن كلفها القانون نصف حريتها ونصف استقلالها ونصف شرفها - وسيضطر كبير الالهة لكى يكتسب لنفسه سلطة زمنية ، الى أن يقتلع بيده احدى عينيه رمزا لذلك كما سوف نرى - ثم أخذت فى نهاية الامر تتطلع تطلعا خفيا وتحن حينا مستترا الى لحظة قدوم قوة اسمى

منها وارقي : قوة تنهض بعبد تدمير امبراطوريتها القانونية
الزائفة واقامة جمهورية حقيقية مكانها ، جمهورية
الفكر الحر ..

وليست هذه بحال ، هي العقبة الوحيدة التي تعترض
عالم القانون ، فهناك القوة الفاشمة وضرورة شرائها لتنفيذ
القانون ، ثم هناك ضرورة ارغام اكرثية الرعايا على احترام
السلطة التي تستخدم هذه القوة الفاشمة . ولكن كيف
السبيل الى غرس مثل هذا الاحترام في الرعايا اذا كان
الرعايا عاجزين عن فهم افكار مشرع القانون ؟ واضح أن
هذا لا يتيسر الا بجعل السلطة التشريعية مرتبطة في اذهان
الرعاية بمظاهر العظمة والهيبة والفخخة بحيث يكون لها
أكبر وقع في مشاعرهم ، وتقذف بالرهبة في أفئدتهم .
وبالاختصار ينبغي على الاله الذي أصبح مشرعا للقوانين ،
أن يصبح في نفس الوقت عاجلا كبيرا او ملكا ذا صولجان .
فاذا تعذر على عامة الناس أن يعرفوه كشخصية أرقى منهم
منزلة في مجال الفكر والحكمة ، فليعرفوه اذن كشخصية
أرقى منهم في مجال الثراء والبذخ ، وليسكن القلاع
المنيفة وليلبس الذهب والقطيفة والمخمل الأرجواني .
وليولم الولائم الحافلة وليقود الجيوش الجرارة ولتوضع
في يده سلطات الحياة والموت ، بل ليقض على الارواح اما
بالخلاص واما باللعنة الابدية بعد الموت . لابد من شيء
يعمل في هذا الصدد ، بدون فساد أو افساد أي بشرط
أن يبقى العصر الذهبي ويدوم . وفي هذا قد لا تجد
آلهتك لهم حيلة مع الاقزام فليجأوا اذن الى العمالقة
الامناء الذين يقدمون لك عمل يوم مقابل أجريوم وليحملوهم
على تشييد قلعة شامخة تكون مقرا للقوة الالهية ، قلعة
كاملة من كل شيء : فيها قاعة كبرى ، كنيسة ، برج ،
ناقوس ، دوار للاهالي الذين سينمو عددهم ويتكاثرون من

حول القلعة ذات الكنيسة فى سلام وامان ، وبقاء هذا كله ودوامه على أية حال مرهون ببقاء العصر الذهبى ودوامه . وما ان تفلت القوة البلوتونية - قوة المال السفلية - من عنانها حتى يخطو « البريك » - القزم الحاقد المحروم من الحب الى الميدان بملايينه الفاسدة المفسدة . وعندئذ ، تواجه الاله خطر الفناء . فما دام « البريك » - ومعه سوط الجوع الخفى - قادرا على ارغام الاقزام على العمل وقادرا على شراء خدمات العمالقة ، فهو قادر على أن يطفىء أنوار العصر الذهبى كلها ويكشف مظاهرها الزمنية ، وعلى أن يجعل من نفسه سيدا للعالم الذى يمكن الآلهة - بعقولها المتفوقة - من الاستيلاء على ذهبه . وهذه هى محنة الكنيسة فى يومنا هذا ، وهى بعينها المحنة التى تسبب فيها « البريك » واستغلها لصالحه فى أعماق أعماق نهر الراين

المشهد الثانى

من قاع النهر ، ترتفع بنا الموسيقى فى سحب وغيوم بعضها فوق بعض ، وفى نهاية المرتقى نأتى الى خلاء عريض رائق الجو - مرعى مترامى الاطراف حيث يرقد « ووتان » الاله الآلهة وزوجته « فريكا » ، نائمين . وسوف تلاحظ على الفور أن « ووتان » فقد احدى عينيه ، وستعرف حالا انه اقتلعها بنفسه طواعيه كثرمن كان لابد من دفعه لزواجه « بفريكا » التى قدمت له بدورها دودة من سلطات القانون كلها . ويقع المرعى على حافة احد الجداول السريعة الانحدار ، والى ما وراء الجدول ، يتعالى شامخا على المرتفعات البعيدة ، مقر الاله الكبير ، وهو قلعة منيفة هائلة شيدت مؤخرا لتستخدم كمقر لعرش الاله الاعور وزوجته الحاكمة بأمرها فريكا . ولم يكن « ووتان » قد

شاهد بعد هذه القلعة الا فى أحلامه : فقد فرغ من بنائها له للتو والساعة ، عملاقان من العمالقة وهو مستغرق فى نومه . واذا بحقيقة القلعة تتبدى أمامه لأول مرة عندما توقظه فريكا من سباته . وفى تلك المدينة الملوكية ومن خلالها ، عليه أن يحكم مع زوجته هؤلاء العمالقة الاذلاء الخانعين الذين يملكون عيونا فاعرة مبهورة تحمق فى القلاع العظيمة التى شيدتها أيديهم بتدبير الآله ومن وحيه، ولكنهم لا يملكون العقول التى تدبر وتخطط لهم قلاعا يسكنونها هم ، او تكشف لهم سر الألوهية المكنون . اما بصفته الها — فقد قدر له أن يكون عظيما وجبارا وآمنا ، ولكن قدر عليه أيضا أن يكون خاليا من العواطف مبرءا من الانفعالات محايدا لا ينحاز قط أو يميل ، لان القوة الالهية اذا كان لها أن تتعاش مع القانون فيجب أن تخلو من أى ضعف أو ميل مع الهوى أو اعتبار للأشخاص . فتلك صفات وتوافه كالحلوى الرخيصة ينبغى أن تترك للعمالقة الاذلاء الاغبياء لتجعل كدهم وكدهم حلو المذاق فى افواههم ، ثم كان على الآلهة بعد ذلك أن يدفعوا لسلطان الاوليمب نفس الثمن الذى دفعه القزم للسلطة البلوتونية ، سلطة المال السفلى ..

وقد نسي « ووتان » ذلك فى غمرة احلام العظيمة التى ساورتها واستغرقتة . ولكن فريكا لم تنس . فالشيء الذى يشغل بالها الآن ، هو الثمن الذى اتفق ووتان على دفعه، وانه قد تعهد فى ذلك اليوم بالذات ، بأن يسلم للعمالقة اخت فريكا الآلهة « فريا » ومعها تفاحات الحب الذهبية . وتنهال « فريكا » على « ووتان » تقريرا ولوما لانه بكل أنانية نسي كل شيء عن تعهده ، وفى اثناء ذلك تتبين أنه مثلها هو الآخر راغب عن اتمام الصفة والوفاء بعهده متكلا وهو مطمئن على قوة عالمية أخرى تعهدت بمساعدته فى خداع

العمالة وحرمانهم من مكافآتهم - تلك هى قوة الاكذوبة (ومن قبل قال فرديناند لاسال ان للاكذوبة فى أوربا دولة وسلطانا) (١) وهذه القوة لا تكمن فى ووتان نفسه بل فى اله آخر غيره ، اله كان قد انتصر عليه من قبل اسمه «لوكى» اله الذكاء والجدل والوهم والحيلة . وقد وعده لوكى بأن يحرره من العقد الذى التزم به وأن يحتال له على العمالة ويخدعهم ، ولكن لوكى لم يصل بعد لانجاز ما وعد . حقا ! لم لا تخذل الاكذوبة « ووتان » - كما ألمحت اليه « فريكا » بمرارة - فالخذلان هو جوهر الاكذوبة وروحها

وسرعان ما أقبل العملاقان ، وتهرب « فريا » محتمية « بووتان » . وكانت مقاصد العملاقين شريفة تماما ، ولم يخامرها شك فى اخلاص الاله وشرفه . فها هما قد أوفيا بنصيبهما من العقد حجرا من فوق حجر ، وشيدا القلعة بابا وبرجا - وتم انجاز ذلك باخلاص تام وفقا لتصميم ووتان وبفضل عملهم الجبار وكدهم الشديد . لقد جاء امن غير شك ليقبضا اجرهما المتفق عليه : « فريا » وتفاعات الحب الذهبية . وهنا وقع ما بدا لهما كشيء لا يمكن ان يصدق أو أن يتصور

بدأ الاله الكبير يتمحك ! وليس فى العمر كله لحظة أشد فجیعة من اللحظة التى يكتشف فيها الرجل العادى الدليل ، الطاعم بعمل يده - بعد أن ترك كل المسائل العليا لمن هم أفضل منه وأعلى مقاما ، واثقا فيهم ثقة باطنية خالصة ، محترما اياهم كأشخاص جديرين بالاحترام حتى لقد قبل عن طيب خاطر وظيفته المتواضعة التى يراها لائقة

(١) فرديناند لاسال مؤسس الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى المانيا فى منتصف القرن الماضى . وعبارته التى يتمثل بها :

The lie is an European Power

بمقامه المتواضع فى الحياة ، وهى أن يعفيهم من وعشاء العمل اليدوى الكادح وما فيه من آلام وخشونة ومشقات — بعد ذلك كله يكتشف لأول مرة أن سادته «وتاج رأسه» ششاشون نصابون ، جشعون طماعون ، ظالمون غادرون . وترسل الصدمة الهائلة فى رأس أحد العملاقين شعاعا ناقبا من الفكر يكشف حجب المستقبل ، فيمنحه ذلك فصاحة مؤقتة وينطلق لسانه . وفى تلك اللحظة يرتفع العملاق فوق مستوى عملاقيته الغبية ويلقى أمام الإله الكبير ابن النور ، بانذار خطير بأن كل ما يملكه الإله من سلطان ورفعة وربوبية وملوكية ، يواجه مصيرا حاسما: فاما أن يصمد له واما أن يتهاوى من القواعد . وأن محك ذلك هو ما تبقى لديه كمشرع شريف من عظمة وعدل وحيدة لاتميل . غير أن «ووتان» الذى كانت شخصيته كمشرع زائفة كل الزيف ، وتكذب طبيعة الالهية كل التكذيب ، يرفض هذا الانذار باحتقار . وفى الحال يتلاشى الشعاع الكاشف من رأس العملاق ويضيع فى غمامة المذلة الحقيقية

وفى وسط النزاع ، يقبل «لوكى» أخيرا معتذرا عن تأخيره بمسألة هامة احتجزته مسألة وعد بعرضها على «ووتان» . وعندما يلح عليه «ووتان» بأن يركز التفاته على المسألة الراهنة المستعجلة أى أن يخلصه من ورطته — لم يجد لديه ما يقوله الا أن الحق واضح تماما وانه مع العمالقة لامراء . لقد شيدوا القلعة حسب الاتفاق، وببنفسى اختبرت كل حجر فيها ، ووجدت الذى تم عهدا من الدرجة الاولى اتقانا وكمالا . ليس ثمة شئ يمكن عمله الا أن يدفع لهم «ووتان» الثمن المتفق عليه ، بتسليم «فريا» للعملاقين . وثارت ثائرة الإله وأعلن أنه لم يوافق على الصفقة الا بعد أن وعده «لوكى» بالعثور على مخرج له منها . ولكن «لوكى» يقول له : لا لقد وعدت بالعثور

على مخرج من هذه الورطة - لو كان لمثل هذا المخرج وجود ، ولكن لم أعد بايجاد مخرج حيث لا مخرج . لقد ظل يطوف في جميع أنحاء الارض بحثا عن كنز عظيم يفتدى به «فريا» ويستردها من العمالقة ، ولكنه لم يجد في الدنيا كلها شيئا يغري الرجل بالتفريط في امرأته التي يحبها . وهذا - بالمناسبة - يذكره بالمسألة التي وعد بعرضها على «ووتان» . لقد اشتكت له عذاري الراين من أن «آلبريك» سرق منهن الكنز ، وهو يذكر هذه الواقعة لأنها هي الاستثناء العجيب للقانون الكوني العام الذي ينص على أن الحب لا يشتري بالمال ، ذلك أن سارق الكنز هذا كان قد أقسم حاثا بقسم الحب للحصول على الكنوز الاسطورية في الامبراطورية البلوتونية ، وعن طريقها يسيطر على العالم

وما أن ختم «لوكي» قصته حتى انحنى العمالقة وانكمشوا وتضاغروا حتى أصبحوا أقصر قامة من القزم . ان آلبريك لم يحث بقسم الحب الا عندما انكر عليه الحب وحرّم عليه ، فاستخدم الحب أداة يفتال بها احترامه لنفسه بقسوة ووحشية . غير أن العمالقة وقد وجدوا الحب في متناول ايديهم فعلا ، «فريا» وتفاحاتها الذهبية ، اذا بهم يعرضون التخلي عنها في مقابل كنز «آلبريك» . لاحظ أن الكنز وحده هو ما يريدون . فليست لديهم أحلام عنيفة للسيطرة أو للتسلط على من فوقهم أو لصياغة العالم وفقا لاي فكرة من ابتداعهم . فهم ليسوا بأذكاء أو طموحين : انهم بكل بساطة يشتهون المال - ذهب آلبريك - هو مطلبهم . أما الذهب واما أن يحملوا معهم «فريا» حسب الاتفاق ، وقد حملوها الان فعلا كرهينة ، تاركين ووتان يفكر في انذارهم النهائي وبذهاب فريا ، تدبل الالهة وتهبط عليهم الشيخوخة : لقد تبينوا الآن أن «فريا» وتفاحاتها الذهبية التي اضاعوها

فى تلك الصفة الخاسرة ، أصبحت بالنسبة لهم مسألة بقاء أو فناء . فحتى الآلهة لا يمكنهم أن يعيشوا بالقانون والقوة الآلهية وحدها مهما شمخت قلاعهم ودامت روعتها الى الابد . لو كى وحده هو الذى يقف جانبا غير متسائر بشىء : الاكذوبة بكل أعاجيبها الماكرة ، يومضاتها وتقلباتها وسرابها المتنقل ، هى مظهر خارجى مجرد ليس له جسد أو مضمون ولا يحتاج الى طعام . ماذا على «ووتان» أن يصنع؟ ويبدو الجواب على هذا واضحا كل الوضوح أمام «لو كى» الذى يقول بصراحة تامة : يجب أن ننهب ذهب آلبريك . ولا يقف دون ذلك بالطبع الا المانع الادبى وحده . . . «آلبريك» على كل حال مخلوق مسكين أعشى البصر قمىء ساذج يستطيع أى اله أن يتفوق عليه فى حدة البصر وتستطيع أية اكذوبة ان تتفوق عليه فى المكر والدهاء . اذن : نزولا . . نزولا الى القاع ! «ووتان» و«لو كى» يهبطان الى المنجم ، فى جوف الارض ، حيث يكدر عبيد «آلبريك» أكوام الثراء من أجله تحت نير ذلك السوط الخفى . . سوط الجوع

المشهد الثالث

هذا المكان الكئيب القبض ليس من الضرورى أن يكون منجماً : قد يكون مصنعا من مصانع الكبريت بما فيه من فوسفور أصفر ، وعظام العمال التى نخرها الفسفور خاصة عظام الفك ، وبأرباحه الكبيرة لحملة الاسهم ، وبالعدد الكبير من رجال الدين الحاملين لهذه الاسهم ، أو قد يكون مصنعا للرصاص الابيض أو أحد المعامل الكيميائية أو مصنعا للفخار أو حوش ورشة للسكك الحديدية أو دكان ترزى أو مفصلة مندأة ببخار الماء المختلط ببخار العرق والخمر أو مخبزا أو متجرا كبيرا أو أى محل

آخر من المحلات التى يضحى فيها بحياة الانسان وراحته
كل يوم لكى يتمكن مخلوق ما ، جشع وغبى من أن يركع
عند قدمى معبوده البلوتونى ويرتل صلاة مزهوه منتشيه
قائلا :

أحمدك اللهم ! جعلتنى آكل بينما يتضور الآخرون
جوعا

وجعلتنى أغنى بينما يبكى الآخرون ويعولون
مثل هذه النعم تفيض على من قبلك
كما لو كنت أنا - وحدى - محل عنايتك

وفى المنجم - فى جوف الارض - حيث تتردد أصدااء
المطارق والسندانات ممسكة بها أيدى الاقزام الكادحين كدح
التعاسة والشقاء لتكس أكوام الثراء لسيدهم ، عهد
«آلبريك» الى شقيقه «مايم» أو المعروف أكثر من ذلك
باسم « ميمى » بأن يصنع له خوذة يرتديها على رأسه .
ويدرك ميمى ادراكا غامضا أن تلك الخوذة سوف تنطوى
على قوة سحرية معينة . فيحاول الاحتفاظ بها ، ولكن
« آلبريك » ينتزعها منه ويريه - بعد أن جعله يدفع
الثمن غاليا - أن الخوذة هى القناع الذى تنكر به السوط
الخفى ، وأن من يرتديها يستطيع أن يظهر فى أى هيئة
يشاء أو أن يختفى تماما عن الانظار . وهذه الخوذة مع
ذلك - أداة مألوفة تماما نراها فى شوارعنا العصرية حيث
تتخذ بصفة عامة هيئة القبعة . فتحت القبعة العالية
يختفى الرجل أو يتنكر ليصبح واحدا من حملة الاسهم
ثم ليصبح فى مختلف الهيئات والاشكال : فالقبعة العالية
تجعله يبدو فى هيئة المسيحى الورع فاعل الخير المتبرع
للمستشفيات أو زوج صالح أو أب نموذجى أو مواطن
انجليزى فطن وعمل ومستقل التفكير أو فى غير ذلك من
الهيئات بينما الرجل فى حقيقة أمره ، طقلى يستحق

الرثاء ويعيش عالة على الصالح العام ويستهلك الكثير
ولا ينتج أى شىء ، لا يشعر بشىء ولا يعرف أى شىء
ولا يؤمن بشىء ولا يفعل الا كما يفعل سائر الناس أو لانه
يخشى الا يفعل كما يفعل سائر الناس أو على الاقل يتظاهر
بانه يفعل كما يفعل سائر الناس

وعندما يصل «ووتان» و «لوكى» يزعم «لوكى» أنه أحد
معارف «آلبريك» القديما . ولكن القزم لا ثقة عنده فى
هؤلاء الغرباء المتمدنين : فالجشع بغيريته لا يثق بالذكاء
أو بالثقافة حتى ولو ارتدت الثقافة رداء الشعر وخطرت
أمامه بصحبة القوة الالهية مع أنه يحسد الشعر على
روعته ويحسد القوة الالهية على هيبتها وجلالها . وينفجر
«آلبريك» فى وجهها بعاصفة رهيبة من التفاخر والتباهى
بالقوة التى أصبحت الآن طوع يمينه وملء قبضته .
ويجعل يخطط لهما الدنيا كما سوف تكون بعد أن تكتمل
له السيطرة عليها أى بعد أن تتبدل أجواؤها الوادعة
ووديانها ومراعيها الخضراء لتصبح دخانا أغبر وقذارة
ونفايات لفظتها المصانع ، وليصبح المجتمع قائما على
العبودية والمرض والدمامة والقذارة يخفف من وطأتها
الادمان على الخمر والعريضة وتحكمها عصا رجل البوليس
وبعد أن يحل الخراب بكل شىء ، ما عدا الاماكن الجميلة
والفتيات الحسان التى يشتريها بماله وفق هواه واشباعا
لشهواته الخاصة . . فى مملكة الشر هذه ، يرى «آلبريك»
الا وجود لقوة غير قوته ولا قيام لسلطان غير سلطانه . اما
هؤلاء الالهة بأخلاقياتهم وشرائعهم وعقولهم وثقافتهم
المرهفة ، فليذهبوا الى أسفل سافلين ولتنطو صفحتهم
بالموت جوعا وحرمانا الى غير رجعة . وهو يحذر «ووتان»
و «لوكى» أن يلقيامثل هذا المصير ، وتحمل تحذيره صرخة
تنطلق منه مهولة بشعة فيها من الخبث بقدر ما فيها من

الخشونة . ويستولى على ووتان حنق شديد يهز أعماق
أعماقه ، فهو لا يستطيع بعد ذلك ان يكتم اللعنات التى
تنفجر كالحمم فى داخله . ولكن «لوكى» يبقى جانباً
لا يتأثر بشيء : فليس لدى لوكى مشاعر اخلاقية ، فالحنق
والثورة من أجل الكرامة والشعور بالمذلة كلها مخافات
بالنسبة له كالحماسة والانفعال . بل انه ليرى فى الموقف
متعة فذة لا نظير لها ! و «لوكى» لا يخلو من لمسة المرح
وخفة الروح . ذلك أن القزم عندما حرك فى ووتان حميته
الاخلاقية ، قد أزال المانع الادبى الذى كان يزعمه من أن
يصبح سارقاً . الآن سوف يقدم «ووتان» على سرقة
القزم بلا وازع ولا مانع ولا ندم ، ألم يثبت لديه أن من
أسمى واجباته أن ينتزع هذه القوة من برائن هذه الايدي
الشريرة وأن يستخدمها بنفسه لصالح القوة الالهية ،
وهكذا يسمح ووتان للوكى بعد أن استند الى اسمى
الاسانيد الاخلاقية ، بأن يستخدم أسوأ ما فى جعبته من
حيل والاعيب

وبشئ قليل من التملق المقنع بالدهاء والمكر ، ينتهى
أمر «ألبريك» : يتظاهر «لوكى» بأنه بات يخشى جانبه
ويرتعد خوفاً من هيئته ، واذا بالقزم يبتلع الطعام بلا تردد .
ويتساءل لوكى كيف «ألبريك» أن يحترس من حقد ونقمة
الملايين من عبيده ، الا يحاولون - وهو نائم - سرقة الخاتم
المسحور رمز قوته الذى صمغاه من ذهب الراين ؟
فيجيب «ألبريك» مستهزئاً : تحسب نفسك ذكياً جداً ؟
ثم يتفاخر من جديد بما لخوذته المسحورة من خوارق
وأعاجيب . ويرفض لوكى ان يؤمن الا اذا رأى العين .
ولا يجد «ألبريك» ما يدخل السرور على قلبه من ان يجعله
يشاهد قواه الخارقة فيرتدى خوذته ويجعل نفسه فى
هيئة أفعى هائلة بشعة المنظر . ويشبع «لوكى» غروره

حتى الحافة عندما يتظاهر بأنه فقد صوابه من الروع ، ولكنه يتجاسر فيلفت نظره الى انه قد يكون من الافضل مع ذلك لو استطاعت الخوذة تحويل صاحبها الى مخلوق صغير دقيق بحيث يمكنه ان يختبئ وينسل في اصغر شق . وبكل سرور وبسرعة تامة يحول «آلبريك» نفسه الى ضفدعة . وفي لمح البصر ، يضع « ووتان » قدمه عليه . ويمزق « لوكي » الخوذة تمزيقا : ويكبتون القزم بالاغلال ويجرونه جر السجين عبر طبقات الارض السحيقة ، من الاعماق الى السطح ، الى المرعى الفسيح القريب من القلعة ..

المشهد الرابع

وهناك في القلعة ، يتعين على «آلبريك» ان يفتدى نفسه وحرية بدعوة عبيده وارقاته من الاعماق لكي يضعوا عند قدمي ووتان كل ما جمعه وكدسوه من الذهب . وبعد ذلك يطالب بحريته ، ولكن ووتان يتمسك بالخاتم أيضا . وهنا يشعر القزم - كما شعر العملاق من قبل - ان الركائز التي يرتكز عليها العالم تميد وتزلزل من قواعدها بعد ان يكتشف ان ما يتصف به من جشع ووضاعة وخسة ، تتصف بها أيضا القوة العليا ، الاسمى منه مقاما . قد يكون - في نظره - من العدل الطبيعي ان تعمل روح الشر اليائسة المحرومة من الحب على ابتكار مزيد من قوى الشر الخبيثة التي لا يستطيع ابتكارها احد حتى القوة الالهية نفسها - اما ان تلجأ تلك القوة الالهية الى نفس الاساليب فتسرف قوى الشر الخبيثة من روح الشر ثم تستخدمها بنفسها وتسلطها عليه ، فذلك انحراف شنيع تميد منه أركان العالم . ويتوسل الى ووتان ان يصفح عنه لاعتناقه الاثم وايمانه بالشر .. ويبدو توسله في مظهر رهيب مروع .

ولكن بلا جدوى ، ويستند «ووثان» مرة أخرى الى حميته الاخلاقية فيذكر «آلبريك» بأنه سرق الذهب من عذارى الراين ويقعد منه في مقعد القاضي العادل ، فارضا عليه أن يعيد المسروقات الى أصحابها . ولما كان آلبريك يعلم تماما أن القاضي سيأخذ المسروقات ويضعها في جيبه ، فقد نزع الخاتم من اصبعه . . . ويعود على الفور مرة أخرى فقيرا معدما كما كان عندما قدم متعثرا بين الصخور الزلقة في أعماق الراين ، ينهض مرة ليقع مرة أخرى

هذه حال الدنيا . ففي ماضى الايام كان الفارس من النبلاء المترفين يعتصر دم العامل المسيحي حتى يجف عوده ، وكان المرابى اليهودى يعتصر دم الفارس المترف حتى يجف عوده ، وكانت الكنيسة والدولة والدين والقانون ينقضون على اليهودى ليعتصروا دمه حتى يجف عوده ، ويرون في ذلك فريضة مسيحية واجبة الاداء . وعندما غرست قوات الجشع والحرمان من الحب حرايبها فوق اطلال انظمتنا الرأسمالية القدرة ، يرويها نظام خفى للملكية - الملكية التى تنهب الفقراء وتشوه وجه الارض وتفرض نفسها كلجنة كونية شاملة تصيب الجميع حتى الاسخياء والانساتيين منا - عندئذ يثبت الدين والقانون عجزهما عن اكتشاف فساد ذلك النظام لان طبيعتهما موجهة نحو الحياة والاقتصاد والمصلحة العامة وليست موجهة نحو الفساد والضياع والموت . فلم يحرصا على مصادرة قوى الشر بالشر ومقاومة الخديعة بالخديعة والعنف بالعنف مهما كان الزعم بأن ذلك فى سبيل الخير . وهكذا يقع المحذور : فبعد ان جعلت الكنيسة والقانون والعقل من سرقة الشعب قضية عامة بدعى ان سرقة الشعب هى فى سبيل الشعب ، ويررتها التبرر الانسانى ، اصبحت الكنيسة بصفة خاصة بصدمة زلزلت كيانها لان عدم

اخلاصها لنفسها أضر بها أكثر مما أضر بحليفها المتواطئين معها تلقائيا ، فبعد أن تجلل الكنيسة بالعار وتتلشى ثقة الناس بها ، ينقلب عليها القانون والعقل ، بل يوسعانها سلبا ونهبا ، وفى ذلك يلقون من لوكى كل معاونة وترحيب كما حدث فى فرنسا وإيطاليا مثلا (١)

ويعود العملاقان بالرهينة ، وما ان تبدى فريا للانظار حتى تدب الحياة فى القوة الآلهية وتخضر وتورق وتزهو من جديد . هاهو ذا الذهب جاهز للعملاقين . ولكن ما هذا الذى يحدث ؟ عندما حانت اللحظة التى يفارق فيها العملاقان فريا ، لم يعد الذهب يغريهما ويسيل لعابهما كما كان يغريهما ويسيل لعابهما من قبل ، واذا بهما يشعران بمرارة غصة وهما يخليان سبيلها . لا ، لن يخلياً سبيلها الا اذا جمعوا لهما من الذهب كومة هائلة تحجبها وتحجب جمالها عن عيونهما تماما - لن يخلياً سبيلها الا بعد أن تعلو كومة الذهب وتعلو حتى لا ترى عيونهما الذهب ولا شيء غير الذهب - أى حتى يقف المال بينهما وبين كل شعور انسانى . لم يكن هناك من الذهب ما يكفى لتحقيق هذا المطلب ، ويشرع لوكى مستخدما خبثه ودهاءه يجمع الذهب ويبسطه ، يعلو به ويهبط ، يكومه على هذا النحو أو ذاك ، ولكنه مهما فعل بالذهب ، فلن تزال هناك ومضة من بريق شعر فريا الذهبى تعبر من فوق الذهب فتلمحها عين العملاق « فافنير » ، ولا يجدون مناصا من أن يلقوا بالخوذة المسحورة على رأس الكومة لاختفاء هذا البريق عن عين العملاق . ومع ذلك استطاعت عين « فاسوليت » - توأم العملاق « فافنير » - ان تلتقط شعاعا من عين فريا من خلال

(١) لعل شو يعنى انقلاب الايديولوجية البرالية والعقلانية (وهى ايدولوجية البورجوازية) على الكنيسة والدين فى القرن الثامن عشر . وكانت فرنسا وإيطاليا مسرحا لها

شَقَّ في الكومة فأصبح عاجزاً عن التخلي عنها . ولم يكن هناك ما يسد الشق الا الخسائم ، وكان ووتان تواقاً الى الاحتفاظ بذلك الخاتم يحركه في ذلك جشع يضارع جشع البريك . فقال لا ، ولم يتمكن الآلهة الآخرون من زحزحته عن موقفه واقناعه بأن فرياً تساوى هذا كله وزيادة . فالحب عند كبير الآلهة ليس هو الخير الاسمى ، ولكن الخير الاسمى عنده هو السرور الشامل الذي يغرى جميع الكائنات بالعمل بحيوية متجردة ، فليس ثمرة قوة في الوجود يمكن أن يحنى ووتان رأسه لها ويعبدها الا قوة واحدة : قوة الحياة نفسها ، الحياة بمعجزاتها التي تتحقق كل يوم ، الحياة بإمكانياتها الالاهائية . وهكذا لا يرضخ « ووتان » ولا تلين قناته الا بعد أن يتناهى اليه صوت الارض الخصبة . . الارض أم الحياة ، فيبلغه بأن في صدرها المحتدم بالحياة تكمن بذرتهم جميعاً : الآلهة والاقزام والعمالقة والقانون والاكذوبة أو ما الى ذلك من الاشياء والكائنات ، وتكمن أيضاً بذرة شيء آخر لعله أن يكون ارفع واسمى مقاماً منه هو نفسه ، من كبير الآلهة : شيء سيحل محله ويقطع جميع الارتباطات والمحالقات وينهى جميع المعاهدات والصفقات ، التي كلفته حتى الآن احدى عينيه . وتنهض « أردا » أم الحياة الاولى من مرقدتها في قلب الارض تحذره وتنذره وتأمره بأن يتخلي عن الخاتم ويصدع بأمرها ، ويضم الخاتم الى كومة الذهب ، وتنقطع على الفور كل رابطة تربط العمالقين « بفرياً » ويتلاشى منهما كل شعور حتى بوجودها

ولكن أى قانون بقى لهذين العمالقين المسكينين الفبيين الكادحين ، ليحكم بينهما بعد أن أصبح على كل منهما أن يتنازل للآخر عن نصف الكنز ، الكنز الذي دفع كل منهما فيه الثمن كاملاً بتخليه عن « فرياً » ؟ . . واذا بهما يحكم

العادة المجردة ، يحتكمان الى الذهب ليُقضى بينهما ، غير
أن الذهب وقلبه مشرئب الى قوى اسمى منه ، يشيخ
بوجهه عن تلك القوى المنحطة الوضيعة . فيسوى العملاقان
الامر فيما بينهما كما يسويه ذئبان مختصمان . يصرع
«فافنير» أخاه بهراوته فيرديه قتيلا . وانه لشيء بشع
يراه ويسمعه أى انسان يعرف كم من الدماء سفكت في
الدنيا بهذه الطريقة نفسها وبأيدي كادحين في الارض
عوملوا بوحشية حتى صاروا هم وحوشا ، كادحين كانوا
أمناء وشرفاء ومخلصين حتى خانهم من فوقهم وغدروا بهم
واغتصبوا حقوقهم . وينطلق «فافنير» وحده بغنيمته ،
غنيمة التي لا فائدة له فيها قط . فليس لسديده من
الدهاء ولا من الطموح ما يجعله يقيم لنفسه امبراطورية
بلوتونية بها . كان يملكها لمجرد أن يحرم الآخرين منها .
ذلك هو الغرض الوحيد الذي أوحى به اليه الكنز . وهكذا
ذهب الى أحد الكهوف وجعل يكوم الذهب ويكوم في كومة
هائلة ، وحول نفسه بواسطة الخوذة المسحورة الى تنين
وكرس حياته لحراسة الكنز ، أى لان يكون عبدا له بقدر
ما يكون السجان عبدا لسجينه . ولقد كان خيرا له وأبقى
لو أنه القى به ثانية في الراين وحول نفسه الى حيوان
من اقصر الحيوانات عمرا ، حيوان يستطيع على الاقل أن
يستمتع بركضة يركضها في ضوء الشمس طليقا خالي
البال . ومع ذلك فطراز العملاق «فافنير» طراز عادى
ومألوف عندنا تماما ، ولا يثير دهشة أو غرابة . فعالمنا
متخمد بأشخاص يضحون بكل عواطفهم وبأجمل مشاعرهم ،
ويصرعون رفاقهم بجنون ووحشية من اجل المال ، فاذا ما
حصلوا على المال عجزوا عن الاستفادة منه - أقل فائدة -
وأصبحوا عبيدا له . وما اتعسهم من عبيد !

وسرعان ما تنسى الالهة «فافنير» وأمره ، في غمرة سرورهم

«بفريا» واحتفالهم بها . ويقفز «دونار» اله الرعد فوق
احدى القمم الصخرية ويدعو اليه السحب كما يدعو
الراعى قطعانه . وتلبى السحب نداءاته واذا به وبالقلعة
يختفيان وراء جحافلها السوداء . والى جواره يسرع
الاله «فرو» اله قوس قزح . وبضربة من مطرقة «دونار»
يتشقق الغمام الاسود فى جميع الاتجاهات. بشرارات البرق
الخاطفة وتتصدع السحب كسفا ، وبينما يصفو الجو
رويدا رويدا ، تبدى القلعة للانظار بكامل جلالها وبهائها ،
ويكون الوصول اليها الآن عن طريق قوس قزح الذى مده
الاله « فرو » كالقنطرة عبر الجدول السريع الانحدار
وفى جلال هذه اللحظة السنية ،تخطر «لاوتان» فكرة
عظيمة . فهو ، كبير الالهة ويضم فى صدره كل التطلعات
لاقامة دولة للفكر الرفيع وللشرف وللنظام وللعدالة ،ومع
ذلك تبين فى ذلك اليوم انه لم يظهر على الارض بعد ،جنس
من المخلوقات حقق مثله الاعلى هذا بطريقة فطرية تلقائية
تماما . لقد تبين بنفسه مبلغ عجز القوة الالهية وفشلها
الذريع فى أن تحقق ما تتصوره وما تتخيله بنفسها . .
حقا . . ! ان الالهية شئ جدير بالثناء !

ولكن خصوبة الام الاولى لم تنفذ بعد . فالحياة التى
تتدفق منها تصعد وتصل الى أعلى دائما ، الى تنظيمات
أرقى والى مخلوقات ارقى والى كائنات ارقى من الضفدعة
والافعى الى القزم ، ومن الدب والفيل الى العملاق ، ومن
القزم والعملاق الى الاله مبدع الافكار الذى يملك مفهوما
واضحا عن العالم ، صاحب المثل العليا . لماذا ينبغى على
الام ، على الحياة ان تتوقف عند هذا الحد ؟ لماذا لا ترتقى
من الاله الى البطل ؟ الى ذلك المخلوق الذى يتحول فيه
فكر الاله العقيم العتيد،الى ارادة فعالة والى حياة ايجابية
منطلقة ؟ المخلوق الذى سيشق طريقه مباشرة الى كبد

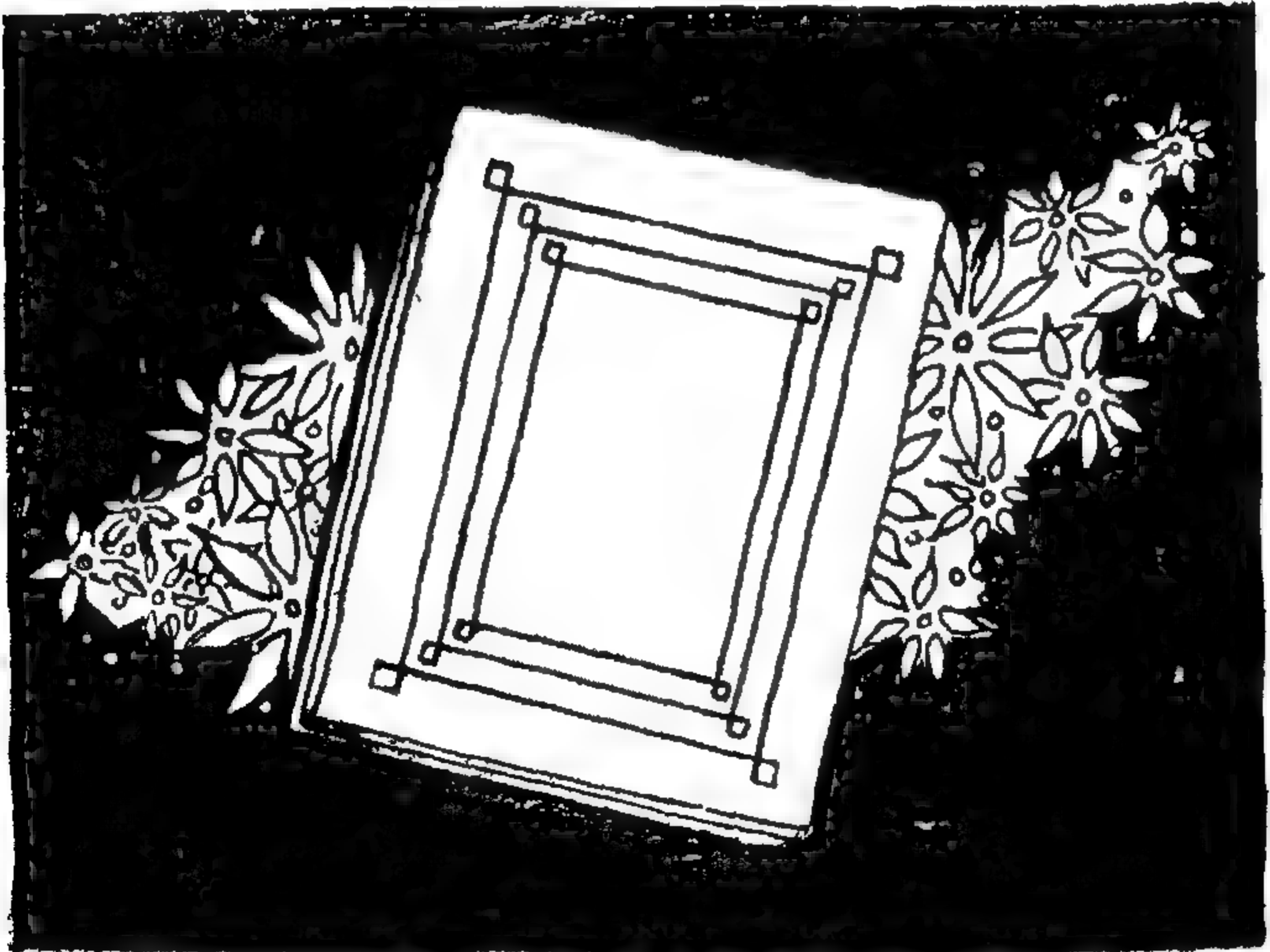
الحقيقة متخطيا قوانين «فريكا» و«كاذيب» «لوكمي» بقوة تغلب قوة العمالقة ودهاء يغلب دهاء الاقزام ؟ أجل ،على «اردا» الام الاولى ان تلد له جنسا من الابطسال يخلص العالم ويخلصه هو نفسه من سلطانه التي تقيده ومن صفقاته التي تشينه وتزرى به . هذا هو الخاطر العظيم الذى سطع فى فكر «ووتان» كبير الآلهة ، وهو يتجه نحو قنطرة قوس قزح ، ويدعو اليه زوجته لكى تأتى وتقيم معه فى « الفالالا » أو بيت الآلهة

ويستولى عليهم اجمعين بهاء «الفالالا» ويأخذ بالبابهم خلالها . . فيما عدا «لوكمي» الذى يقف جانبا ،متواريا وراء الستار ينظر الى هذا النظام المشترك من الحكم ، المشترك بين ما هو قانونى وما هو الهى . هو يحتقر هذه الآلهة كلها بمثلها العليا وتفاحاتها الذهبية ويقول : « انى لاخلج واستحى من نفسى ان تكون لى اية ارتباطات أو معاملات مع هذه المخلوقات العقيمة التى لا غناء فيها . » وعلى هذا ، يسير فى أعقابهم الى قنطرة قوس قزح ، ولكن ما ان تطأها الاقدام ، حتى تعلو وتتصاعد من تحتهم ولولة عذارى الراين ، يبكين كنزهن المفقود . واذا «بلوكمي» يصرخ ساخرا بهن سخرية وحشية : « أنتن يا هؤلاء ! يا من تقطن هناك فى أعماق النهر ، لقد اعتدتن حتى الآن على التمرغ فى بريق ذهب الراين كما يتمرغ الناس فى ضوء الشمس ، من الآن ستقنعن بالتمرغ فى سناء الآلهة وجلال عظمتها ! » فيجبنه العذارى قائلات : « ان الحقيقة هنا ، فى الاعماق ، فى الظلام ، اما ما يتوهج بالنور الباهر هناك فوق الاعالى ، فزيف وبهتان »

وعلى اثر قولهن هذا ، يمر موكب الآلهة من فوق القنطرة الى قلعتهم المجيدة ، مقرهم المكين

الفصل الرابع

- شووفاجنر - فاجنرالشورى .
- شووشكسبير - لوم الشاعر .
- شووايسن - المثاليات والمثاليون .
- شووايسن - المرأة الكاملة .
- شووايسن - مغزى المسرحيات .



شوفاجنز - فاجنز الثوري

قبل أن أترك هذا الشرح الذي قدمته لاوبرا « كنز الراين » « Rheingolde » ينبغي أن أتبادل مع القارئ كلمة أو كلمتين بهذا الشأن

ان هذه الحلقة « كنز الراين » أقل حلقات الرباعية « خاتم النبلونج Neblung's Ring حظا من اقبال الجمهور . فمسررات الناس وآلامهم تنحصر عادة في المجال الشخصي والعائلي ، وعقائد الناس وأفكارهم السياسية هي عقائد وأفكار تقليدية بحيث تكتنفها الاوهام والخزعبلات ، فأوبرا « كنز الراين » في نظرهم تتلخص في أنها صراع يدور بين نصف دسته من الشخصيات الاسطورية حول « خاتم » ذهبي ، ويستغرق صراعهم هذا ساعات من الزجر والنفس والغدر . ثم من منظر واحد طويل في منجم مظلم كئيب تصاحبه موسيقى مظلمة كئيبة ولا تتاح لهم لمحة واحدة من شاب وسيم أو فتاة حسناء . وليس من بين الجمهور من يستطيع أن يتتبع الحلقة مبهور الانفاس حقا ، الا من كان لديه وعى أرحب وأفق أوسع من ذلك . هؤلاء يرون في « كنز الراين » مأساة التاريخ الانساني برمتها ، وفضاعة المحنة التي تستغرق الدنيا في الوقت الحاضر . رأيت في

« بايروت » لفيفا من السياح الانجليز وقد تجرعوا غصص الملل واحتملوا كؤوس العذاب من منظر « آلبريك » رأيتهم ينهضون وسط المشهد الثالث ويكادون يشقون طريقهم عنوة الى خارج المسرح المظلم يلتمسون غابة الصنوبر المشمسة في الخارج . ورأيت أناسا آخرين تأثروا بالمشهد تأثرا عميقا ويكاد الحنق يخرجهم عن طورهم من هذا الازعاج الذي سببه لهم الخارجون . غدير انه كان من الطبيعي جدا ان يفعل السياح التعساء ما فعلوه لانه لا توجد استراحة بين الفصول اثناء عرض مقدمة « كنز الراين » لتكون مهربا لمن يريد ان يهرب . ويمكن القول على وجه التقريب أن الناس الذين ليس لديهم أفكار عامة أى ليس لديهم لمسة من اهتمام الفيلسوف ورجل الدين بالجنس البشرى عموما ، لا يمكنهم ان يستمتعوا بمقدمة « كنز الراين » كعمل درامى ! ربما وجدوا ما يعرضهم عن ذلك فى شىء من الموسيقى البديعة المفرطة فى الابداع ، والتي قد تبلغ أحيانا مرتبة العظمة الحقيقية ، فتتيح لهم من حين لآخر نجوة من الصراع الدائر بين « آلبريك » و « ووتان » ، ولكن اذا كانت طاقتهم محدودة واستعدادهم للاستماع يتساوى بما لديهم من فهم للعالم ، فخير لهم وللعالم أن يبتقوا بعيدا . .

والآن ، أيها القارئ الواعى ، لقد بلغنا من مسيرتنا من فاجنر ، نقطة سيأتى عندها بكل تأكيد واحد من المغفلين فيعترض سبيلنا ويعلن أن « كنز الراين » هى ما يسمونه عملا فنيا خالصا أى من اعمال الفن الخالص لوجه الفن ، وأن فاجنر لم يحلم قط بحملة الاسهم ولم تخطر بباله قط القبعات العالية ولا مصانع الرصاص الأبيض ولا مشاكل الصناعة والسياسة ولم ينظر اليها لا النظرة الاشتراكية ولا النظرة الانسانية . ولا حاجة

بنا الى مجادلة هذه الوقاحات ، فمن الايسر اسسكات
أصحابها بحقائق دامغة من واقع حياة فاجنر نفسه

ففى سنة ١٨٤٣ حصل فاجنر على منصب مدير للاوبرا
فى درسدن بمرتبة ٢٢٥ جنيها فى السنة مع المعاش .
وكانت هذه وظيفة دائمة وتعتبر من وظائف الدرجة الاولى
فى خدمة الدولة السكسونية وتعنى ان لصاحبها مركزا اجتماعيا
مضمونا وموردا ثابتا للعيش . وفى سنة ١٨٤٨ سنة
الثورات ، كانت الحكومات الاوروبية تتألف فى ذلك الوقت
بالاشتراك بين الكنيسة والدولة وقد عجزت الطبقة
الوسطى الساخطة عن انهاضها من عبوديتها للتقاليد
وللنظام الطبقي وللقانون عندما توسلت اليها بالذرائع
الاخلاقية أو بالاثارة الدستورية لتنفيذ الاصلاحات
البرالية التى كانت تطالب بها . فكانت أن ضمت الطبقة
الوسطى قضيتها الى قضية الطبقة العاملة الاجيرة
الجائعة ، ولجأت الى الثورة المسلحة . وامتدت شرارة
الثورة الى درسدن فى سنة ١٨٤٩ . ولو كان فاجنر مجرد
موسيقى ايقورى مدلل أو قطبا تافها من أقطاب الفن
الذين يعزفون عن السياسة والاشتراك فى السياسة ، أو
لو كان فنانا مجردا كما قد توحي به كلمة فنان مجرد
فيما يبدو لاذهان كثير من النقاد والهواة . وبالاختصار
لو انه كان مخلوقا على غرارهم تفاهة وبلادة وغرورا لما
كانت به حاجة لان يساهم فى المعارك السياسية الطاحنة
التى كانت دائرة فى أيامه ، بأكثر مما ساهم بيشوب (١) :
فى الزوبعة السياسية التى ثارت حول قانون الاصلاح
الانجليزى فى سنة ١٨٣٢ ، أو بأكثر مما ساهم به

(١) H.R. Bishop ١٧٨٦ - ١٨٥٥ قائد اوركسترا ومؤلف
موسيقى صاحب اغنية Home, Sweet Home المشهورة

سترانديل بنيت (١) في حركات الميثاقين الانجليز وأنصار حرية التجارة . ولكن هذا هو ما قام به فاجنر فعلا : قدم التماسا يائسا للملك مطالبا فيه الملك أن يطرح عنه قيوده وان يستجيب لحاجة العصر ومطالب العصر وان يأخذ على عاتقه واجبات الملك الحقيقية ويقود شعبه للخلاص من الشرور التي نزلت به ولتقويم الاعوجاج الذي لم يعد يطاق . (ولك أن تتصور شعور الملك المسكين حين وصله الالتماس) . وبعد أن وقعت الواقعة ، انضم فاجنر الى صفوف الفقراء الذين كانوا على الحق ضد الاغنياء الذين كانوا على الباطل . فلما فشلت حركة الانقلاب وحلت بها الهزيمة اختير ثلاثة من زعماء الانقلاب خصيصا ليحل بهم الانتقام والتنكيل وهؤلاء الثلاثة هم : أوجست روكل صديق فاجنر الذي وجه اليه سلسلة من الرسائل ذات الشهرة الذائعة ، وميشيل باكونين الذي أصبح فيما بعد الداعية الشهير للفوضوية الثورية ، ثم فاجنر نفسه . وقد فر فاجنر الى سويسرا . أما روكل وباكونين فقد احتملا فترات مختلفة من السجن . وحل بفاجنر طبعاً ، الافلاس التام مالياً واجتماعياً . (وكان ذلك مبعثاً لرضاه التام) . ودامت فترة منفاه اثنتى عشرة سنة . وكان أول خاطر خطر له ، أن يعمل على اخراج أوبراه « تانهاويزر » في باريس . وكانت ثمة فكرة تدور في رأسه في الوقت نفسه هي أن يشرح للباريسيين وجهة نظره فوضع كتيباً بعنوان : « الفن والثورة » تدل النظرة الخاطفة اليه ، على مدى عطفه التام على الناحية الاشتراكية في الثورة وعلى مدى

(١) Strendale Bennette ١٨١٦ - ١٨٧٥ مؤلف موسيقى انجليزى من أعماله « علماء اورليانز » مأخوذة من مأساة الشاعر فردريك شيللر

تحرره التام من سلطان الكنائس القائمة في أيامه . وظل ثلاث سنوات يدفع الى المطبعة بسنيل من الكتيبات ، كان بعضها عبارة عن أبحاث بارعة ومقالات رائعة الصياغة سواء من حيث حجمها أو مستواها الفكري الرفيع ، ولكنها كانت مع ذلك وبصفة أساسية كتيبات مهيج ثوري مطبوع : وتدور حول الثورة الاجتماعية والدين والحياة والفن ونفوذ المال ونفوذ أصحاب المال . وفي سنة ١٨٥٧ طبعت قصيدة « الخاتم » سرا ، وفي سنة ١٨٥٤ أي بعد انقلاب درسدن بخمس سنوات تمت الصياغة الموسيقية « كنز الراين » الى آخر ضريبة من ضربات الطبول ..

هذه الحقائق مسجلة رسميا في المانيا حيث يصف منشور حكومي فاجنر باختصار بأنه « له نشاط سياسي خطر » ويمكن الرجوع الى هذا المنشور الى يومنا هذا ، كما ان الكتيبات في متناول يد القراء الانجليز الان مترجمة بقلم المستر آشتون اليس . فاذا كان الامر كذلك ، فقد يحاول شخص ربما سمع بأنني اشتراكي ، أن يقنعك بأن تفسيرى وشرحى « كنز الراين » ليس الا مذهبي الاشتراكي ، ألصقته الصابا بمؤلفات احد محبى الفن ، استعار من الملاحم القديمة حكاية مملعة ليؤلف منها أوبرا . من الاسلام أن تسقط مثل هذا الشخص من حسابك باعتباره انسانا جهولا

فاذا ما أصبحت الآن مقتنعا بأن « كنز الراين » عمل رمزى فلا تنس أن الرمز لا يكون متماسكا بل لا ينهض على ساقين الا اذا كتبه شخص ليست لديه الملكة الدرامية وفي هذه الحالة يصبح غير قابل للقراءة . هناك طريقة واحدة لوضع الفكرة فى الاطار الدرامى هى أن تضع على خشبة المسرح انسانا حيا تتسلط عليه هذه الفكرة ، ولكنه

مع ذلك انسان حى فيه جميع البواعث والانفعالات الانسانية التى تجعله قريبا منا قرابة الرحم ومن ثم تثير اهتمامنا به . لم يحاول بانيان فى « رحلة الحاج » أن يفعل مايفعله مقلدوه الذين لايقروا لهم أحد ، فيجد معانى المسيحية والبسالة فى شخصيات ، ولكنه صور لك الانسان المسيحى والانسان الباسل فى صورة درامية . مثل هذا هو ما حدث بالضبط فى « كنز الراين » . فبالرغم من أننى بينت أن « ووتان » هو القوة الالهية والقوة الملوكية ، وأن « لوكى » هو المنطق وهو الخيال المجرد بدون الارادة الحية (أو اذا عبرنا عن ذلك تعبيرا عاما قلنا هو : عقل بلا قلب) الا أن « ووتان » فى الدراما رجل متدين متخلق بالاخلاق الدينية و « لوكى » رجل مستهتر ساحر مكار عبقرى ذو خيال . أما « فريكا » التى كانت تقوم مقام الدولة فلا تتخذ شخصية رمزية فى « كنز الراين » على الاطلاق . ولكنها فقط زوجة « ووتان » وشقيقة « فريكا » : لا بل انها تناقض نفسها الرمزية عندما تتواطأ مع « ووتان » فى جميع جرائمه . وهذا الموقف بالطبع هو ما عساه أن يقفه قانون الدولة ولكننا لا يجب أن ننقد سمعة الرمز بالقذف فى حقه . فان دور « فريكا » المرسوم فى الفكرة الرمزية لا يتضح تماما الا بعد عودتها الى الظهور فى المسرحية التالية « الفالكيرى » « Die Walkure »

وثمة فكرة مسبقة قد توقع المشاهد فى حيرة لا مخرج منها ما لم ينبهه أحد اليها أو ما لم يتخلص هو منها من تلقاء نفسه : فى التقسيمات العتيقة لمراتب الخلق ، ينظر دائما الى الشخصيات التى فوق مستوى الطبيعة البشرية على أنها أعظم من الانسان مكانا سواء كانت خيرة أم شريرة . أما فى التقسيم العصرى الانسانى لمراتب الخلق - وهو ما اخذ به فاجنر - يعتبر الانسان أسمى مراتب

الخلق على الإطلاق . وفى « كنز الراين » يتخيل فاجنر أنه لا يوجد ، ولم يوجد بعد على ظهر الأرض بشر . هناك اقزام وعمالقة وآلهة . والخطورة تكمن فى أنك قد تقفز الى الاستنتاج بأن الآلهة على الأقل أرقى منزلة من الإنسان . والامر على العكس من ذلك ، فالدنيا كلها تقف على قدم وساق فى انتظار الإنسان ليخلصها من حكومة الآلهة العرجاء الحاكمة . وما ان تفهم هذا حتى يصبح المغزى واضحا أمامك بما فيه الكفاية . والحق ، أن الاقزام والعمالقة والآلهة هى نماذج درامية للمراتب الثلاثة الأساسية التى ينقسم اليها الناس : الغرائزيون أو المتبعون غرائزهم وشهواتهم وهم أيضا المتحذلقون الجشعون ، والكادحون الاغبياء ممن رزقوا الصبر وقوة الاحتمال كما تمتلئ نفوسهم احتراماً للمال وعبادة للمال . ثم هناك المثقفون الاخلاقيون وهم أيضا الموهوبون الذين يخططون الدول والكنائس ويتولون ادارتها . والتاريخ يبين لنا أن ثمة مرتبة واحدة هى الأرقى والاسمى من هذه المراتب الثلاث : مرتبة الابطال

ومن الواضح تماماً الآن - وان لم تكن قد فكرت فى الامر قط - أن الجيل الجديد من الانجليز لو كان يتألف كله من شخصيات من طراز يوليوس قيصر فان جميع انظمتنا السياسية والاكليزيكية والاخلاقية ستفنى وتتلشى ، أما بقايا المستعصية على الفناء فستدرج مع شواهد القبور الاثرية وجنبا الى جنب مع الرحى الحجرية والابراج المستديرة كمخلفات قديمة غامضة لنظام اجتماعى باد واندثر . ولن يزعم القياصرة الجدد أنفسهم بعد ذلك باختراع قوانين أو كنائس كقوانيننا وكنائسنا ، أكثر مما يزعم عضو الجمعية الفلكية نفسه ليلمس قبعته احتراماً للمحافظ الطاعن فى السن او يصغى احياناً لموعظة يلقيها

قسيس القرية . هذا بالضبط ما سوف يحدث وما ينبغي أن يحدث يوما ما اذا مضت الحياة في اندفاعها الى الامام نحو تنظيم اجتماعي أرقى . . فأرقى . . فأرقى . كما فعلت وتفعل حتى الان . وفي يوم من أيام المستقبل البعيد أو القريب ، سنفترض أو ينبغي أن نفترض ان منزلة الرجال من أوساط الناس ستمعلو على منزلة يوليوس قيصر بنسبة ما تعلو منزلة أرباب الحرف من مواطنينا الانجليز اليوم بالنسبة لرجال الغابات من الاستراليين الاصليين . وليتأمل أى شخص في منتصف العمر ما حدث خلال جيل واحد لآيات الايمان وبنود العقيدة التي كان ابوه يعتقدانها خالدة وابدية ، لا بل دعه يتأمل ما حدث لانواع الزندقة والاحاد والتجديف في شبابه (مثال ذلك النقد الذي وجهه الاسقف كولنصو (١) لاسفار موسى الخمسة !) وسوف يدرك مقدار ما سوف يستغنى عنه انسان المستقبل ، ويطرحه وراءه ظهريا من علومنا الدينية ومن قوانيننا البربرية . لقد وضع باكونين زعيم درسسندن الثورى الذي ثار معه فاجنر في سنة ١٨٤٩ ، برنامجا فيما بعد ، يشير اليه اكثر الناس الان بفرع غبي أحمر ، وفي هذا البرنامج يدعو الى الغاء كافة الانظمة والمؤسسات ايا كانت دينية أو سياسية أو تشريعية أو مالية أو قانونية أو أكاديمية أو ما اليها بحيث تترك ارادة الانسان حرة لتكتشف طريقها بنفسها . كانت أسمى الارواح وأرقى النفوس في ذلك الوقت تتحرق شوقا لان ترفع الانسان الى اعلى عليين ، لان تمنحه الاحترام الذاتى ، وان تهزه

(١) Bishop Colenso ١٨١٤ - ١٨٨٢ الاسقف الانجليزى المتحرر . عاش طويلا بين قبائل الزولو . وعاد من افريقيا ينتقد أسفار موسى الخمسة Pentateuch مما تسبب في طرده من الكنيسة ووقف في صف الاهالى الوطنيين ضد البوير والاستعماريين الانجليز

هزأ وتوقظه من العادات السذمية التي حُيئت عليه ؛
تعوده التذلل والخنوع امام مثل عليا صنعتها مخيلته هو ؛
وتعوده ان ينسب الخير المنبعث من كافة الحياة التي
لا ينقطع سيلها المتدفق من ذاته هو - الى قوة عليا
مجهولة رابضة في السحب ، وتعوده أن يصوغ من
التضحية بالذات ونكران الذات تعويذة يتبرك بها وصنما
يتعبده ، لا لشيء الا ليبرر جبنه وتخاذله

وسنشاهد فيما بعد فيما يتلو من حلقـات أوبرا
« الخاتم » قدوم البطل الذي سيضع حدا لعهد الاقزام
والعمالقة والالهة . ولكن لا يجب ان ننسى في خلال ذلك
أن القوة الالهية عند فاجنر تعنى العجز وقبول انصاف
الحلول ، وأن الرجولة عنده تعنى القوة والتكامل . وفوق
كل شيء ينبغي أن نفهم ان ارادة الاله ما دامت تتجه نحو
حياة أرقى واكمل ، فلا بد أن روحه تشفق وتتطلع من اعـمق
أعماقها الى قدوم تلك القوة الكبرى التي ستكون أولى
مهامها القضاء عليه وعلى منجزاته ، وان لم يكن قد رأى
ذلك ببصيرته ، يعد

ومن الممتع أن نجد فاجنر وهو في قلب هذا الحشد
الحاشد من الافكار المترامية الابعـاد ، لا يزال مفعم
الوجدان بموهبته التي طبع عليها : موهبته كفنان مسرحي
محترف فاذا به يدخل بحيوية وجدية تأثيرات مسرحية
مبتكرة تبدو الآن عتيقة عفى عليها الزمن ولكنه يعتبرها
أرقى مبتكراته الملهمة . فعندما ينتزع « ووتان » الخاتم
من « آلبريك » يطلق القزم على خشبة المسرح لعنة مكفهرة
تجعل الدم يجمد في العروق ويدعو بالهم والكرب والخوف
والموت على كل من يمتلك الخاتم في المستقبل . والجملة
الموسيقية المصاحبة لهذه اللعنة الغاضبة ترن في آذان

أبناء منتصف هذا القرن (١) رثين صوت الشيطان
نفسه ، مع أن الزمن سلب منها رهبتها وهولها . ثم
يسمعون صوتها من جديد عندما يذبح « فافتير » أخاه
التوأم « فاسلوت » ، وفي كل مناسبة تتلو بعد ذلك ،
ويتسبب فيها الخاتم في موت حامله . ولهذه المقطوعة
ما يبررها باعتبارها عملا من أعمال الاثارة المسرحية ،
ولكننا اذا نظرنا اليها بتعمق أكثر ، رأيناها زائدة
لا لزوم لها ، وشيئا يبعث على الحيرة . فالخراب الذي
يؤدي اليه الطمع في المال لا يحتاج لتوضيحه الى لعنة
شيطانية ، وكذلك ليس هناك مغنى في أن يخلع المؤلف على
« ألبريك » قوى ربانية في هذا الصدد . . .

(١) يكتب شو في سنة ١٨٩٨

شو وشكبير - لوم الشاعر

أعترف بأن من الصعب على بل من المستحيل أن أشعر
في هذه اللحظة أنني انسان متمدن فبعد أن هربت من الريف
حيث يقيم سادة انجلترا الاقطاعيون المهذبون ويستمتعون
بنشوة ذبح الفراخ وصيد الطيور ، اذا بى اعود الى المدينة
لاجد من هم أكثر منهم ذكاء وتهديبا ، مجتمعين لمشاهدة
مسرحية عمرها ثلثمائة سنة ، تظهر في مشهدها الرئيسى
المثير ، امرأة تصحو من نومها لتجد زوجها بين ذراعيها
ملطخا بالدماء ، ورأسه مفصولة عن جسده (١)

اياك أن تحسب أيها القارىء ، أنني بذلك أدافع عن
سيمبلين ! فهي فى معظم أجزائها نفاية مسرحية وفى أحط
مرتبة يمكن أن تنحط إليها الميلودراما ، وفى بعض أجزائها
مكتوبة بأسلوب مقيت منفر ، ومن أولها الى آخرها مبتذلة
فكريا ، لاننا اذا طبقنا عليها المعايير الفكرية العصرية
وجدناها عملا فجأ منفرا وبذيئا ، يضيق به الصدر عن

(*) نقد مسرحية « سيمبلين » ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ، سترداى
ريفيو . ويختص الانجليز شكبير بوصفه الشاعر «The Bard»
تبجيلا له ، ويذكرونها شو سخريه به
(١) ليتذكر القارىء ان شو كان نباتيا متعصبا لا ياكل اللحم

كل احتمال • وتمر على الانسان لحظات يتساءل فيها وهو
يائس لماذا يكتب على مسرحنا أن يبتلى بهذا «النشال الخالد»
الذى ينشل قصص وأفكار غيره من الناس والمعروف باطنابه
الممل وفصاحته البشعة وأحاديثه التى لا تطاق ، وهبوطه
المفتعل بأدق مشاكل الحياة وأرهفها الى مستوى الحوادث
اليومية الدارجة مما هو جدير بأن تثور عليه نائرة أى ناد
من نوادى المناظرة ، وبجموده التام عن الايحساء بالافكار
جمودا لا يمكن تصوره ، وبقدرته الفذة على أن يجمع فى
جملة واحدة بين الفكرة المطبوخة الجاهزة والعقم الفكرى
الكامل ومن ثم يكشف عن عجزه عن الخروج بشئ من أعماق
جمهور المشاهدين حتى ولو كانوا أجهل الناس - هذا
الا عندما يطلق فى وقار وترفع نكتة قديمة أو حديثا معادا
بحيث لا يستطيع أقل مستمعيه عقلا أن يصدقوا أن رجلا
عظيم المقام مثل شكسبير يقصد حقا أن يتحدث حديث
جداتهم العجائز المخرفات • أقول ، اننى لا أجد باستثناء
كاتب واحد - هو هوميروس - كاتباً مشهوراً ولا حتى
سيروولتر سكوت يمكننى أن أحتقره احتقارا جامعا كما
أحتقر شكسبير عندما أقيس عقليتى بعقليته • أشهد أن
ضيقى به يتفاقم فى بعض الاحيان فيبلغ من الحدة والعنف
بحيث لا يسرى عنى فعلا الا أن أذهب رأسا الى قبره فأنبشه
وأستخرج رفاتة وأرجمها بالحجارة لاننى أعلم - وأنا أفعل
ذلك - مدى عجزه وعجز مريديه وعباده عن أن يفهموا أية
صورة أخرى من صور الاهانة أوضح وأبلغ من هذه • ومن
عاداتى المتأصلة التى أصبحت بمثابة طبع ثان لى ، هى
الالتزام بالاعتدال والتفكير المدروس فى جميع بياناتى
وتصريحاتى التى أدلى بها ، بفضل سنوات قضيتها فى حمل
المسئولية العامة كصحفى ، ولكن هذه العادة المتأصلة
تعرض لخطر الضياع كلما قرأت سيمبلين ثم فكرت بعدها

فى جوته وفى فاجنر وفى إبسن
ثم اننى مضطر لان أضيف الى ذلك أنى أرثى - مع ذلك -
للشخص الذى لا يستطيع أن يستمتع بشكسبير . فلتد
ظل أثره باقيا ، متخطيا رؤوس الاف غيره من مفكرين
أكثر منه اقتدارا وأطول باعا ، وسيبقى أثره ويتخطى ألفا
آخرين منهم . فموهبتة كراوية قصاص (بشرط أن يقص عليه
القصة شخص آخر أولا) وقبضته الجبارة على ناصية اللغة
التي تتضح بأبلغ بيان فى معجزاته البلاغية فى التعبير
خاصة عندما يسىء استخدامها بسفاهة وحمق ، وفكاهته
واحساسه بالشخصية وهى فى حالتها الفطرية الاولى ، وذخيرته
الاسطورية من الطاقة الحيوية التى هى فيما يبدو - صفة
كل عبقرى وتقف دائما من وراء أصحاب المواهب جميعا
أشرارا كانوا أم خيريين أم مستهترين ، كل هذا - يجعله
قديرا على امتاعنا وادخال السرور علينا بحيث تصبح
المشاهد والشخصيات التى خلقها من الخيال أكثر واقعية
من حياتنا الواقعية نفسها - ويستمر هذا التأثير فىنا على
الاقل الى أن تبدأ معرفتنا بالحياة الواقعية فى التعمق ، الى
ما تحت العادى السطحى من الامور . وعندما كنت فى
العشرين من عمري كنت أعرف كل شخصية من شخصيات
شكسبير ابتداء من هاملت الى « آبورسون » (١) معرفة
وثيقة صحيحة لدرجة أنهم كانوا أقرب الى وألصق بى من
معارفى الاحياء ، بل لا زلت حتى يومنا هذا اذا ما استوقف
نظري فى احدى الصحف اسم « بيسستول » (٢) أو
« بولونيوس » (٣) يحملنى الفضول على قراءة العبارة التى

(١) الجلال فى مسرحية « دقة بدقة »

(٢) المهرج فى « هنرى الرابع » وفى « زوجات وندسور المرحات »

(٣) من شخصيات « هاملت » رئيس الديوان الملكى وفيها يسخر
شكسبير من الفلسفة والفلاسفة

ورد فيها الاسم بلهفة أشد مما لو كان الاسم - اسم - . . .
ولكن لعل من الخير الا اذكر اسم شخص بالتحديد

وعلى هذا ، ترى كم من الشخصيات الجديدة يمكنك
أن تتعرف عليها من قراءتك لسيمبلين . اذا كان لديك من
الصبر وطول البال ما يجعلك تشق طريقك الوعر خلالها ،
وتخوض كل ما فيها من مستنقعات الاطناب ؟ هذا على شرط
أن تكون قد بلغت من الكبر عتياً حتى تحررك الشيخوخة
من الفكرة العصرية الشائعة التي تقول بأن سيمبلين لا بد
أن يكون اسماً لاحد مستحضرات التجميل (١) وأن
ايموجين (٢) اسم لحدث الاكتشافات العلمية في طبيعة
غاز من الغازات لم يزل مجهولاً حتى الآن . سيمبلين ليس
شيئاً مذكوراً ، وزوجته الملكة لا شيء ، وان بذلت المحاولات
لوصفها بالمرأة التي تلقى كل ثقلها في عقلها .
« وبوستهيويس » (٣) لا شيء لحسن الحظ والا كان
كلها حقيراً لا يحتمل ، وبيلاريوس (٤) لا شيء أو على الأقل
بعد شخصية كنت (٥) في « الملك لير » ، كالمملكة التي تعد
لا شيء بعد « ليدى ماكبث » وأياكومو (٦) ليس بالشيء
الكثير فليس سوى لزوم الشيء (diabolus ex machina)
وبيزانيو (٧) أقل شأنًا من اياكيمو . ومن جهة أخرى
لدينا كلوتن (٨) أمير البلهاء البلاء (التنايلة) ، ودوره
بكل ما فيه من بذاءات وفحش وغير ذلك يعتبر تحفة أدبية
من أول سطر الى آخر سطر ويمثل الاميران تمثيلاً رائعاً

-
- (١) سيمبلين هو ملك بريطانيا في المسرحية التاريخية
(٢) ابنة الملك سيمبلين من زوجة سابقة
(٣) زوج ايموجن (٤) اللورد المنفى ، جاء متنكراً
(٥) ارل أوف كنت في « الملك لير »
(٦) شخصية الايطالي في سيمبلين
(٧) خادم بوستهيويس
(٨) ابن الملكة من زواج سابق

أسطورة البربرى النبيل بما فيها من سخاء ووقع قوى ،
و « كايوس لرشيوس » (١) الجنرال الرومانى المتمدن فى
وسط البرابرة ، وفوق الجميع تأتى « ايموجين » ورجائى
أن تذكر أن هناك شخصيتين لايموجين : احدهما نموذج
هادىء وقور محكم الصياغة لما ينبغى أن تكون عليه السيدة
الكاملة كما يراها شكسبير ، وفى تلك المرأة التى لا يمكن
وصفها بالكلمات ، تعتبر ثورتها من أجل الفضيلة مرضا
مزمنا ، هدفها فى الحياة الانتقام لكرامتها الشخصية
وشرفها ، وأن تشك فى شرف كل انسان غيرها وخاصة
شرف زوجها . وهى مثل « لوتاه » (٢) فى دكان الجواهرجى
فى رواية برت هارت (٣) الهزلية لا يمكن أن تترك
بمفردها مع أية منقولات فضية الا بعد التنبيه على أصعابها
وطمأننتهم على أنها لن تسرق منها شيئا - لن تسرق من
الفضة شيئا مع أنها وجدت الذهب النضار منشورا على
أرض الدكان . ثم هناك امتلاء جعبتها تلقائيا بالافكار
القدرية التى لا ينبغى التصريح بها : فأنت لا تملك وأنت
تقرأ عبارة واحدة من دورها ، أن تغمز بعينيك . غير أن
« ايموجين » هذه لها « ايموجين » أخرى مرتبطة بها بحبال
من قصائد الشعر غير المقفى (وهى لحسن الحظ حبال
بالية يمكن قطعها بسهولة) - ايموجين التى هى من خلق
عبقريه شكسبير ، الشخصية الساحرة الرقيقة بل أرق
ما تكون حسا ، والمليئة بل أملا ما تكون بالتقلبات النفسية
المفاجئة : فمن نوبات الحنان العميسق الى نوبات الغضب
الصبيانى ، جسورة جريئة فى كل من الحالين غير ناظرة
للعواقب : تجرح فى لحظة وتضمد الجرح فى اللحظة

(١) جنرال رومانى فى سيمبل

(٢) Lothas (٣) Bert Harte

التالية ، ثم هى تتمتع بأعلى درجة من الشسجاعة ، وذات محتد كريم وأصل عريق . ولولا هذه « الایموجین » الثانية لكانت الفرصة المتاحة لبث مسرحية سیمبلین من موتھا مثل الفرصة المتاحة لمسرحية « تیتوس آندروونیکوس » (١) الآن ، وما أضالھا من فرصة !

ان شخصية ایموجین الهوائية المتقلبة المتبعة لغرائزھا ، هى بجانب الحى من المسرحية ، ينبغى أن تقتطع وتنتزع انتزاعا من بقية المسرحية التى لا تصلح للممثل على الإطلاق، وان كان للهواة من الشسبان أن يحفظوها عن ظهر قلب ويطالعوها بتأثير مناسب فى أحد العروض التى تقدمھا جمعية المسرح الالیزابتی . ان بقية المسرحية هذه ، لا يمكن أن تنطق عباراتها على خشبة المسرح العصرى حيث ينفر احسن الممثلین من الادوار المصطنعة ویأبونها . وبناء على هذا، لابد من اقتضاب سیمبلین واقتضابھا بحرية . ولا يرجع هذا التأكيد من جانبى ، الى أننى أخشى أن يتهيب المخرج من الاقتضاب ، بل الامر على العکس تماما . فلو أقيمت للمفن جمهورية حقيقية لكان سير هنرى ارفنج (٢) قد كفر عن سیئاته على المشنقة ، لكثرة ما أدخل فى النصوص المسرحية من تعديلات ، فهو لا يقتضب المسرحیات فقط باقتطاع أطرافھا ، بل یبقر بطونها ویستخرج أحشائها . وفى سیمبلین تفوق على نفسه باستئصال القصيدة الثالثة من المراثية الشهيرة . وأى شخص یجرؤ على ذلك یمکنه أن یفعل أى شئ - كان یقتطع « الكودا » من الحركة الاولى لسیمفونية بتهوفن التاسعة ، أو یقتضب إحدى لوحات

(١) لشکسپیر

(٢) المخرج والممثل الانجلیزى الشهير . وكان شو على خلاف دائم معه

فيلاسكويز (١) للملك فيليب ليصنع منها « كتيكات »
ينطبق على حجم المدفأة في حجرة جلوسه . ان الخطوط
الارابيسك (المتشابكة) لشخصية كلوتن التي هي بكل
تأكيد ليست أعلى من مستوى عصر علم ستيفنسون (٢)
بحيث لا يقدرها حق قدرها ، ومع ذلك فقد طمست هذه
الخطوط وشوهت بقسوة كروموية لا تعرف الرحمة ، كما
أن المشهد الوطني الحماسي الذي تلقى فيه الملكة خطبتها
العظيمة عن الشجاعة الفطرية المتأصلة في جزيرتنا قدمزق
شذر مذر بالرغم من أنه كان من السهل تقديم الخطبة في
مشهد الحديقة . ومع ذلك احتفظ المخرج الهمام بخطب
مطولة من ثفاية القول لاناقلته تدور حول . . . التشهير
الذي حده أمضى من حد السيف . . وما الى ذلك - احتفظ
بها مخرجها الهمام وحرص عليها حرص البخيل أو حرص
صاحب الوسواس على حذافير صلاته . حقا ، ما أفقر
سير هنري ارفنج في المعرفة الحقيقية للادب ! ان فقره
هذا عجيب ، وسيصيبه حتما بعجز خطر لو كان ممثلا
يتحتم عليه أن يوضح دوره ويفسره ، ولكنها لحسن الحظ
غلطة ارتكبتها احدى المواهب الكبيرة . . موهبة الخلق . ولقد
انهالت كمية خرافية من الهراء عن فهم سير هنري ارفنج
لهذه الشخصية الشكسبيرية أو لهذه أو غيرها . . .
والحقيقة أنه لم يفهم في حياته ولا عبر عن شخصية أي
كاتب قط ، الا نفسه . وهو في الواقع عاجز عن تمثيل
مسرحية أي شخص آخر عجز فاجنر عن كتابة أي «ليبريتو»

(١) Velazquez الرسام الاسباني الشهير ١٥٩٩ - ١٦٦٠

رسم سلسلة شهيرة من اللوحات للملك فيليب وهو راكب فرسه

(٢) R.L. Stevenson الروائي الانجليزي ١٨٥٠ - ١٨٩٤

صاحب روايات المغامرات المشهورة مثل جزيرة الكنز ودكتور جيكل
ومستر هايد . وشو يسخر منه ومن العصر ومن شكسبير ومن ارفنج

لشخص آخر . وكان ينبغي عليه - مثل فاجنر - أن يكتب مسرحياته التي يمثلها بنفسه . ولكن بما أنه لم يكتشف نفسه إلا في وقت جد متأخر ، فلم يتلقن أصول تلك الحرفة الثانوية - حرفة كتابة المسرحيات - فقد كان مضطرا لاستعمال مسرحيات ناس آخرين كإطار يعرض فيه ابتكاراته هو . وكان أول نجاح كبير له - في هذا الطراز من الاقتباس - تاجر البندقية . لم تكن هناك مشكلة بشأن « شيلوك » الطيب أو « شيلوك » الشرير : لم يكن الشخص الذي أبرزه « شيلوكا » على الإطلاق . كلما اصطدمت شخصيته المبتكرة بشخصية شكسبير كما فعلت ذلك على رءوس الأشهاد في مشهد المحاكمة ، جعل الممثلون يتناقضون صراحة مع سطور النص الشعري - وبكل قوة طردوا شكسبير طردا من فوق خشبة المسرح . وقال النقاد انها سياسة تتميز بالاصالة ، وبشدة الامتناع : ومع ذلك كان من الواضح أن مشقاتها ستتزايد كلما كان الابتكار في المؤلف الدرامي أكثر قوة ووضوحا . ان شكسبير عندما تكون موهبته في أحسن حالاتها ، ونبرته في قمة ارتفاعها ، لا يمكن تجاهله أو طرده بيد أى ممثل من لحم ودم ، مهما كان ذلك الممثل موهوبا . وعندما حاول سير هنرى ارفنج أن يحشر فكرة شديدة الغرابة - ادخال رجل عجوز بين سطور النص المسرحي للملك لير شوه النص الاصيل ثم أجهز عليه اجهازا ومن جهة أخرى ، ففي المسرحيات التي يؤلفها أشخاص لا وزن لهم ، حيث يلعب الكاتب الدرامي دورا تافها في المسرحية تنطلق طاقة مستر ارفنج الخلاقة ، حرة لا يعوقها عائق ، ولا يعترضها شيء ، ان عقم المؤلف هو فرصة الممثل ليقدم روائعه

شوا إيسن - المثاليات والمثاليون

رأينا الانسان وهو ينضج خلال العصور كلما نضجت شجاعته ، وأعنى شجاعة روحه (لان الناس يسمونها بهذا الاسم) فيزداد جراءة واقداما على الحب وعلى الثقة ويطرح عنه الخوف وينصرف من القتال . غير أن لهذه الشجاعة اثارا أخرى . . فبالشجاعة يرتفع الانسان بنفسه من مرتبة الوعى المجرد الى مرتبة المعرفة كلما ازدادت جراته على مواجهة الحقائق ، وأن يقول لنفسه الصدق . ولقد كان الانسان فى طفولته الاولى، طفولة العجز والفرع، غير قادر على مواجهة المحتوم ، ولما كانت الحقائق المحتومة هى أشد الاشياء صلابة وقسوة وعنادا ، فقد كان الانسان كلما اكتشف حقيقة خطيرة تهدده أخفاها عن شعوره وغطاها بالاقنعة بنفس السرعة التى يكتشفها بها ، وكانت الاقنعة هى الاخرى صلبة وغلظة وعاتبة ، بحيث كان كل قناع منها يحتاج الى بطل ليمزقه ويهتكه . وعلى عرش المفازع والاهوال التى كانت تهدد الانسان

(*) الفصل الثانى من جوهر الايسنية Quintessence of Ibsenism
الطبعة الثالثة كونستابل وشركاه لندن سنة ١٩٢٢ وكانت الطبعة الاولى
سنة ١٨٩٠

تتربع حقيقة الموت ، فلم يكن في وسع الانسان أن يحتمل
رهبة الموت المحتوم ، وتعين عليه أن يقنع نفسه بأن من
الممكن أن يتزلف للموت وأن يداريه ويحتال عليه ثم يوقع
به في النهاية - وكلنا نعرف كيف ركب الانسان على وجه
الموت المخيف قناع الخلود الشخصى ليبلغ مأربه ذاك .
وصنع نفس هذا الصنيع بجميع الحقائق المحتومة التى
لا قبل له بها ولا رغبة له فيها ، كان لا بد من ذلك والا
جن جنونا من الفزع الذى تبعته فيه الحقائق الرهيبة
المحيطة به والتى يقف على رأسها الهيكل العظمى ممسكا
بأحدى يديه ساعة رملية وبالأخرى منجلا كسيرا (١) .
فكان الانسان يسمى اقنعتة هذه « مثالا عليا » ، وكان
دائما يتساءل - وله الحق فى تساؤله - أى قيمة للحياة
بل أى طعم للحياة بدون مثل عليا ؟ وهكذا أصبح
الانسان « مثاليا » وبقي مثاليا على هذا النحو حتى
تجاسر دون أن يمد يده ليجذب الاقنعة ويخلعها ويمزقها
أى الى أن تجاسر ونظر الى الاشباح وجها لوجه وعينا
لعين . وتجاسر هنا بمعنى أصبح « واقفيا » . غير أن
الناس ليسوا جميعا على درجة متساوية فى الشجاعة
والجسارة ، فاذا ما مد أحد الواقعيين يده على أحد
الاقنعة التى لم يجرؤ بقية الناس على أن يمسوها
بسوء ، ولم يتصوروا إمكان العيش بدونها ، هاجت
الدنيا وماجت من الهول والفزع ، وكأن الأرض قد زلزل
زلزالها ..

وما زال حولنا الكثير والكثير من هذه الاقنعة وبعضها
أشد غرابة مما نشاهده معروضا فى المتحف البريطانى

(١) رمز الموت

مما كان يرتديه أهالي جزر السندوتش (١) . وفي رواياتنا وقصصنا الغرامية خاصة. نشاهد أجمل الاقنعة التي صنعناها ونسجنا خيوطها بأيدينا وصممناها خصيصا لاختفاء الغريزة الجنسية في مراحلها البدائية المبكرة ، وللتخفيف من شدة القوانين الحديدية التي يفرضها المجتمع لتنظيم وسائل اشباعها ، فقد كان من المحتوم على الانسان ككائن اجتماعي ، وما دام قد عول على السر في طريق المدنية ، أن يفرض على نفسه نظام الزواج وحياة الاسرة ، لانه لا سبيل الى بقاء النوع البشرى وخلوده وتكاثره اذا ما بقي الحب مجرد نزوات عابرة وبقيت العلاقة الجنسية مقتصرة على الشهوة الجسدية . ويحاول الناس ترقيع اللذة بالضرورة فيزعمون يائسين ، أن نظام الاسرة المفروض عليهم بالاكراه هو النظام الامثل والنظام الملائم ويضعون شروطا وتقاليد لمعانى الاحتشام والعرض والشرف واللياقة الاجتماعية وما الى ذلك ، فيقولون ان الناس دائما يحبون اقرباءهم تلقائيا أكثر من حبهم لاصدقائهم ومعارفهم العابرين ، وان الرجل اذا اشتهى امرأة مرة ، فسيظل دائما يشتهيها كل مرة ، وأن الاسرة هي المجال الملائم للمرأة ، وأن ليس ثمة امرأة كاملة ، تنشئ أية علاقة برجل او حتى تعرف لها معنى ، الا اذا بدأها الرجل وطلب منها انشاء مثل هذه العلاقة . الخ . الخ . الخ . والان ما القول في الشخص الذي امتلأت طفولته بالمرارة لان أمه كانت تكرهه ولم تكن ترغب في انجابها ، او لان أباه ضاق به صدرا ؟ والزوجة التي

(١) Sandwich Islands الاسم القديم لجزر هاواي الواقعة في قلب المحيط الهادى وعاصمتها الان هونولولو

كفت عن حب زوجها ؟ والزوج الذى سئم زوجته ومجها
من صميم قلبه ؟ والايخ الذى يخاصم أخاه أمام المحكمة
على قسمة أملاك الاسرة ؟ الاب الذى يرى ابنه يفسد
عليه مشروعاته عامدا متعمدا ويتحدى رغباته ويعقسه
عقوقا ؟ . من الصعب على هؤلاء اقناع أنفسهم بأن
صلة الرحم صلة أبدية وخالدة ، وبأن الدم دائما يكون
أغلى من الماء . ومع ذلك فلو قال واحد من هؤلاء الحقيقة
لنفسه ، لبدت حياته فى ضوئها هباء وضياعا وفشلا
ذريعا . ولا بد ان ينتهى به الحال الى أحد أمرين : اما
ان يتفق مع قوم على أن نظام الاسرة كله ، نظام فاشل
وغلطة كبرى وان عليهم أن يطرحوه جانبا ويستبدلوا به
نظاما جديدا تماما - وهذا ما لا يمكن أن يحدث الا بعد
أن ينضج النظام الاجتماعى ويتطور ويسبق فى نضجه
وتطوره نظام الزواج بشروط بعيد ، بحيث يستطيع
المجتمع أن يستغنى عنه ويضمن مع ذلك بقاءه
واستمراره ، وأما ان يقوم سيكبحون جماحه ويقسونه
على الرغم منه فى حظيرة النظام القائم بالاصرار الحازم
على أن الاوهام المستخدمة كأقنعة لهذا النظام هى حقائق
واقعة لا يأتىها الباطل

ولزيد من الدقة فى الايضاح ، دعنا نتصور مجتمعا
يتألف من ألف من الاشخاص يشتملهم تنظيم اجتماعى
يهدف الى بقاء النوع البشرى واستمراره ، وينهض هذا
التنظيم الاجتماعى على نظام الاسرة البريطانية المؤلف
لنا فى الوقت الحاضر . ولنفرض أن سبعمائة من الألف
يرون أن نظام الاسرة البريطانية صالح لهم تماما ، وأن
٢٩٩ يرونه نظاما فاشلا وان كانوا يرتضونه لانفسهم
مرغمين لانهم أقلية . أما الشخص الباقي فيحتل مكانا
سنأتى الى بيانه حالا . ان ال ٢٩٩ من الفاشلين فى

زواجهم لا تتوفر لديهم الشجاعة لمواجهة فشلهم الذي لا يرجى له علاج لانهم لا يسمعون أن يمنعوا ال ٧٠٠ السعداء من اجبارهم على قبول قانون الزواج السائد والرضوخ له . وعلى هذا سيحاولون اقناع أنفسهم بأنه مهما كانت بيوتهم منهاره وزيجاتهم فاشلة فان نظام الاسرة بصفة عامة ، نظام جميل ومقدس وطبيعي .

فالثعلب الذي يستعصى عليه العنب لا يكتفى بوصفه بأنه عنب فجع وحامض بل يصر على أن النبق الذي في متناول يده حلو ولذيذ . واليك ما حدث : الاسرة كما هي في الواقع الراهن - نظام تقليدى ينفذه قانون الاغلبية لانه نظام ملائم للاغلبية ولان الاغلبية تعتقد أنه يلائم أيضا الاقلية مع أن الواقع يقول انه لا يلائمها على الإطلاق . .

فالاسرة كنظام جميل ومقدس وطبيعي ليست سوى صورة خيالية مثالية لما تريده كل أسرة فيما لو أعطى كل شخص ما يلائمه ، وهذه الصورة الخيالية هي من اختراع الاقلية لانها تستخدمها كقناع لواقعهم المر الذي لا صبر لهم عليه اذا ما تجرد وتعري أمام أعينهم .

ونحن نطلق على هذا النوع من الصور الخيالية اسم المثل الاعلى . والسياسة المثالية او التى توصف بهذا الوصف هي سياسة اكراه الافراد على أن يتصرفوا على أساس أن جميع المثل العليا حقائق واقعة ، وعلى الرضى بتصرفهم هذا كسلوك اخلاقى نموذجى صالح فى جميع الظروف ، وعلى أن يشيخوا بوجوههم عن كل سلوك مغاير له ويوقعوا عليه العقاب باعتباره عملا منافيا للاخلاق والاداب العامة . وهكذا يصبح اصدقائنا ال ٢٩٩ فاشلا فى زيجاتهم مثاليين فى نظرتهم للزواج ، والعجيب انهم يتحمسون للمثل الاعلى حماسة شديدة ويدعون له فى رواياتهم وأشعارهم وخطبهم المنبرية ومواعظهم الكنسية .

وأحاديثهم الشخصية الجادة بأشد وأقوى مما يدعوا له السبعمائة الآخرون الذين رضوا بالزواج واطمأنوا إليه كوظيفة روتينية يقومون بها ، ولم يحسبوا بتسميته نظاما فضلا عن أن يسموه نظاما جميلا ومقدسا وطبيعيا بل إن السبعمائة يرون ببساطة تامة أن المثالية ضرب من اللغو الصادر عن عقول مشوشة محتلة ، تحاول أن تثير به زوبعة حول لا شيء . وتتألم مشاعر المثاليين الحساسة بهذا الرأي الذي تراه الاغلبية فيهم ، ويكيلون للسبعمائة بنفس الكيل فيصفونهم بأنهم «ماديون» (١) وهكذا ينقسم مجتمعنا إلى ٧٠٠ ماديين و ٢٩٩ مثاليين وواحد لا يندرج تحت أى تقسيم ، ذلك هو الشخص الذى بلغ من القوة ومن الشجاعة ما يجعله يواجه الحقيقية التى يشفق منها المثاليون

مثل هذا الرجل يقول فى الزواج : « هذا نظام فاشل لعدد كبير منا . فلماذا ما ارتبط شخصان بعلاقات معينة لا يبقى عليها إلى الحب الصادق والعاطفة المخلصة ، فمما لا صبر لإنسان عليه ، أن يجبر هذان الشخصان على الارتباط بها بعد زوال الحب وبرودة العاطفة ، أو إذا لم يكن للحب وللعاطفة مكان فيها منذ البداية . فليس صحيحا ما يزعم بأن هناك عوامل للجاذبية والنفور مركبة فى طبيعة الإنسان منذ الأزل ، وأن المثل الأعلى للأسرة ينهض عليها . . . كما ثبت تاريخيا بطلان الزعم بأن نظام

(١) Philistines . وهى كلمة وردت كثيرا فى الاناجيل ومعناها الكلبيون أو الأرضيون أو الماديون . والماديون لا بالمعنى الفلسفى ولكن بالمعنى الدارج المؤلف للكلمة أى الناس الذين لا هم لهم إلا قضاء مصالحهم المادية والشخصية ولا يتعبون رؤسهم بالتفكير فى أمور عامة أو فى مستقبل بعيد . وقد اخترت كلمة الماديين لأنها المقابل المباشر لكلمة « المثاليين » التى استخدمها المؤلف آملا ألا تحدث بلبلة عند القارئ .
(المترجم)

الأسرة إنما قام بهدف اشباع هذه العوامل وحدها .
فلنعمل اذن على اقامة نظام آخر يساعد على تحقيق
الاغراض الاجتماعية للأسرة ولنلغ كل ما فيه من قهر
واجبار ، . . .

ترى ما الموقف الذى يتخذه الآخرون من هذا الرجل
الصريح الذى لا يعرف المواربة؟ الماديون سيعتبرونه ببساطة
تامة مخبولا فقد عقله . أما المثاليون فسوف يصيبهم
فزع يتجاوز كل حد ، لان شخصا ما جاء فصرح علانية
بأفكارهم المكتوبة وعبر عما فى ذات صدورهم - لان خائنا
قد وجد بينهم ، بين المتأمرين على الصمت والسكوت (١)
فتجاسر وهتك القناع الجميع الذى نسجوا خيوطه هم
وشعراؤهم ليخفى وجه الحقيقة البشع الذى لا يطيق
أحد النظر اليه . لسوف يحرقونه حيا ، لسوف ينتهكون
مثلهم العليا نفسها ليشفوا غليلهم فيه ، لسوف يحطمون
الحب العائلى - المثل الأعلى - فينتزعون أولادهم من
أحضانهم ويقاطعونهم وينفونهم من الأرض ويصبون عليه ركاما
من اللعنات والوصمات : ليس عنده أخلاق ، منحل ،
داعر فاسق ، فاجر ، قذر . لسوف يقيمون عليه الدعوى
امام « الماديين » السبعمئة الذين أدرجوا فى خانة
« المثاليين » خصيصا لهذا الغرض ، بوصفهم « المجتمع » .
أما الى أى حد سيسيروا فى اجراءاتهم ضده ، فيتوقف
على الحد الذى تتفوق فيه شجاعته على شجاعتهم
واصراره على اصرارهم ، فاذا كان فى أسوأ حالاته جبنا
وترددا ، سموه ساخرا مستهترا متناقضا ، مخالفًا
... الخ فاذا كان فى أحسن حالاته شجاعة وحزما بذلوا
أقصى ما فى وسعهم لتحطيم حياته ان لم يكن للقضاء

(١) ما أكثر ما ذكر ماركس فى كتاباته عن مؤامرة الصمت هذه التى
دبرها ويدبرها البورجوازيون

عليه جسدا وروحا . وهكذا نرى الاخلاقين من ذوى الشجاعة الواهنة الضعيفة من أمثال « ماندفيل » (١) و « لاروشفوكو » (٢) الذين لم تتجاوز شجاعتهم أكثر من حد التصريح لا قوامهم بحقائق غير سارة ولم يستنكروا المثل العليا السائدة ولم يشكوا فى صحتها بل انهم فى واقع الامر اعتمدوا على صحة هذه المثل العليا لتأييد حجتهم فيما صرحوا لقومهم به - أقول - هكذا نرى أمثال هذين الرجلين يخرجون من المعمة بما لا يزيد من وصفهم بصفة ساخر أو مستهتر . وقد أصبح من المألوف اطلاق هذه الصفة على كل مثالى متحمس بلا قيد او شرط . ولكن خذ « شيللى » كمثال يساعدنا على ايضاح المثل الذى نضربه : فالمثاليون لم يصفوا « شيللى » بأنه ساخر أو مستهتر بل وصفوه بأنه شيطان رجيم فى البداية . فلما لم يتمكنوا بعد ذلك من اختراع قناع وهمى جديد يتيح لهم الاستمتاع بجمال قصائده الغنائية اكتفوا بتسميته ساخرا أو مستهترا وهو وهم آخر لا يقل عن زعمهم بأن شيللى « مثالى » فى أعماقه . ومن ثم لابد وأن تكون مثله العليا مطابقة لمثل

(١) The Fable of the Bees مؤلف ١٧٢٣ - ١٦٧٠ B. Mandeville اثبت من دراسة خلية النحل ان الانانية هى سبب البقاء وأنه لو أنكر ذاته ومصلحته الداتية لهلك . تأثر بأفكاره صمويل جونسون ثم هوبر ثم بانتام

(٢) ١٦١٣ F. Laroche foucauld - ١٦٨٠ الكاتب الفرنسى الكلاسى صاحب الحكم والأمثال المجموعة فى : Reflections... وفكرته الاساسية متشائمة تدور حول ان الانانية والمصلحة الشخصية هى محور سلوك الانسان

من اقواله : « ان الفضائل تصب فى المصلحة الشخصية كما تصب الانهار فى البحر »

ثينسون (١) ولونجفلو (٢) وإن لم يكتب بيتا واحدا من الشعر يتضمن شيئا أى شىء من مثلهم العليا « المحترمة » (٣) وهنا يبدو أن القول بأن شيللى « الواقعى » كان مثاليا أيضا ، يفسر الأمر كله ، وهو بكل تأكيد يفسر الانسجام اللفظى للكلمات . وسبب ذلك أننا لسوء الحظ نستعمل كلمة « مثل أعلى » بلا تمييز ، ونقصد بها النظام الذى يخفيه قناع المثل الأعلى كما نقصد بها أيضا القناع نفسه ،

-
- (١) Tennyson ١٨٠٩ - ١٨٩٢ الشاعر الانجليزى الرومانسى مؤلف أشعار Idylls التى هى خليط من القيم الاقطاعية وقيم العصر الفيكتورى التى يثور فيها على عصر العلم والصناعة
- (٢) H.W. Longfellow ١٨٠٧ - ١٨٨٢ الشاعر الأمريكى كان أستاذا فى جامعة هارفارد ويجيد عشر لغات . Poems on Slavery
- (٣) حاشية بقلم شو .

فيما يلى نموذجان من المرحلتين اللتين مر بهما نقد شيللى :
... نحن نشعر كما لو كان واحد من أشد شياطين الجحيم سوادا ،
وقد قمص جسد انسان ليصبح من خلاله حقه على الجنس البشرى
وعداوته له : أن كراهية « شيللى » للناس تفوق الكراهية الطبيعية التى
يحس بها البشر ، ولا يزيدها الا قدرته على « الايذاء » . لقد انطبعت هذه
الصورة فى أذهاننا عنه ، انطباعا قويا لدرجة أننا طلبنا فعلا من أحد
الاصدقاء - رأى ذلك الشخص « شالى » رأى العين ، أن يصف لنا كما لو
كان له حافر فى رجليه أو قرن فى رأسه أو ألسنة من اللهب تتصاعد من
فمه لتمييزه عن سائر البشر فى مظهره الخارجى - ذلك العدو اللدود
من أعداء الجنس البشرى .. » عن مجلة ليتراى جازيت ١٩ مايو
سنة ١٨٢١

... ان « شيللى » ملاك جميل يذهب ولا يترك أثرا ، يخفق فى الفراغ
بأجنحته المضيئة عبثا وبلا جدوى ... » ماثيو أرنولد فى مقدمة « المنتخب
من أشعار بايرون » بتاريخ سنة ١٨٨١

وليس من شك فى أن رأى الذى أبدى فى شيللى سنة ١٨٨١ كان
أسخف وأشد سفاهة من رأى الذى أبدى فيه فى سنة ١٨٢١ . ويمكن
العثور على مزيد من النماذج لهذا النقد فى مقالات هنرى سولت أحد
الكتاب القلائل الذين تعرضوا لشيللى ووضعوه فى مكانه الحقيقى كأحد
الرواد الاجتماعيين

وبذلك نحدث بلبلة فكرية لا مخرج لنا منها . قد يكون النظام فاسدا فعلا ، ولكن القناع الذى يغطيه قد يكون صورة لما تتمناه ، صورة للبديل الذى نريده . فاذا سمينا الحقائق الواقعة وهى مرتدية أقنعتها مثلا عليا ، فسوف نسمى احتمالات المستقبل أيضا مثلا عليا . ومرة أخرى ، اذا سمينا الرجل الذى يدافع عن الانظمة القائمة مدعيا انها تنطبق وتتفق مع أقنعتها رجلا مثاليا ، ثم أطلقنا نفس الاسم على الرجل الذى يسعى لتحقيق احتمالات المستقبل او لتهيئة السبيل لها ، بتمزيق القناع وما تحت القناع ، فلن يستطيع قلم بيد بشر هالك ، أن يعرض الموضوع بطريقة مفهومة ، وسوف تتعارض اهدافنا-أنا وانت أيها القارئ- فى كل جملة نتبادلها ما لم تسمح لي بتسمية الرواد الاوائل من أمثال شيللى وابسن « واقعيين » وتمييزهم عن المثاليين فى المجتمع الذى تخيلته من قبل ويتألف من ألف من الأشخاص . واسو أنك سألتنى لماذا لم أستخدم المصطلحات بوجهها الآخر فسميت شيللى وابسن مثاليين وسميت التقليديين واقعيين لاجبتك بأن أبسن نفسه وان لم يخترع هذه التسميات ويحدد تلك الفروق رسميا ، الا أنه ألح وأكد فى أقواله ان التقليد هى المثل العليا ، وأن التقليديين هم المثاليون بحيث لو جئت واستخدمت كلمات « حقائق واقعة » و « واقعيين » فى غير ما استخدمها فيه ابسن ، لحدثت بلبلة فى أذهان قراء « البطة البرية » والرومرزولم من حيث ظننت أنى أساعدهم على فهم ما يقرءون . ولا شك أن بعض اللوم سيكون من نصيبى لانى حيرت الناس بتحديد معنى كلمة « مثالى » على هذا النحو ، ولكنى أقول بدورى ، ان هذه الحيرة العابرة لا تقارن باللبلة البالغة التى كنت حريا بايقاع القراء فيها اذا ما استخدمتها بوجهين متعارضين

أشد التعارض : فإذا ما اعترض أحد على اصطلاح «واقعي» بسبب بعض الملايسات العصرية المرتبطة به ، فلا يسعني إلا أن أؤيده بشرط ألا يلصقه « بزولا » (i) وموباسان (٢) .. ولكن بأفلاطون ..

والآن لنعد إلى مجتمعنا المكون من ٧٠٠ مادي ، ٢٩٩ مثالياً وواحد واقعي .. ان الغموض اللفظي الذي أقمت الحجة عليه منذ هئية ، ليس شيئاً اذا قيس بالغموض الجوهري الذي ينتج من محاولة وصف العلاقات القائمة بين هذه القطاعات الثلاثة بكلمات مأخوذة من المعاني العادية كالحكمة والواجب . فمع أن المثالي أرقى منزلة من المادي في سلم التطور إلا أنه يمقت صاحب المنزلة الأرقى من منزلته ، ويهاجمه في رعب ولد وعنف مما لا يعرفه المادي ولا قبل له به . ان الرجل الأرقى الذي ارتقى وتسامى فوق الأخطار التي تهدده والمخاوف التي تحوطه ، فلم تعد تقوده غريزة التملك إلى السرقة ، ولا نوبات الغضب إلى القتل ، ولا العواطف إلى الخلاعة والتهتك ، هو الذي تصب على رأسه اللعنات ويوصف بأنه أكبر الأوغاد ، ورأس الانحلال ، انه يوصف بأنه أخط الناس لانه على وجه التحديد ، أرقى الناس . والعجيب أن الذين يقعون في هذا الخطأ البين ليسوا الجهلة أو الأغبياء ، بل المتعلمون والمثقفون . فعندما ينطق النبي بالحق سرعان ما يثبت علمياً أنه وعد وأحمق ، وليس من يثبت ذلك الجهلة الذين لم يطلعوا على أنبياء

(١) E. Zola ١٨٤٠ - ١٩٠٢ الكاتب الفرنسي الواقعي الذي وصف كثيراً كفاح الطبقات العاملة في رواياته : *La terre, Germinal* وغيرها ..

(٢) Guy de Maupassant ١٨٥٠ - ١٨٩٣ أشهر كتاب القصة القصيرة الواقعية . نظير تشيكوف الروسي . مؤلف كرة الشحم - الإشارة - ذلك الخنزير موران - العقد - قطعة الخيل .. الخ (معظمها مترجم) . كما أن له روايات : حياة بل أمي - يوميات مجنون

تلك المظاهرات العلمية الزائفة في الماضي ولا كيف انتهت بها مصيرها ، بل الذين كتبوا بأيديهم المجلدات بعد المجلدات عن جرائم الصلب والحرق والرجم وقطع الرؤوس والشنق والنفي الى سيبيريا والتشهير والمقاطعة ، أى الجرائم التي ارتكبتها البشرية في حق الرواد الاوائل كما ترتكبها الان في حق تابعيهم الحاليين ورفاقهم في السلاح . اننا نسمع من أفواه ذوى الشهرة الادبية الثابتة وذوى السمعة المحترمة من النقاد ، أن وليم بليك كان مجنوناً وان شيللى كان شاباً منحلاً أفسده اختلاطه بمجموعة من الشباب الفاسد المنحل ، وان « روبرت أوين » كان غراً مافوناً لا خبرة له بالعالم ، وأن راسكين كان عاجزاً عن هضم الاقتصاد السياسى وأن « زولا » كان وغدأ أفاقاً وأن « ابسن » كان شبيه زولا ولكن برجل خشبية . والموسيقار الذى يرضى عنه المستمع العادى غير المحترف يناله التشهير والتشنيع عادة من زملائه الموسيقيين المحترفين . فلقد كان مثقفو أوروبا من الموسيقيين هم الذين أعلنوا أن فاجنر أدنى مرتبة من مندلسون ومايربير . ويجد الرسام العظيم أعداءه دائماً بين الرسامين لا بين رجال الشارع : فلقد كانت الاكاديمية الملكية فى لندن هى التى وضعت نكرات لا وزن لها فى مرتبة تعلو مرتبة بيرن جونز (١) . وليس من المنطقى ولا من الواجب أن يكون الامر على هذا النحو ، ولكنه على هذا النحو بالرغم من كل شيء .

وفى نهاية المطاف ، ينفذ صبر الواقعى التسبجاع ،

(١) Burne-Jones ١٨٣٣ - ١٨٩٨ أحد الرسامين الاجايز من رفاق وليم موريس وراسكين . كان يرسم بالزجاج الملون والقماش وورق الحائط

واكاديمية لندن للفنون أسست سنة ١٧٦٨ برعاية الملك جورج الثالث . ثم علاها صدى الرجعية والجمود فى القرن التاسع عشر حتى أصبحت كلمة «اكاديمى» وظلت الى الان تحمل معنى التقليد والرجعية والتعصب والبلادة

ويضيق ذرعاً ، بالمثل العليا برمتها فلا يرى فيها الا ضباباً
وغشاوات تحجب أبصارنا ، وبدلاً من أن تكون أدوات في
أيدي البشرية لمقاومة الموت اذا بها تجرد الموت من سلاحه
المخيف ، ولكن بالدعوة الى الانتحار . فالمثالي الذي لجأ
الى حمى المثل العليا لانه يكره نفسه ويخجل من نفسه
يظن أن مصيره الحق ونهايته المثلى هما في التشبث بالمثل
العليا . والواقعي الذي انتهى به الامر الى احترام نفسه
والايمان العميق بسلامة ارادته هو ، يعتقد أن اللجوء الى
المثل العليا هو أسوأ مصير وأحقر نهاية يمكن أن ينتهي
اليها . المثالي لا يكبح جماح الطبيعة البشرية بنزواتها
الفاسدة واسرافها المدمر الا بانكار الذات والغاء شخصيته ،
وتحقيق الاندماج التام في المثل العليا . والواقعي ينظر
الى هذه المثل العليا على انها ملايس ضيقة كبر الانسان
عليها فباتت لا تلائمه بل وتعوق حركته بصورة لا تطاق .
ولا عجب أن يعجز الاثنان عن أن يتفقا . يقول المثالي :
« الواقعية معناها الاناوحدية ، أن أقول أنا وحدي وبعدي
الطوفان ، ومعنى الاناوحدية الانحراف . » ويقول الواقعي :
« ان الرجل عندما يلغى ارادته في أن يحيا ويكون حراً في
عالم من الاحياء الاحرار ، لا يسعى للانسجام مع المثل
العليا بهدف تحقيق ذاته ، بل ليكون «رجلاً طيباً» او «رجلاً
صالحاً» فاذا ما بلغ مسعاه هذا ، فقد مات موتاً أدبياً ،
وتعفنت أخلاقه ويجب أن يترك وشأنه حتى تحين ساعة
بعثه من جديد اذا أسعده الحظ وحانت تلك الساعة قبل
موته الجسدي ، ومن سوء الحظ ان هذا النوع من
القول لا يفهم ولا يدركه الا الواقعي . ومن الممتع - وإن
كان في نفس الوقت أقل قدرة على الاقناع « اقناع المثاليين »
أن نتناول بالعرض نموذجاً واقعياً حقيقياً لواحد من
المثاليين وهو ينتقد واحداً من الواقعيين

شوايبن - المرأة الكاملة

كان اهم حادث ادبى وقع فى سنة ١٨٩٠ ، هو نشر يوميات مارى باشكرتسييف (١) ، وقد قدم وليم ستيد (٢) رئيس تحرير مجلة ريفيو أوف ريفيوز فى يونية سنة ١٨٩٠ عرضا لليوميات مشفوعا بسلسلة من التعليقات . وكان ستيد قد ضم اليه جمهورا غفيرا من الحواريين والتابعين بقيامه باحدى الخدمات الوطنية التى اسسها بهدف من ورائها الصالح العام ، واضطر فى سبيل ذلك الى أن يتظاهر بارتكاب جناية خطيرة وسجن من جرائمها لىكى يثبت للرأى العام ولل قضاء أن تلك الجريمة يمكن ان

(*) الفصل الثالث من جوهر الابنية

(١) Marie Bashkirtseff ١٨٦٠ - ١٨٨٤ رسامة وكاتبة روسية شابة عاشت متنقلة بين المانيا والرفيرا . وقد احتفظت مندطفولتها بيوميات تحكى بصراحة تامة اسرار حياتها . وقد تبادلت مع جى دى موياسان خطابات مشهورة باسم مستعار . وقد طبع جزء من يومياتها بعد وفاتها واحلث ضجة ادبية فى أوروبا وانجلترا وترجم الى لغات كثيرة

(٢) W. T. Stead ١٨٤٩ - ١٩١٢ الكاتب الصحفى الانجليزى . اصدر وتولى تحرير عدد من الصحف الناجحة . وشن حربا صليبية ضد الرذيلة وانحرافات الاحداث ، أدت الى تعديل القانون الجنائى فى انجلترا وكان نصيرا للسلام

تحدث وتحدث فعلا . ثم شغل بحملة صحفية شسنتها
لارساء قواعد المثل الاعلى الذى يقول : ان طهارة الانسان
فى الامور الجنسية شرط من شروط الخدمة الوطنية .
وكانت لديه بكل تأكيد خصائص ابسنية واضحة : الثقة
بالنفس وقوة الارادة واتباع ما يمليه عليه ضميره بلا
تحفظ ، وان يكون قادرا فى كل وقت على أن يجعل صوته
مسموعا . ومن بين مثالياته التى آمن بها ، مثل أعلى هو
أبرز مثله العليا واعلاها مقاما : المثل الاعلى للأنوثة أو
المرأة الكاملة . وهو كسائر المثاليين يستطيع فى سبيل
تعزيز هذا المثل الاعلى - أن يقرر أى شئ وان يصدقه
مهما خالف الواقع والحقيقة بشكل واضح وبشكل مضحك
معا . وما ان وقع على يوميات ماري باشكرتسيف وعرف
ان روايتها لقصة حياتها تتعارض تعارضا تاما مع
الصورة التى كونها لعقلية المرأة فى مثله الاعلى للأنوثة
اذا به يقع فى ورطة محيرة : اما ان ماري ليست امرأة
واما أن مثله الاعلى زائف بطبيعته . ولكن تردده لم
يطل فقد اختار الرأى الاول فعلا . قال : « ليس فى
ماري الا أثر قليل ، بقية تافهة من المرأة الكاملة ، انها
على التحديد تنقض المرأة الحقيقية تماما »

وكانت ورطة وليم التالية ان كان ضبط النفس هو
احدى الصفات الاساسية واول الشروط التى يتطلبها فى
مثله الاعلى ، ومن ثم يستحيل - منطقيا - ان تتمتع ماري
بصفة ضبط النفس والا كانت شبيهة بمثله الاعلى . ومع
ذلك اضطر لان يسجل فى مقالاته انها قد صنعت من
نفسها فنانة (١) على درجة عالية من المهارة بدون أن قهر

(١) بكاد كلمة فنان او فنانة Artiste . تقتصر فى اللغة الانجليزية
على الرسامين والنحاتين . فنانة معناها رسامة أو نحاتة

خارجى عليها ، وذلك بمشايرتها على العمل عشر ساعات كل يوم لمدة ست سنوات . والندع اى واحد يظن أن هذا ليس برهانا على ضبط النفس ، يحاول ان يصنع ما صنعته مارى لمدة ستة شهور فقط . ومع ذلك جاء حكم وليم القاطع عليها فى قوله : « انها لا تتمتع بأى مقدرة على ضبط النفس . » وعلى أية حال قد تبلورت خصومته الكبرى لمارى فى السطور التالية « . . كانت مارى رسامة وموسيقية وفيلسوفة لبقة الحديث ، وباحثة وبالاختصاص كانت تتمتع بأى شىء تحب أى امرأة ان تتمتع به الا أن تكون امرأة طبيعية لها قلب يحب وروح ترى ذروة اشباعها فى التضحية من اجل زوجها الحبيب وولدها . » وانى لاشك فى أن هناك منكرا بين جميع منكرات المثاليين التى تجعل من مجتمعنا بؤرة عطنة ، يمكن ان يبلغ فى بشاعته ذلك التقليد المنكر الذى يفرض على المرأة أن تضحي بنفسها بمثل هذه الطريقة اللثيمة على زعم انها تحب التضحية ، فاذا ما تجاسرت المرأة وعارضت هذا الزعم ، عرضت على الملاء فوق منصة التشهير وقيل انها ليست امرأة . وفى الهند تمادى المثاليون فبالغوا فى هذه المثالية الى حد الزعم بأن المرأة الكاملة لا يمكن ان تحتل الحياة بعد موت زوجها ، وانها تريد دائما بطبيعتها المحبة المخلصة ان تضحي بحياتها على المحرقة التى حرقت عليها جثة زوجها . والعجيب ان النساء هناك كن يسمحن لقومهن أن يسكروهن بالخمير حتى تتبلد أحاسيسهن ويصبحن فى حالة منافية للانوثة تماما ، وذلك قبل حرقهن احياء حتى لا يوصمن بوصمة التناقض مع المثل الاعلى للانوثة الكاملة . ولقد وضعت المادية البريطانية الانتهازية ، حدا لمثاليات الارامل

الهنديات فقامت حكومتها في الهند بإلغاء تقاليد «الساتي»
بالقوة الجبرية . غير ان النسخة الانجليزية من تقليد
«الساتي» (١) ما زالت شائعة مزدهرة . وكان ستيدمنقذ
الاطفال من الرذيلة (٢) واحدا من كبار كهنتها . ولنتصور
مشاعره مثلا وهو يجابه بهذه العبارة الافتتاحية في
يوميات امرأة : « أنا احب نفسي » أو بعبارة : « أقسم
جادة - بالكتب المقدسة وبحب المسيح و «بنفسي» - على
أننى سأصبح فى مدى اربع سنوات امرأة مشهورة . »
لقد اعلنت الفتاة الصغيرة فى حزم واصرار انها ستكرس
جميع القوى التى لم توضع فى خدمتها - على حسب
رأى ستيد - « لمصلحتها الشخصية لا للتضحية فى
سبيل زوجها وولدها . » لا عجب اذا ان نراه يندفع
صائحا : « كانت ذكية بلا شك ، وذكية جدا ، ولكنها لم
تكن امرأة »

كان من الواضح تماما ان مارى بشكرتسيف أبعد ما
تكون عن المرأة التى تنطبق عليها شروط المثل الاعلى
للانوثة ، أى أنها كانت مثالا فذا للمرأة الواقعية .
وستيد فى كتابه عنها ، يبدو كما لو كان قد وقع فى
غرام يومياتها وتاريخ حياتها ، فقد لذ له أن يعرضها فى
صورة باهرة ساحرة عندما يقول : انها كانت مصدرا
لبهجة كل المحيطين بها بفضل ما كانت تشيعه حولها من
جو التفاؤل والتهلل الحافل بالأمل ، وأن ذلك يرجع الى

(١) Suttee

(٢) حاشية بقلم شو :

لجأ ستيد الى تجربته الجنائية اليائسة المشار اليها لكى يحصل
الحكومة على الخلا الاجراءات الكفيلة بمنع بغاء الاطفال والسرقيق
الاهل . وقد فصح فى مسماه

ارادتها الصلبة القوية . والحق ان المرأة الكاملة - في
نظر ستيد - اى التى تضحي بنفسها وبارادتها وبرغباتها
فى الحياة ، هى مجرد ضحية بائسة للاستغلال ، وليس
ذلك فحسب بل انها - ككل حمالى الهموم شخصية
بغضبة يكرهها الناس لما هى فيه من كرب دائم وهم
مقيم . وليس من شخص يمكنه أن يزعم ان روحه تبلغ
ذروة اشباعها فى التضحية بنفسه . ان مثل هذا الزعم
جدر بأن يدمغه الى الابد بالجبن والتهاقت . ان الرجل
كامل الرجولة ، هو الذى يتبنى وجهة نظر بشكرتسييف
فى الحياة . ونحن لا يقل حبنا للرجال بسبب ارادتهم
القوية واستقلالهم ، فما من انسان يشعر بالعجز او بانه
ضعيف لا حول له ولا قوة وهو يمشى بصحبة شخص من
هذا الطراز ، اى بصحبة شخص يساعد نفسه بنفسه . اما
ذلك المضحي بنفسه ، المنكر لذاته دائما ، حمال الهموم ،
فذلك هو العبء الثقيل المزمع ، انه كالمسئولية الثقيلة
ينبغي حمله على الاكتاف ، فضلا عن انه مصدر ازعاج
دائم غير طبيعى ، وليس فى وسع شخص قوى النفس
حقا ، أن يعيش أو يتعايش معه . ان الذين يساعدون
أنفسهم هم وحدهم الذين يعرفون كيف يساعدون
الآخرين ، وكيف يحترمون حق الآخرين فى مساعدة
أنفسهم . . (١)

وعلى الرغم من أن المثاليين الرومانسين يصرون على أن

(١) حاشية بقلم شو :

على ان نشر هذه العبارة بوقت قصير جاءتني سيدة المانية فقالت انها
تعرف « المصدر الذى استقيتها منه » وكان واضحا انها لاتقصد انى
استقيتها من ايسن اذ اردفت تقول لى : « لقد كنت حتما - تطالع كتاب
نيتشه فى العير والشر وفى الجانب الاخر » . وكانت تلك اول مرة اسمع
فيها من نيتشه . ولا اذكر هذه الواقعة لغرض مخيف هو الدفاع عن
« اصالتى » جريا على موضحة القرن التاسع عشر « - بل لاني اعطى =

اخضاع النفس او اذلالها هو عنصر لا غنى عنه فى الحب
الأنثوى الحقيقى ، فان كلا من افراد الجنس يصفون
تأثير ذلك معرفة تامة ، فهو تأثير بغيض وممقوت فى
الواقع ، ومن ثم يصدون عنه صدودا . ان أقصى الأمثلة
تطرفا فى هذا الصدد ، هو ما نراه ونلمسه عندما يسلم
شخص مقاليد نفسه بنزق وطيش للشهوة الجنسية .
وكل شخص يقع فريسة او نهبا للفتنة الجنسية سرعان
ما ينفر منها تلقائيا ، وبطبيعة الغريزة الجنسية نفسها .
فالحب بطبيعته يفقد سحره عندما لا يكون حرا ، وسواء
كان القهر فى الحب من العادة او من التقاليد او من
القانون او من الفتنة الجنسية ، فنتيجته سواء فى جميع
الحالات : يفقد الحب قيمته ويصبح منفرا وبغيضا
كمداعبات مجنون . ان الرغبة فى ائذلال لا تلهم الانسان
بأى حب ما لم تكن هناك ايضا رغبة فى الاحتفاظ ،
والمحب الناجح فى كلا الجنسين على السواء هو الذى
يضع لحيه شروطا مشرفة ويتمسك بها الى النهاية ، فاذا
ما خاب امله فيها نفض يده من الامر كله ، ومضى لا يلوى
على شئ . والزواج الشرعى كما يتم اليوم لا يوفر مثل
هذه الشروط لاي من الجنسين ، لان العلاقة الزوجية
الشرعية تقوم بطبيعتها على القهر والالزام ، ومن ثم تبعث
على النفور الشديد ، وهذا النفور يضع الزواج فى أول
الامر فى مرتبة المثاليات مع أنه يبقى كوسيلة لا غنى عنها

= أهمية كبرى للدليل الذى يثبت ان الحركة التى دعا اليها
شوينهور وفاجنر وابسن ونيتشه وسترنديج كانت حركة عالمية ، وكانت
خليقة بأن تجد اللسان الذى يعبر عنها حتى ولو كان كل واحد من هؤلاء
الكتاب قد ادركته المنية وهو طفل فى المهد . وقد تناولت هذه القضية فى
مقدمة مسرحيتى « ميجور بربارا » والحركة مازالت حية تتنفس اليوم فى
فلسفة برجسون وفى مسرحيات جوزكى وتشيكوف وفى الدراما الانجليزية
فى الحقبة التالية لابسن

لاستمرار النسل ، ثم يحوره بعد ذلك ويتحايل عليه بالطلاق وبإلغاء العقوبات المفروضة على عدم الامتثال للأحكام القضائية الخاصة بتعويض الحقوق الزوجية وأخيراً بعدم استخدام هذه الأحكام بالتدريج وتلاشيها كلما انتقلت مسئولية رعاية الجيل الناشئ من الأب إلى المجتمع .. » (١)

ولقد قوبلت لوائح الزواج التي نظمتها كنيسة إنجلترا بنفور متزايد أدى بكثير من مشاهير الرجال والنساء

(١) حاشية بقلم شو :

ان أي بحث في عيوب قانون الزواج في حالته الراهنة لابد وان يخرج بنا من سياق الموضوع ومن ثم لايجمل ادخاله في هذا السياق ، وان كان من المستحسن الاشارة الى الذين يعتبرون الزواج نظاماً مقدساً لايمكن انتهاكه او الخروج عليه . والواقع ان الضرورة قد اكرهتنا على العبث به عسافاً فاضحاً لدرجة انه الان (١٨٩١) وامام اعلى محكمة في المملكة ، يقف زوج وزوجة ليحكم بينهما القضاء : يقول الزوج هل للمرأة ان تحمله كافة مسئوليات الزوج ثم ترفض ان تعيش معه ؟ وتتساءل الزوجة قائلة : هل يسمح القانون لزوجها بأن يرتكب في حقها جرائم الاختطاف والسجن والاغتصاب (وما اقرب هذا بنظام بيت الطاعة عندنا - ع.م.) ؟. فلو قالت المحكمة للزوج نعم ، أصبح الزواج عقدة لايمكن حلها ، وشيئاً لايطيقه الرجال . واذا قالت للزوجة نعم أصبح الزواج جحيماً لايطاق بالنسبة للنساء . ومن الواضح ان الفرصة ينبغي ان تتاح لفصم عرى هذه الزيجات وامثالها اذا كان لنظام الزواج كله ان يبقى ويدوم. ان اتاحة هذه الفرصة امر ضروري الى ان تتاح للمجتمع نفسه طريقة أخرى او نظام اخر يحل محله ويقوم بوظيفته . وهكذا يضطر نظام الزواج في سبيل استمرار النسل وبقاء النوع ، الى اباحة الطلاق والتوسع فيه ، كالسجين الهارب الذي يضطر لتعطيل ذئب يقتفى اثره ، لان يقطع له اجزاء من قلبه . ولقد حكمت المحكمة في القضية المشار اليها لغير صالح الزوج . غير ان إنجلترا ما زالت متخلفة وراء أوروبا البروتستانتية في ادخال التعديلات الضرورية على قانون الطلاق . انظر مقلمتي في مسرحية « زواج » التي تزود القارئ بالبحث الذي يخرج عن نطاق هذه الملاحظة العابرة « سنة ١٩١٢ »

الى نبذ البنود الخاصة بأهداف الزواج كنظام ، وبالرغم من ذلك فليس من المرجح أن نستغنى عن الروابط والالتزامات الشرعية وأن نضع كل ثقتنا في دوام الحب، حتى لا يتوقف استمرار النسل وبقاء النوع على البيت باعتباره روضة أطفال أو داراً للحضانة وتفريخ الاطفال كما هو حادث الان . ان الحب كعامل فعال يلعب دوره في المجتمع لا يزال مجرد لذة وشهوة . أما تلك المرحلة العليا في تطور الحب ، مرحلة الحب الناضج التي يصفها لنا أبسن ممثلة في شخصية « ربيكا وست » في مسرحية آل روزمرزولم فغير معروف لاكثرنا الا من خلال أوصاف الشعراءالعظام الذين لم يعرفوها هم انفسهم من واقع تجاربهم الشخصية كما تدل على ذلك ترجمات حياتهم - بل عرفوها عن طريق الالهام ، كومضات خاطفة . لقد احب « دانتي » بياتريس هذا الحب السامى ومع ذلك لم يكن دانتي مخلصا لها لا في أثناء حياتها ولا بعد مماتها ، بل ولم يكن مخلصا للمرأة التي تزوجها فعلا . ومن ذا الذى يزعم أن عقله أرقى من عقل دانتي ؟ ان من يفعل ذلك لهو بورجوازي وقح . وقد يموت تانهاوزر (١) وهو يعتقد اعتقادا جازما ان لحظة عاطفية واحدة قضاها مع سانت اليزابث كانت احفل بالسعادة من جميع الساعات التي قضاها مع فينوس في نشوة غامرة . ولكن هذا لا يغفر من الواقع شيئا وهو أن حبه الحقيقي قد بدأ مع فينوس وأن التجارب النهائية التي مر بها في طريقه الى هدفه النهائي قد تخللتها تكسات . . ان افتتان تانهاوزر بفينوس

(١) Tannhauser بطل اوبرا فاجنر المعروفة بهذا الاسم . ولانهاوزر فنان من العصور الوسطى كان موزع القلب بين حبه المقدس سانت اليزابث وشهوته الجسدية لفينوس الهة الحب .

تطور للشهوة البدائية المبتذلة ، تلك الشهوة التي
أحس بها جاك البورجوازي نحو حبيبته
جيل ، وهو تطور أرقى ولكنه في نفس الوقت أخطر من
المادية الانتهازية . الشهوة هي بذرة الفتنة : والفتنة هي
بذرة الحب الأكمل . وعندما قال « بليك » لقومه انهم لن
يتعلموا الاعتدال الا من خلال الافراط كان يعلم ان الطريق
الى الحاضر ، قد مر بفينوسبورج (١) وان الجنس
البشرى لم يهلك ولن يهلك في فينوسبورج حتى وان هلك
فيها بعض الافراد مهما اشفق البوريتاني المتزمت وظن
اننا سنلقى حتفنا جميعا هناك مالم نعر على طريق
آخر يدور حول مدينة الشهوة . ولا شك أن بليك قد
تنبأ أيضا بالزمن الذي سيولد فيه أطفالنا على الجانب
الآخر من الصراط المستقيم ، وبذلك يفلتون من عملية
التطهير الجهنمية ، التطهير بالنار ..

ولكن الحقائق كلها تؤكد أن بليك لا يزال يعتبر عرافا
مجنونا ، وان النقاد التقليديين لمسرحية آل روزمرزولم
لا يزالون يفشلون حتى في ملاحظة تطور افتتان ريبيكا
بروزمرزولم الى ان اصبح الافتتان حبا حقيقيا ، فضلا عن
ان يقدروا ما صاحب ذلك من تجليات اخلاقية رفيعة . وهذه
الحقائق نفسها تبين مبلغ السخافة التي ينطوى عليها
الزعم بأن الزواج الروتينى في هذه الايام هو اتحاد بين
رجال من طراز « وليم بليك » ونساء من طراز « ريبيكا
وست » وان من الممكن انكار الشهوة الجنسية وضرورة
اشباعها لاشخاص لم يبلغوا بعد هذه المرحلة الارقى ،
حتى ولو كان هذا الانكار سياسة رشيدة . ان الاكثريّة

(١) هي مقر فينوس الهة الحب في الاسطورة ، اى مدينة الشهوة
الجسدية

الساحقة من أمثال هذه الزيجات - وهي لا تصمدو أن تكون من قبيل زواج المصلحة - إنما يقبل عليها الناس لاشباع شهوتهم الجنسية وهي في أشد صورها بدائية وفجاجة ، أو وهي مقنعة بتلك الاوهام المثالية التي ينسجها خيال الشباب بكل هذه البراعة المثيرة للاعجاب ، وإن كانت تثير ضحك الشيوخ وسخريتهم العريضة

إذا كان الامر كذلك ، فليس من المستغرب أن ينتهي مجتمعنا الخاضع لسيطرة الرجال المباشرة ، الى أن ينظر «للمرأة» لا على انها شخص ، له كيان قائم بذاته كالرجل ، بل كمجرد أداة لتثير شهوته ثم تتعهد هذه الشهوة بالرعاية والاهتمام . الزوجة المثالية اذن هي الزوجة التي تفعل كل شيء يحبه الرجل المثالي ، ولا شيء آخر . والان أقول انك اذا عاملت شخصا باعتباره أداة لاهداف في ذاته فمعنى ذلك انك تنكر عليه حق الحياة . فاذا كنت أنت ذلك الشخص الذي يلقي مثل هذه المعاملة ، أى اذا كنت الاداة المستخدمة في مباشرة العلاقة الجنسية مع الذين ينكرون حقك في الحياة ، فلن تحتل هذا الوضع ، ولن يحتمله أى انسان . والمرأة التي تتجاسر على أن تنظر بعين مفتوحة الى حقيقة معاملتها دأى هذا الاساس ، ينتهى بها المطاف الى أحد أمرين : إما أن تعيش وهي تكره نفسها وتحتقر وجودها ، واما ان نشور وتعلن العصيان . والقاعدة أنها تشور فعلا اذا مكنتها الظروف من اعلان ثورة ناجحة - كأن تكون عبقرية بالصدفة تمكنها عبقريتها من أن تخسر شخصيتها «كأنشى» دون أن تخسر وظيفتها ، او ان تقطع صلتها بالمجتمع الذي تقدره حق قدره ، غير ان الظروف قلما تمكنها من ذلك فهال تكره نفسها وتحتقر وجودها ؟ كلا بكل تأكيد . أنها بدلا من ذلك ، تخدع نفسها على الطريقة المثالية عندما

ثنگر ان الحب الذى يبدىه نحوها حبيبها موسسوم
بالشهوة الجنسية ، وعندما تعلن انه حب طاهر جميل
خال من دوافع المصلحة ، وأنه شىء سام يمكن كلا منهما
من تكريس حياته للآخر ، وان بفضلها تتطهر حياة
الرجل ويسمو الى أعلى عليين ، وتتقدس حياة المرأة
وتصبح نعيما كلها وبركة . أما الشخص الذى لا يرى
فى عروض الرجل الشريفة التى يتقدم بها الرجل لزوجته
المقبلة ، الا الذكر الادمى وهو يسعى وراء انشاء الادمية ،
فانه فى نظر المرأة المثالية ، أقدر مستهتر بالقيم الشريفة .
والرجل بدوره يعمل على ابقائها سادرة فى أوهامها ، ن
ويثبت هذه الاوهام تثبيتا ، لانه هو نفسه لا يطبق
الحقيقة ولا يحتمل مرارتها ، فهو يريد أن يقيم رابطة
على الحب ، لا ان يبرم صفقة مهينة . ولكن بذرة الحب
الاسمى كامنة فيهما على اية حال — وان كانت حتى لذلك
الحين لا تزيد عن الشهوة التى يخفونها ويموهونها على
انفسهم بغاية الحرص والدقة . وهكذا يأتى السمسار —
والشخص الذى عنيانه لا يزيد عن كونه سمسارا ، ليعقد
صفقة الزواج التجارية . ولكنه يقدم لصفقته بمغازلة
امراته بكلمات الوهم التقليدية ، أى بالحب الرومانسى .
ثم يتم الاتفاق بين الطرفين على زعم أن زواجهما سيحقق
لهما المثل الأعلى الرومانسى للزواج . ثم تفشل الخطة
وتنهار . اذ سرعان ما تتبين الزوجة الشابّة أن زوجها
يهملها من أجل عمله ، وان مصالحه وأوجه نشاطه وحياته
كلها تقع بعيدا بعيدا خارج نطاق البيت فيما عدا تلك
الناحية الجسدية الوحيدة فى زواجهما والتى أشار اليها
ذلك المستهتر القدر من قبل ، وان عملها أصبح يتلخص
فى الجلوس هناك فى البيت ، لتجتر كآبتها وتبلى نفسها
من الحسرة الى ان يتعطف بطلها ويبدى رغبة فيها .

وماذا يمكنها أن تصنعه بعد ذلك ؟ لو انها اشستكت
لاستغنى هو عنها لانه قادر على مساعدة نفسه بنفسه ،
بينما هي تعتمد عليه للمحافظة على مكانتها الاجتماعية
وعلى حياتها وبيتها واسمها وخبرها اليومي القديد (١) .
وعندما تنفجر شكواها وحسرتها ، أول انفجار ، تتجلى
أمامها كل هذه الحقائق ، وتطعنها في الصميم . ولكن
الامور - لحسن حظها - لا تتوقف عند هذا الحد
الى الابد - وان كانت تلك اللحظة أتعس اللحظات في حياة
أى امرأة . ذلك ان احترامها لنفسها الذى فقدته كزوجة ،
تسترده كأم ، وبخدماتها التى تقدمها للمجتمع وأهميتها
فيه كأم وربة أسرة ، وهى بصفتها هذه - صفة الامومة -
تنافس أنجح رجال الاعمال وتتفوق عليه . والان اذا
بالمرأة ، تصبح بضاعة مطلوبة في البيت مطلوبة في السوق
الى جانب الاولاد . وبدلا من ان تبكى المرأة حظها العاثر
لان زوجها مسافر خارج المدينة ، أو يفكر في الاسهم
والسندات والارباح أكثر مما يفكر في امراته المثالية ، اذا
بها تنظر الى بقائه في البيت طول النهار مصدر ازعاج
لا يطاق واذا بها بعد زوال غشاوة الوهم من عينيها
بشأن الحب المثالى ، تجد أن الامور ليست سيئة الى

(١) حاشية بقلم شو :

كان ينبغي على أن ابنه قرائى من الرجال لان يتصرفوا الدقة وهم
يفكرون في هذه الاوضاع . فالزواج في الواقع يهبط بالرجل الى درجة
الاعتماد الكامل على المرأة بما ليس في صالح الطرفين معا . ولكن
المرأة لا تستطيع ان تستبد او تطفى او أن تسوء السلوك ، بينما الرجل
يستطيع ذلك بقوة القانون ، ومع ذلك فلا بد من القول بأن جانباً كبيراً
من القانون الخاص بالتهرب من الالتزامات الزوجية ، قد وضع حداً
لطغيان الرجل ، بل تملاى في ذلك حتى أصبح مجحفاً بالرجل الى
حد كبير . ومؤلفات بلفور باليس مفيدة في هذا الصدد . « سنة

١٩١٢ »

حد كبير على اية حال - وتعود الى الوهم مرة أخرى
فترضى زوجها وتحرص عليه باعتباره أداة غير ضارة
بل نافعة ، نافعة لتزويج أبنائها وبناتها وكفالة الاستقرار
لهم مع أنها تشعر بأنها لو عرفت في اليوم السابق لزواجها
ما عرفته بعد ستة شهور من زواجها ، تصعب عليها أن
تحمل نفسها على الزواج على الاطلاق

ويرضى الجميع بهذا الحل الروتينى المفتقر الى الجمال
والخيال ، ويكتفون به ولكن الى حدود معينة فالمسألة
كلها تتوقف على استعداد المرأة الطبيعى للادارة والتدبير
المنزلى ورعاية الاطفال - وهو استعداد جاءها بمحض
الصدفة .. كما أنها تتوقف على ما يتمتع به الرجل
من لين جانب ولطف معشر بحيث يمكن معاشته
بصورة معقولة . ومن هنا ينشأ الوهم المثالى الآخر ،
الذى يصف موهبة الادارة والتدبير المنزلى ورعاية
الاطفال ، بأنها موهبة فطرية مركبة في جميع النساء
منذ الازل ، وان المرأة التى تفتقر اليها ، ليست امرأة على
الاطلاق ، وينبغى ادراجها في ذلك الجنس الثالث الذى
لا هو بالنساء ولا هو بالرجال ، جنس بشكرتسييف .

وحتى اذا صح هذا فان النسوة اللواتى من طراز
بشكرتسييف اذا ما أتبع لهن حق الحياة ، وجب أن يباح
لهن حق اقامة النظم الملائمة لهن كما يباح لغيرهم من
الرجال والنساء على السواء ، ولكنه ليس هو الواقع .
فوظيفة التدبير المنزلى لم تعد وظيفة طبيعية ولا
فطرية فى جميع النساء ، الا اذا كانت الوظيفة العسكرية
طبيعية وفطرية فى جميع الرجال مع العلم بأنه فى حالة
وقوع ازمة فى تعداد السكان ، فقد يكون من الضرورى
على كل امرأة قادرة ان تخاطر بحياتها فى ولادة الاطفال
وفى البقاء بجوار اسرتهم تماما كما يحدث عند وقوع

أزمة عسكرية عاجلة ويكون من الضروري على كل رجل قادر ان يخاطر بحياته في ميدان الحرب . وحتى في هذه الحالات الاستثنائية فلن تكون النتيجة - بأى حال من الاحوال - ان تترث المرأة في دماؤها مواهب التدبير المنزلى ، أو أن تبض ائداؤها باللبن . من الصحيح تماما بالطبع ، أن أكثر النساء يحملن للأطفال عطا وحنانا ، ويفضّلن أطفالهن على اطفال الآخرين ، غير أن هذا يصدق أيضا على الرجال . مع أن الرجال لا يرون في دار الحضانة مجالهم الطبيعي للعمل . ويمكن اعطاء صورة كاريكاتورية للقضية ، بالقول ان أكثر النساء اللواتي يحتفظن بكلاب مدلة يحملن لها العطف والحنان ، ويفضّلن كلابهن على كلاب الآخرين ومع ذلك فليس هناك من يقترح على النساء أو يدعوهن الى حصر نشاطهن في تربية الجراء . ولو انتهى بنا الظن الى أن دار الحضانة والمطبخ هما المكان الطبيعي للمرأة على النحو الذى انتهى به ظن الاطفال الانجليز الى أن القفص هو المكان الطبيعي للبيغاء لان أطفال الانجليز لم يروا في حياتهم بيغاء واحدا خارج القفص . ولا شك ان هناك بيغاوات مادية انتهازية يوافقون سيجانيهم على أن الحياة داخل القفص افضل لهم من الحياة خارجه ما دام القرطم متوفرا هناك . بل قد يكون هناك بيغاوات مثالية تقنع نفسها بأن رسالة البيغاء فى الحياة ، هى فى أن يعمل على اسعاد وتسليه الاسرة التى تملكه ، بالصغير وبالترنم بأغنية « بولى الجميلة » وأن البيغاء الكامل الذى يضحي بحريته فى سبيل هذا الهدف « الانسانى » النبيل ، انما يجد الاشباع الاسمى لروحه . ولن اتمادى فأؤكد ان هناك بيغاوات دينية مقتنعة كل الاقتناع بأن السجن هو ارادة الله ، لان السجن قطعة من العذاب ، ولكنى واثق من أن هناك بيغاوات منطقية

سفسطائية يمكنهم أن يثبتوا أن هناك قسوة رحيمة عاقلة
وأن هناك رحمة قاسية بلهاء ، وأن من الرحمة القاسية
البلهاء أن نطلق سراح البيغاء ليقع فريسة للانطط أو الطيور
الجارحة ، أو على الأقل لينسى ما تعلمه في سجنه القاسي
الرحيم من فنون الغنى والصغير ، فضلا عما قد يؤدي
إليه صراعه في سبيل البقاء وهو بدون حماية من تشويه
لحباله الصوتية الرقيقة واصابتها بالخشونة . ومع ذلك
فالبيغاء الوحيد الذى يمكن للانسان المتحرر أن يتعاطف
معه هو البيغاء الذى يصر على إطلاق سراحه لأن إطلاق
سراحه أو حريره هي أول شرط لأن يكون طائر مرغوبا فيه .
قد تقول : ياله من طائر أنانى ، يشبع حاجته الخاصة قبل
أشباع حاجة الأسيرة التى أولعت به إلى هذا الحد - أى
قبل تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس (١)
طائر يقلد الانسان بروحه المستقلة وبذلك يلغى صفته
كبيغاء ، فقد طبيعته كطائر منزلى وليست له قوة الصقر
الجارح ولا جرأته . ولكنك مهما قلت فيه ، فأنت تحترمه
بالرغم من منطقك الجبار المحكم . فإذا ما أصر البيغاء على
ركوب رأسه والسير فى خطته ، فليس أمامك إلا أحد
شيئين : أن تطلق سراحه أو أن تقتله

والخلاصة ، أن المرأة : إذا لم تخلع عنها صفتها كامرأة
كاملة وتطرح عنها واجبها نحو زوجها ونحو أولادها ونحو
المجتمع ونحو القانون ونحو أى انسان آخر غير نفسها ،
فلن تتمكن من تحرير نفسها . ولكن واجبها نحو نفسها
ليس بواجب قط لأن الدين يلغى من تلقاء نفسه ، عندما
يكون الدائن والمدين هما نفس الشخص ، ويكون سداد

(١) يعرض شو بشعار النفعيين أو المنفعيين **utilitarians**
وكان مذهبهم مائلا في انجلترا في أواخر القرن الماضى أبان نشر كتابه

الدين في هذه الحالة، هو بكل بساطة في تحقيق ارادة الفرد التي ترى في كل واجب عليها قيда على حريتها على أساس التصور المثالي للارادة الفردية بأنها بطبيعتها ارادة خبيثة وشيطانية . وعلى هذا يتعين على المرأة أن ترفض كلمة الواجب برمتها . ففي هذا الرفض ، تكمن حريتها . اذا قلت ان المرأة الان جارية للرجل بشكل مباشر ، فربما خالفت الحقيقة ، ولكن الحق أنها جارية للواجب بشكل مباشر . وكما ان طريق الحرية بالنسبة للرجل كان ولا يزال مملوءا بحطام الواجبات والمثل العليا التي حطمها ووطأها بقدمه ، فكذلك ينبغي أن يكون طريق المرأة الى الحرية . وقد تعدد المرأة الى اخفاء رغبتها الهدامة في تحطيم الاصنام ، فتحاول كما فعل الرجل - في سبيل أن تتمتع بحياة هادئة مستقرة ، أن تقنع نفسها على الطريقة المنطقية ، بأن تحررها سيدعم ويعزز جميع القيم المثالية التي أهملت او انتهكت ، بدلا من ان يقضى عليها وينسفها نسفا . مثل هذه الحجج والتعلات سهلة جدا بالنسبة للشخص الذي لديه استعداد لفهم الطريقة المنطقية سهولة العزف على البيانو لبادريرفسكى (١) ، ولكن لا نصيب له من الصدق او من الحقيقة . فان ملء سلة كاملة من المثل العليا - وان كانت أكثرها قداسة - سوف تنسف نسفا في اللحظة التي تتحقق فيها المساواة الكاملة بين النساء والرجال (٢) . اما الذين يشفقون فزعا وهولا ، من الصوت

(١) I. Padcrewski - ١٩٤١ عزف البيانو البولندي الشهير والمؤلف الموسيقى . كان رئيسا للوزراء في بولندا بعد الحرب العالمية الاولى ولكنه استعفى بعد عشرة شهور

(٢) لم تحقق هذه المساواة الكاملة في انجلترا سواء في الحقوق الزوجية أو في الحقوق السياسية ، الا بعد أربعين عاما تقريبا في سنة ١٩٢٩

المنبعث من البناء القديم وهو يتصدع وينهار من القواعد،
فلهم أن يطمئنوا أنفسهم عندما يدركون أن عملية استبدال
الحطام بشيء جديد ، ستتم بسرعة • انها دائما تسير على
طريقة : « مات المثل الاعلى ليحيا المثل الاعلى » (١) • أما
ميزة التدمير والنسف والهدم ففي أن كل مثل أعلى جديد
يحتوى على قدر من الوهم أقل مما كان يحتوى عليه المثل
الاعلى السابق الذى احتل مكانه ، بحيث يكون الشخص
الهدام ، ناسف المثل العليا ، ومحطم الاصنام، وان استنكره
الناس ونظروا اليه شزرا كعدو للمجتمع ، هو فى حقيقة
أمره انسان يعمل على كنس الدنيا وتطهيرها من الاكاذيب

(١) على وزن « مات الملك ، ليحيا الملك » • شعار الملكيين المحافظين

شور و إيسن - مغزى المسرحيات

تتلخص الفكرة الأساسية في المسرحيات التي كتبها إيسن في أن العبودية الحقيقية في الوقت الحاضر هي العبودية للمثل العليا : العبودية لمعانى الطبيعة والصالح والخير . وربما تعجب القراء الذين تأملوا في إيسن من خلال عوينات مثالية - من قدرتي على تحريف أقوال شاعر عظيم الى هذا الحد ، والواقع انى أعرف ان الكثيرين ممن سحرهم الشاعر وأذهلهم بما في المسرحيات من رائع الشعر وبلغ النظم ، سيفسرونها تفسيراً آخر غير الذى قدمه إيسن نفسه بأوضح عبارة على لسان « مسز الفيچ (١) » و « رلنج » (٢) والآخرين . فليس هناك كاتب عظيم يستخدم براعته وعبقريته في اخفاء المغزى الذى يرمى اليه . هناك قصة رواها أحد مشاهير الاسكتلنديين (٣) وهى خليقة بأن تصدر عن إيسن لو كان إيسن هو الذى

(*) الفصل السابع ، من جوهر الإيسنية الطبعة الثالثة كونستابل وشركاه لندن ١٩٢٢ وكانت الطبعة الاولى فى سنة ١٨٩٠

(١) بطلة مسرحية « الاشباح »

(٢) الطبيب فى « البطلة البيرية »

(٣) سير وولتر سكوت والرواية هى The Heart of Medlothian وجين دينز هى بطلة الرواية

وقع عليها أولا : لقد ضحكت « جيني دينز » بحياة اختها على عود المشنقة في سبيل قول الصدق ، وقول الصدق هو أحد المثل العليا . وتلك تضحية أبشع وأفظع من تضحية روز مرز فضلا عن أن الطريقة التي أنهى بها سسكوت قصته ليست بالحل الملائم للمشكلة الاخلاقية التي اثارتها بل كانت مجرد تهرب صياني منه . فعندما بلغت الرواية ذروتها لم يجرؤ على شئ « ايفي » في سبيل مثل « جيني » العليا (١) . ومع ذلك فاذا كان لي أن أزعّم أن سيكون كتب رواية « قلب ميدلوثيان » ليبين أن الناس يساقون سوقا لارتكاب أفعال شريرة وغير طبيعية واجرامية بوحى من مثلهم العليا الدينية والاخلاقية كما يساقون لارتكابها بوحى من أحقادهم ومطامعهم فمن السهل دحض هذا الزعم من سطور الرواية نفسها . ولو حاول أحد أن يزعم أن « الاشباح » هي مجرد جدل يدور لتأييد نظام الزواج الكاثوليكي بوحدة ، الذي لا يمكن فصم عراه ، أو ان « البطة البرية » لم تأت الا للدعاية لقول الحقيقة من أجل الحقيقة نفسها ، فأولى به ثم أولى أن يحرق نص المسرحيتين لو كان لزعمه هذا أساس واحد ينهض عليه . أما الذين

(١) حاشية بقلم شو :

كثيرا ما يعرض على المسرح الحل المنطقي للمشكلة الاخلاقية مؤيدا جانب الاخلاق والفضيلة ، غير أنني منذ سنوات عديدة شاهدت عرضا لميلودراما مقتبسة من هذه الرواية نفسها ، وعلى اثر مشهد المحاكمة الاليمة الذي تدين فيه « جيني دينز » اختها وتحكم عليها بالموت بعد أن رفضت أن تقسم على صحة واقعة هي بريئة منها تماما ، جاء مشهد في السجن ، قال السجناء فيه : « لو كنت مكانك لاقسمت حتى على وجود ثقب في قدر « الحديد » . وأعقب قوله عاصفة من التصفيق تعالت من الصالة والشرفات وتدل على مشاعر ابسنية كاملة عند الجمهور وكانت العبارة مجرد حشو أدخله الممثل على النص من بديته . فلم أتمكن على أية حال من العثور عليها في النص المطبوع

(٢) مسرحيات ابسن ، لم تترجم بعد فيما أعلم

ينفرون من « الاشباح » وتتسع صدورهم لرواية « سكوت »
فليس ذلك لانها أقل فظاعة وبشاعة ، ولكن لان آراء
سكوت آراء مألوفة لدى جميع السيدات والسادة من ذوى
الرتب العالية والاصل العريق ، بينما كانت آراء ابسن فى
حينها آراء غريبة عليهم بدرجة لا يمكن تصورها . ان ابسن
شاعر عظيم . والشخص المثالى يتردى فى ورطة محيرة
يعجز فيها عن ان يتصور ان صدر مثل هذا العبقرى يمكن
ان ينطوى على أى معنى حقير او أية فكرة ذميمة ، ومع
ذلك فهو عاجز بالمثل عن ان يدرك المعنى الحقيقى لافكاره
على أى نحو آخر ، الا أنه معنى حقير ذميم . وهكذا يفوته
المغزى تماما ، على الرغم من وضوح ابسن واصراره على
هذا الوضوح ، ثم يمضى ذلك المثالى ليضع لنفسه مغزى
اخر يلائمه هو ، ويتفق مع مثله العليا من الشرف والنبل
... الخ

ويبدو أن عطف ابسن العميق على شخصياته المثالية فى
مسيرحياته ، يزيد من حيرة قرائه المثاليين . فما دامت
المثالية شديدة الولع بنقط الضعف فى الشخصية الانسانية
فإن النماذج البشرية للغرور وال فشل والإنانية والحباقية -
وهى أحفل النماذج التراجيدية بالفجيرة والحسرة ، ليست
فى عينها أشرارا مبتدلين ، بل قد تصلح كأبطال فى أى
ميلودراما عادية . « براند » و « روزمر » يسوقان
الى الموت أحياءهما ، ويفعلان ذلك بكل ما فى الانسان
السوفوكليسى أو الشكسبيرى الطيب المظلوم الذى يضطهده
القدر ويغلبه على أمره ، ويفعلان ذلك وهما محاطان بأجواء
رائعة جميلة ، « هيلدا فانجل » التى تقتل « البناء
العظيم » لتتسلى بقتله ، هى أشد الشخصيات النسائية
سحرا ، ومن أجدر بطلات الدراما بالعطف والاشفاق . ان

الشخص « المادى » العادى لا يرتكب مثل هذه الفظاعات، فهو يتزوج المرأة التى يولع بها ، ويعيش معها سعيدا على نحو أو آخر ويخلفان صبيان وبنات ، ولكنه لا يفعل ذلك لانه أعظم من « براند » أو « روزمر » بل لانه أقل منهما قدرا . أما « المثالى » فهو حيوان أشد خطرا من « المادى » ، كالإنسان الذى هو حيوان أشد خطرا من النعجسة فى القطيع . ومع ان « براند » قتل زوجته عمدا ، فأنى يمكننى أن أتصور عددا عديدا من النساء تزوجن من رجال ماديين لطاف المعشر ، ويعشن معهم فى راحة بال - وهن يقرأن المسرحية ويحسدن زوج الضحية - ذلك ان زوجة « براند » بعد ان قدمت التضحية التى فرضها عليها زوجها تقول انه كان على حق وانها الان سعيدة وانها ترى وجه الله ، ثم تذكره بأن كل من يحتضر يرى وجه الاله « يهوه » رأى العين ، فيضع يده على عينيها بطريقــة غريزية واذا به يرتفع فى الحال بهذه الحركة ، الى ما فوق مستوى النقد الذى يسخر من المثالية القادمة من اسفل ، الى أجواء أثرية علوية صافية لا يمكن الصعود اليها الا من خلال الضباب والغمام

ولو أنى عمدت خلال روايتى للمسرحيات - (١) الى اصدار أحكام مفتعلة على اخطاء الشخصيات المثالية على أساس معايير الحياة المثالية التى تساموا اليها ، بدلا من معايير الحياة الواقعية التى تقاصروا دونها لفشلت حتما فى ايضاح موقفى مع الاحتفاظ بقدر معقول من الاحترام لعقلية القارئ . ان المعايير الدقيقة للاخلاق الواقعية وان لم يتضمنها الكتاب المقدس . . . قد تخلفت عن العصور ونسيتها الناس، ولولا أن ابسن أرغمنى، لما كنت مكرها على استخدام

(١) شغلت رواية شو للمسرحيات عدة فصول فى « جوهر الابسية »

هذه المعايير ، بل لاستخدمت معايير أخرى لكي اتحاشى
تعارضها مع المعايير السائدة الدارجة

وهذا على أية حال - شيء غسير ذى بال ، اذا قورن
بالصعوبة البالغة التى تنشأ من عادتنا المتأصلة - عادة
تقييم وتصنيف الناس فى خانات ثابتة وتسميتهم أسماء
مجردة على حسب صفاتهم الشخصية دون أى رجوع الى
أرادتهم التى تقف وراء هذه الصفات وتتحكم فيها . ففى
أحد الاحتفالات السنوية التى كانت تقام فى ذكرى كوميون
باريس (١) صدمنى من خطباء الحفل ، ان أحدا منهم
لم يذكر الفيدراليين فى خطبته بكلمة رثاء واحدة وهو
تصرف غير لائق بالنسبة لفلاحى الفنديه الذين حاربوا
فى صف ظالمهم ضد الثوريين الفرنسيين وماتوا ، كما لم
يذكر أحد كلمة رثاء فى الايرلنديين وأهالى الجبال الذين
حاربوا فى سبيل آل ستيوارت وخاضوا معارك بوين أو
كالودين (٢) . وكل ما قيل من عبارات الرثاء فى الضحايا

(١) Commune of Paris سنة ١٨٧١ أول حكومة ثورية
اشتراكية منتخبة من العمال ، استولت على مقاليد الامور فى باريس
بعد انسحاب جيوش الحكومة البورجوازية منها على أثر هزيمتها التامة
امام الجيوش البروسية التى غزت فرنسا واحتلت مشارف باريس فى
حرب السبعين . ولم يستمر الكوميون أكثر من شهرين ثم سحق بوحشية
بالغة على أيدي جيش جديد شكله « تير » رأس الحكومة الفرنسية
البورجوازية من فلاحى فرنسا والفنديه ومن أسرى الحرب الفرنسيين
الذين أطلق الالمان سراهم خصيصا لقمع ثورة باريس الاشتراكية
وكان من بين رجال الكوميون Communards شيوعيون دوليون
ويعاقبة وأنصار بلانكى وفيدراليون فوضويون كانوا يسعون لاقامة
حكومات فيدرالية فى جميع أنحاء فرنسا على قرار الكوميون ولكن مساهمى
الجميع حبطت بسقوط الكوميون . ويحتفل الاشتراكيون على اختلافهم
فى جميع أنحاء العالم بذكرى سقوط الكوميون كل عام
(٢) Culloden and Boyne أسماء مواقع فى اسكتلندا ، كانت
مسرحا لمعارك دامية بين بيت آل ستيوارت الملكى والاسكتلنديين وانهزم
فيها الاسكتلنديون فى سنة ١٧٤٦

من أعضاء الكوميون أنهم أبطل ماتوا في سبيل مثل أعلى نبيل . وهذه العبارات لن تفيد كثيرا في تنوير المستمع الأجنبي الخالي الذهن عن الموضوع ، بل كانت على العكس جديرة بتضليله وتركه في الظلام كما فعلت به بالضبط عبارات الهجاء التي كان من المؤلف أن تظهر على صفحات جرائدنا ، وتصف ضحايا الكوميون بأنهم سفاكون سفاحون هدامون الى آخر هذه التعوت والوصاف . ومرتباتنا وأهجيننا ، على العموم ، هي نماذج للغموض والتضليل . وعندما نوقشت قضية الإبنسية لأول مرة في إنجلترا لم تكن هناك شخصية أكثر حظا من الشعبية واثارة الاهتمام من تشارلز برادلو (١) الخطيب المفوه والملحد الزنديق الذي توفي أخيرا بفضل ما كان يتمتع به من مزايا وسجايا واضحة . فلم يكن له شبيه ولا مثيل بين الأعضاء البارزين في مجلس العموم - ومع ذلك فقد ظهرت بعد وفاته نفس السلسلة المألوفة من المراثي التي تصفه بالفصاحة وبالجزم والعزم والاستقلال الفكري والحكمة والمنطق القوى وما الى ذلك . ولو حذفت من هذه المراثي الاسماء وبعض الحواشي والتفاصيل ، لما استطاع قارئها أن يحدد موضوعها : أهى في رثاء «جلادستون» أم لورد «مورلي» (٢) أم «وليم ستيد» أو أى شخص آخر لا يشبه برادلو ؟

(١) Charles Bradlaugh ١٨٢٣ - ١٨٩١ السياسي البريطاني التقدمي وعضو مجلس العموم اشتهر بالحاده ورقضه القسم على الكتاب المقدس أمام المجلس وقد سجن بسبب دعوته الى تحديد النسل وكان يسمى نفسه «محطم الاصنام» وله كتاب بعنوان «ثمار الفلسفة»

(٢) Lord J. Morley ١٨٢٨ - ١٩٢٣ السياسي الليبرالى والكاتب الصحفى ومترجم حياة جلادستون

شيء أكثر مما يشبه «غاريبالدي» (١) أو الكاردينال نيومان المتوفى أخيرا والذي كانت مراثيته خليقة بأن يعاد طبعها في مناسبة وفاة برادلو دون أن يلاحظ أحد تناقضا كبيرا أو خروجاً شديداً عن الموضوع . ولقد كان برادلو في أيام شهرته موضوعاً يومياً لمختلف المقالات والتعليقات الصحفية . فمنذ ثلاثين سنة مضت عندما حسبت الطبقات الوسطى أنه شخص ثوري أحاطت الصحافة عنقه بسلسلة من الاوصاف الشريرة وركزت تركيزاً شديداً على الحادة وزندقته ، وأكدت أن السماح بدخوله البرلمان أهانة موجهة إلى الله سبحانه . فلما اتضح للبورجوازية أن برادلو قوة معادية للاشتراكية في المجال السياسي ، استبدلت الصحف في الحال بسلسلة الشتائم البذيئة التي أحاطت بها عنقه ، عقداً نضيداً من الاوصاف الحسنة والنعوت الطيبة مع أن الرجل لم يتزحزح عن الحادة وزندقته قيد أنملة . وأي شخص خالي الذهن ، لن يجد في سلسلة الشتائم أو في عقد المدائح الدليل الذي يهديه لمعرفة أي رجل من الرجال كان برادلو: أهو من طراز أوليفر كرومويل (٢) أم « وات تايلر » (٣) أم « جاك كيد » (٤) أم « بن » (٥) أم

(١) G. Garibal'di ١٨٠٧ - ١٨٨٢ الزعيم الوطني الإيطالي المعروف واحد دعاة وحدة إيطاليا وبطل كثير من معارك تحرير شعوب أمريكا اللاتينية . كان يعد في نظر أوروبا في القرن الماضي رمزا للبطولة ومثلاً أعلى للزعيم الوطني الروماني

(٢) Oliver Cromwell ١٥٩٩ - ١٦٥٨ حاكم بريطانيا المطلق بعد أن قاد ثورة البورقانيين وقطع رأس الملك شارل . وهو الذي وطد دعائم البورجوازية الانجليزية وخرج بها من عصر الاقطاع

(٣) Wat Tayler قائد ثورة الفلاحين الانجليز أيام وباء الطاعون الاسود وقد قتل الملك ريتشارد الثاني في حضرته

(٤) Jack Cade تاجر إيرلندي ضد فساد القصر وظلمه . شنق في سنة ١٤٥٠

(٥) W. Penn ١٦٤٤ - ١٧٦٨ مؤسس ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة واحد زعماء الكويكرز

« ولبرفورس » (١) أم « ولنجتون » (٢) أو المرحوم مستر « هامبدن » الشهير بتعصبه الشديد لفكرة أن الأرض ليست كروية بل مسطحة - أم برودون أم كبير أسانفة كنتربرى - على حسب هذه المزايا أو المعايير التي خلعتها عليه الكتاب على نحو أو آخر ؟ ان كافة الصفات والنعوت التجريدية تافهة تافهة ، وتفاهتها امر ملموس كل يوم في الواقع العملي . تعال أمام جمهور من الناس واتهم أحد الغرباء عن بلدهم بأنه لص وجبان وكذاب فستجد ان الجمهور سيرجىء حكمه عليه الى ما بعد أن تجيب أنت على هذا السؤال : ماذا فعل الرجل ؟ فاذا حاولت أن تصفه بصفات طيبة كأن تقول عنه انه شجاع مستقيم صاحب مبادئ عالية ، جاءك منهم نفس السؤال قبل أن تمتد يد واحدة يبنس واحد تضعه في القبعة التي تدور بها عليهم ..

وعلى هذا ، ينبغي للقارىء أن يسقط من حسابه تلك الاحكام المتحيزة التي سمحت لنفسى باصدارها وتلك المعايير التي اتبعتها او اعربت عنها في روايتى للمسرحيات انها تبعد بنا عن حقيقة القصد منها ، فلو جاء ناقد فوصف « هيدا جابلر » بأنها « لوكريشيا » (٣) العصرية فضلت الموت على العار ، ووصف « تيا الفستد » بأنها بغى منبوذة

- (١) W. Wilberforce ١٧٥٩-١٨٣٣ داعية تحرير الرقيق في انجلترا بعد أن ظلت حكومات بريطانيا وملوكها وملكاتها يتاجرون في الرقيق طوال أربعة قرون كاملة في مستعمراتهم التي لا تغرب عنها الشمس ، صدر قانون تحريم تجارة الرقيق سنة ١٨٣٣
- (٢) Duke of Wellington ١٧٦٩-١٨٥٢ القائد البريطانى الذى هزم نابليون فى ووترلو ولعب بالدوق الحديدى وقوى رئاسة الوزارة وكان بطلا معبودا فى انجلترا فى اوائل العصر الفيكتورى
- (٣) Lucritia السيدة الرومانية المشهورة فى الاساطير بالطهارة والعفة، اغتصبها سكتسوس وطعنت نفسها حتى الموت اتخذها شكسبير موضوعا لقصيدته اغتصاب لوكريشيا

خاتمة للعهد هجرت الرجل الذى أقسمت على حبه واحترامه وطاعته حتى الموت فان فى المسرحية من الشواهد والادلة ما يثبت صحة الوصفين . فاذا مضى الناقد وقال ان ايسن يتصد بوضوح أن يوحى بأنه يفضل سلوك « تيا » على سلوك « هيلدا » لانه جعل نهاية تيا اسعد من نهاية هيلدا ، فان المغزى من المسرحية يصبح مغزى شريرا ، وهو شئ محال ومناقض للواقع . فاذا جاء ناقد آخر يدافع عن مسرحية الاشباح كما فعل ناقد بيكاديللى الدرامى ، لانها أضفت على شخصية القسيس « ماندرز » النقى الورع صفاء قدسيا وسلاما ربانيا فان مثل هذا التقرىظ يكون بمثابة المصيبة المهلكة والبلاء النازل الذى لا يمكن اتقاؤه . واذا سميت « مسز الفنج » بالمرأة المتحررة أو بأنها امرأة بلا مبدأ ووصف « الفنج » بأنه خليع فاسق أو بأنه ضحية من ضحايا المجتمع ، واذا وصفت « نورا » بأنها امرأة شجاعة لا تهاب وان لها قلبا نبيلًا أو انها كذابة تافهة وتصدمك بكذبها وبتفاهتها وانها أم غير طبيعية ، واذا وصفت « هيلمر » بأنه كلب أنانى حقير أو بأنه زوج نموذجى بحسب تحاملك عليهم أو تحيزك لهم ، فانت فى الواقع تقول شيئًا هو فى نفس الوقت صحيح وزائف معا . ولكنه على الحالين قول سمج وعقيم ولا غناء فيه على الاطلاق ..

ان القول بان اتجاه مسرحيات ايسن اتجاه لا أخلاقى بمعنى أنه مناف للفضيلة قول صائب تماما . والاتجاه الا أخلاقى لا يعنى بالضرورة السلوك الشرير المرذول بل قد ينطوى على سلوك شرير أو على سلوك غير شرير ، ولكنه فى كلتا الحالين اتجاه لا يتفق مع المثلى

العليا السائدة . ان جميع الاديان تبدأ دائما بالثورة على الاخلاقيات الجاهزة المعدة سلفا . وجميع الاديان تفنى وتتلاشى في اللحظة التي تتغلب عليها فيها الاخلاقيات الجاهزة المعدة سلفا ، فتذهب بكلمات الخير والخطيئة لتأتي بكلمات الاخلاق والا أخلاق . وعندما يخطط «بانيان» مدينة للاخلاق بما فيها من مواطنين قياديين كالمستر قانون « ليجاليتي » والمستر « تمدن سيفيليتي » يحرص على أن يجعل موقعها قريبا من مدينة الخراب . ولو فعل بانيان فعلته هذه في الولايات المتحدة اليوم لوضع في السجن عقابا له . أما أنا فقد ولدت في ايرلندا في منتصف القرن التاسع عشر ولكن كانت تسودها روح القرن السابع عشر ، وفي وسعني أن أذكر كيف كان الناس يشتبهون في الاشخاص الذين يتكلمون كثيرا عن الاخلاق ويهتمونهم بقراءة مؤلفات « توم بين » (١) هذا اذ لم يهتموهم بالالعاد والولوج فيه حتى الاذقان . ان هجوم ابسن على الاخلاق ظاهرة من ظواهر احياء الدين لا من ظواهر القضاء عليه . ويجلس ابسن بلا شك مع الانبياء جنبا الى جنب عندما كرس نفسه وحياته لايضاح حقيقة ان روح الانسان في حالة نمو دائم بحيث تعلو دائما وبصفة مستمرة فوق المثل العليا ، وعلى هذا فان اي انسجام تلقائي مع المثل العليا السائدة بلا وعي وبلا تفكير ، يتسبب دائما في حدوث فواجع وفضائح لا تقل بشاعة عن الفواجع والفضائح التي تحدث من انتهاك حرمة هذه المثل العليا انتهاكا تلقائيا بلا وعي وبلا تفكير

(١) Thomas Paine ١٧٢٧ - ١٨٠٩ المفكر الثوري والسياسي الأمريكي الذي تجنس بالجنسية الفرنسية عند قيام الثورة الفرنسية مؤلف كتب Common Sense وعصر العقل Eye of Reason « ترجم » وحقوق الانسان Rights of Man « ترجم »

•• ان الاساس الذى تنهض عليه مسرحيات ايسن اذن ،
انها تضع أمام أنظار الجمهور فى كل وقت أمرا بالغ
الاهمية : ان يكون الانسان على الدوام ، متأهباً لان
يتصرف تصرفات لا أخلاقية ، ان يكون على استعداد دائم
وفى كل وقت لان يتناقض مع الاخلاق السائدة الجاهزة .
ويذكر ايسن الناس ان عليهم أن يقولوا الصدق وأن
يستسلموا للحقيقة كما يستسلمون لدواعى الحشمة
وأصول اللياقة فيمسكون ألسنتهم عن قول الصدق ، ويحذر
النساء اللواتى لا يستطعن أو لا يرغبن الزواج من أن
المبررات التى يقدمها لهن المجتمع للاحتفاظ بعذريتهن
وحصانتهم ، يمكن أن تكون من قبيل الاغراءات التى
تغريهن بالتفريط فى عذريتهن وبانجاب اطفال غير
شرعيين ، وكل ذلك هو مما يوحى به اليهن الاخسرون ،
أو توحى به اليهن نوازعهن الشخصية : ان القرار العملي
الحاسم الذى ينبغى عليهن اتخاذه يتوقف على الظروف
تماما كما يتوقف عليها القرار العملي الحاسم فى الاختيار
بين المشى على الاقدام أو استدعاء تاكسى مهما بدا القرار
تافها أو بدت الظروف المحيطة به أهون من ذلك شأننا .
ويحتج ايسن على الاعتقاد المألوف بأن هناك قواعد
أخلاقية معينة تبرز جميع الوسائل المستخدمة للمحافظة
عليها والحرص على اتباعها بدقة ، ويصر على أن الهدف
الاسمى هو الهدف الملهم الخالد الذى هو فى حالة نمو
أبدية لا ذلك الهدف الخارجى المصطنع الجامد الذى لا
يتغير ولا يتطور ولا ينمو ، العبرة ليست فى الشكليات
بل فى الجوهر والروح ، العبرة ليست فى نصوص العقد
وشروطه وبنوده ، بل فى الغرض المقصود من العقد ،
العبرة ليست فى شكل القانون بل فى موضوعه وروحه
بل العبرة ليست فى القانون المجرد بل فى ارادة الانسان

الحية • وما دامت ارادة التغيير - تغيير عاداتنا - اى الارادة التى تتحدى الاخلاق الجاهزة تنشأ دائما قبل أن يتمكن العمل البشرى من أن يتبين من وراء ذلك التغيير هدفا نافعا للجنس البشرى ، فستظل هناك فتيرة من الزمن يستطيع الفرد الحر ذو الارادة الحية ان يمسك فيها عن القول او الشرح او التفسير ، او لا يقول اكثر من انه يريد أن يتصرف تصرفا لا أخلاقيا أو مناقضا للإخلاق الجاهزة لا لشيء الا لانه يحب ذلك ويرغب فيه ويشعر بانه سيكون تعسا وبائسا بل اشقى الناس اذا تصرف على نحو اخر • ولهذا السبب فمن اشدد الامور اهمية وخطورة ، أن يهتم كل منا بشئونه الخاصة • أو بالمعنى الدارج ان نكون فى حالنا وان ندع الاخرين يفعلون كما يحلو لهم ما لم نتمكن من اثبات وقوع ضرر فعلى - ضرر يزيد عن مجرد الصدمة التى تثير مشاعرنا الشخصية واحقادنا المتحاملة • ومن السهل ان نقدم أمثلة ثورية على تلك الأفعال والتصرفات - ولكن من الصعب أن نضع خطا فاصلا لها ، وان نقول انها لن تحسم فى الواقع بالقوة البدنية المجردة فى كل حالة تقريبا ، غير أن التمييز بين الضار والنافع بما يحقق الاغراض المألوفة للحكومة والمجتمع هو شيء عملي ومعقول جدا • والحقيقة الواضحة كل الوضوح ، هى أن الناس والمجتمع لن يضاروا بشيء اذ ما اصابوا من آن لآخر بصدمة فى مشاعرهم الشخصية وفى احقادهم المتحاملة ، بل ان المثال هذه الصدمات ضرورية ، ضرورة مطلقة لتقديم المجتمع ، وينبغى أن يصاب بها كثيرا وغالبا • حتما انه ليس من صالح الناس والمجتمع أن يقتل بعض الافراد خنقا ، فى فراشهم أو فى أى مكان من وقت لآخر أو فى أى وقت أبدا ، ولكن العيب كل العيب والخطأ كل الخطأ

ان يعامل الملحد او الزنديق كما يعامل القاتل الذى يخنق الناس ويقتلهم ، وأن يوضع الذوق الـرديء او التصرف السمج الممجوج على قدم المساواة مع السرقة والجريمة . ان حاجة المجتمع الى التطور الحر الطليق ، هى الاساس الوحيد للتسامح ، هى الحجة الوحيدة السليمة ضد محاكم التفتيش ومجالس السرقابة ، هى السبب الوحيد الذى يمنع احراق الملحدين وارسال كل منحرف عن الصراط المستقيم ، الى مستشفى المجانين

وبالاختصار ، لقد اصبحت مثلنا العليا كآلهة اجدادنا القدماء تطالب وتطالب دائما بضحايا بشرية . ويقول ايسن : دعونا لانسمح بوضع اى من هذه المثل العليا فى مكان أعلى من مكان المسئولية - مسئوليتها هى والتزامها هى بأن تثبت لنا فى كل وقت انها تستحق التضحيات التى تطالب بها - دعونا نمنح لاي شخص ولكل شخص الحق فى أن يمتنع - بوازع دينى فى نفسه - عن أن يضحي بنفسه او بالآخرين فى سبيل أى مثل أعلى من الملاحظة التى يفقد فيها ايمانه بهذا المثل الاعلى او بصوابه . وسوف يقال فى هذا الصدد بالطبع ، ان هذا أبعد ما يكون عن الخروج على قواعد الاخلاق بل على العكس هو من أسمى الاخلاقيات . سيقول هذا قراء ثرثارون تافهون لا يعرفون معنى ما يقولون ، ولا رجاء فى تقويمهم . . . والحق انى لن أبدد مزيدا من الكلمات على الذين لا يعنون بالكلمة هذا الامر او غيره ، ولا يسمحون لى بأن اعنى ما اقول . وحسبى من القراء اولئك الذين افلتوا من سلطان المثل العليا السائدة ، فهؤلاء لن تنشأ بينهم يوما ما مشكلة بشأن سلامة مسرحيات ايسن من الناحية الاخلاقية . اما الخاضعون لسلطان المثل العليا السائدة،

فسوف يستنكرون مسرحياته ويرمونها بتهمة اللاأخلاقية
أو المنافية للفضيلة ، ولا يمكن الدفاع عنها ضد هذا
الاتهام ..

ولست أرى محلا للتساؤل عن الاثر الذى يحتمل ان
يترك فى نفس الشخص عندما يتحول من حالة التسليم
التقليدى بصحة المثل العليا السائدة وتقبله لمعايير
مضمونة للسلوك ، الى حالة التفتح الذهنى لابسنا وأفكار
ابسن . فلا بد أن يكون أول انطباع فى نفسه هو تعميق
أحاسيسه بالمسؤولية الاخلاقية وبالالتزام الاخلاقى الى
حد كبير . وقبل حدوث هذا التحول ، لا يجد المرء أسوأ
من لحظة وقوف ضميره موقف الامتحان فيسأل : هل
اتبعت الوصايا العشر ؟ هل أطعت القانون ؟ هل وازبت
على الذهاب الى الكنيسة ؟ هل دفعت ضرائبك للقيصر ؟
هل ساهمت مساهمة معقولة فى الجمعيات الخيرية ؟ قد
يكون من الصعب اداء كل هذه الفرائض ، ولكن عدم اداؤها
أصعب من اداؤها

ويعرف ذلك حق المعرفة الاخلاقيون الجبناء وعددهم
تسعة وتسعون من كل مائة فان فى وسع الوغد أن يؤدبها
جميعا ويحيا مع ذلك حياة أسوأ من حياة المهرب او البغى
التي ينبغى عليها أن تجيب « بلا » على جميع الاسئلة
الدينية (١) استبدل بمثل هذا الاختبار التكنيكي اختبارا
اخر مختصرا ، ليس فيه غير سؤال واحد يجاب عليه .
مذنب أم غير مذنب ؟ سؤال لا يضيف على الطهارة احتراماً
اكثر مما يضيفه على الاباحية ، ولا على الذل أكثر مما
يضيفه على الشمم والاباء ولا على اتباع القانون أكثر مما
يضيفه على خرق القانون ولا على الورع والتقوى أكثر مما

(١) Catechism الطقوس المسيحية الخاصة بتعليم أصول الدين
عن طريق الاسئلة والاجوبة

يضيفه على المروق والالجاد : وبالاختصار سؤال لا يضيف
على الفضائل السائدة احتراماً أكثر مما يضيفه على الرذائل
السائدة - في هذه الحالة ستجد أن المستوى الأخلاقي
لا ينخفض نتيجة للتساهل في اختبارات الاستحقاق
والجدارة ، بل يرتفع نتيجة للتشدد في تلك الاختبارات
لدرجة لا تسمح باجتيازها لاي جبن اخنلاقي او حتى
لمجرد الانتهازية والنفاق

وهذا بطبيعة الحال لا يرضى الانتهازى المنافق .
فالسيدة « المحترمة » التى تبنى مكانتها المحترمة بين
الناس وفقاً لادق المبادئ والتعاليم الكنسية وتربى اولادها
على سنن اخلاقياتها المثالية بغير لين او هوادة ، يعمد
اولادها عندما يبلغون سن الاستقلال واذا ما بقيت فيهم
بقية من روح حرة ، يعمدون الى استخدام حريتهم للدفاع
مباشرة الى أحضان الشيطان بجنون مذهل : ان هذه
المرأة المحترمة ، طاهرة الذيل ، التى لا غبار عليها ، قد
شعرت وكانت تشعر طوال عمرها بأن احترام الناس لها -
وهو ما اكتسبته بعناء شديد - هو احترام زائف مصحوب
بالاحتقار العميق . وانها لتشعر آنذاك بشعور المظلوم
الذى يخس حقه بخساً ، كلما رأت آخر سلالات « نل
جوين » (١) الروحيين ممن لا يجرؤ انسان محترم على
الانحناء لهم في الطريق ، ذائعات الصيت محبوبات بل
معبودات للجماهير . والسبب الذى لا تعرفه السيدة
المثالية لهذا الظلم والعين ، هو أن « نل جوين » أفضل
منها في ميزان النساء ، فلو الغينا الاختبار المثالى الذى

(١) Nyll Gwynn ١٦٥٠ - ١٦٨٧ الممثلة الانجليزية
الشهيرة وعشيقة الملك تشارلز الثانى . اتخذت مثلاً للعاهرة التى تباع
جسدها لكل انسان

تخرج منه « نل » امرأة سيئة السمعة والمكانة ، واستبدلنا به اختبارا واقعيا فسوف يكشف عن حقيقة الفارق بينهما ، وسيكون خطوة الى الامام في مجال الاخلاق العامة وخطوة مرغوبا فيها الى اقصى حد خاصة وان الاختبار سيضع الجانب الطيب في الانتهازى المتنافق امام الجانب السيء في البوهيمى ، بنفس الشدة والدقة التى يضع لها الجانب الطيب فى البوهيمى امام الجانب السيء فى الانتهازى : ذلك انه مادام التقليد يتعارض مع الواقع فى هذه الامور ، فسوف يساق الناس الى الوقوع فى غلطة هيداجابلر . . . الى ان يجعلوا من الرذيلة مثلا اعلى فاذا حافظنا على التقليد الذى يقضى بأن الفارق بين « كاترين » قيصر روسيا و « فيكتوريا » ملكة بريطانيا وبين « نل جوين » و « مسز برودى » هو فارق بين المرأة الشريرة والمرأة الفاضلة فلا شيء يدعونا للدهشة عندما يرى المتعاطفون مع كاترين ونل ان من الخير للفتاة ان تكون امرأة منحلة من ان تكون متشددة متزمتة . ثم يندفعون من ذلك بلا تحرز فيتعصبون ضد الامتناع عن شرب الخمر والاكتفاء بزوجة واحدة . ليتسلط عليهم هياج المخمورين . وشسبق الاباجيين . ان ابسن نفسه أكثر تعاطفا مع الرجل الذى يمضى فى طريقه لا يلوى على شيء . فيكون خليعا وسكيرا ، منه مع ذلك الرجل المجترم الذى لا يجسر ان يكون الا رجلا محترما . ونحن نعلم ان الصبى الصغير كلما كان أكثر صراحة مع نفسه ، وأصح نفسا وبدنا ، أبقنا انه سيفضل القراصنة وقطاع الطرق او فرسان ديماس الثلاثة على « أعمدة المجتمع » ويجعلهم ابطالا رومانسيين له . وقد رأينا بالفعل أنصارا لابسن وخصوما له يظنون ان المفزى من شخصيات « نورا » « ومسز الفستد » هو وضع

قاعدة ذهبية للنساء الراغبات في « التحرر » : وتتلخص هذه القاعدة الذهبية المزعومة في عبارة « اهربى من زوجك » غير ان رأى ابسن في الحياة ، هو ادانة هذه القاعدة كما أدينت القاعدة الاكليريكية السماوية التى تقول للمرأة . « ارتبلى بزواجك حتى يفرق الموت بينكما » . وأكثر الناس يعرفون حالة او حالتين يكون من الحكمة والصواب فيهما ، ان تحذو المرأة حذو « نورا » او حتى حذو « مسز الفستد » . ولكن عليهم أن يعرفوا أيضا ان هناك حالات اخرى اذا مافعلت فعلهما ، انتهت نهاية « تراجيكوميك » كما انتهت محاولات « جريجزويل » فى البطة البرية لان يفعل بآل « اكداال » مافعلته « لونا هيسل » بآل « برنك » ان الشئ الذى يصر ابسن عليه اصرارا ويؤكدده تأكيدا هو أنه ليس هناك قاعدة ذهبية ، وأن السلوك - كل السلوك - يجب أن يبرر نفسه بالاثر الذى يتركه على صفحة الحياة ، لا باتسجامه مع أبة قاعدة او مع أى مثل أعلى . وما دامت الحياة هى تحقيق ارادة ، والارادة هى شئ نام متطور على الدوام ، وانها لايمكن ان تتحقق اليوم فى الظروف التى تحققت فيها بالامس ، فان ابسن يطالب ويطالب من جديد بالحق البروتستانتى القديم : حق المرأة فى أن يحتكم الى نفسه أى حق الاجتهاد الشخصى فى مسائل السلوك ، وان يحصن هذا الحق ضد جميع النظم والمنظمات والمؤسسات بما فى ذلك الكنائس البروتستانية نفسها هنا يجب أن أترك المسألة ولا اضيف شيئا ، الا أن ينبه الذين قد يحسبون أنى فى نهاية مطافى نسيت أن أصوغ لهم « الابسنية » أو المذهب الابسنى فى صيغة مقننة او فى بنود مبندة مذكرا اياهم أن جوهر الابسنية هو انه لا صيغ ولا بنود ولا قوانين . القاعدة الابسنية هى ألا يكون هناك قاعدة ..

فهرس

صفحة

مقدمة .. ٧

الفصل الاول

المساواة .. ١٨

مشكلة الارض .. ٢٦

شو يتحدث عن الفقر .. ٤٢

الفساد فى الدولة .. ٧٩

الفصل الثانى

فى أمريكا .. ٩٦

شو وداروين - الداروينية وضبط النفس .. ١١٧

شو وداروين - التطور فى المسرح .. ١٣٦

الفصل الثالث

تولستوى - تراجيدى أم كوميدى ؟ .. ١٤٨

نيتشه - أداء فريضة الشيطان .. ١٥٩

بيتهوفن .. ١٦٤

شو وفاجنر - كنز الراين .. ١٧٣

الفصل الرابع

شو وفاجنر - فاجنر الثورى .. ٢٠٠

شو وشكسبير - لوم الشاعر .. ٢١٠

شو وابسن - المثاليات والمثاليون .. ٢١٨

شو وابسن - المرأة الكاملة .. ٢٣١

شو وابسن - مغزى المسرحيات .. ٢٤٨

وكلاء اشتراكات مجلات دار الفلاح

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

البرازيل :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

سنغافورة :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

انجلترا :



هذا الكتاب

اجاب برناردشو « ١٨٥٦ - ١٩٥٠ » على سؤال بسيط من احدى السيدات هو : ما هي الاشتراكية ، بمجلد ضخيم يزيد على ربع مليون كلمة : وسأله سائل عن الرأسمالية فأشار الى صلته والى لحيته وقال بايجاز شديد : « غزارة في الانتاج وسوء في التوزيع » . يمثل هذه القدرة العبقريّة على الافاضة وعلى التركيز مع الوضوح التام في الحالين ، كتب شو في السياسة والاقتصاد والنقد والموسيقى والدين والعلم ، وفي كل ضروب المعرفة البشرية تقريبا ، فضلا عن مدرسته الخاصة في المسرح العالمي التي مازالت - الى اليوم - راسخة القدم ..

ومنذ وقف شو وقفته المشهودة في الدفاع عن شهداء دنشواي سنة ١٩٠٦ نشط الكتاب والمترجمون العرب في دراسة ونقل بعض مؤلفاته الى العربية فضلا عن عدد من مسرحياته التي اذيعت أو مثلت بالعربية . ولكن لا يزال أكثر مؤلفات شو « وتبلغ ٣٤ مجلدا منها ١٩ مجلدا مسرحيات عدا الرسائل » لم ينقل بعد الى لغتنا العربية . فكانت فكرة هذه « المختارات » التي احتوت - على صفرها - مواد لم يسبق نشرها بالعربية ، وعلى أن تكون في نفس الوقت مطابقة لمقتضى الحال أي متمشية مع روح المرحلة النضالية الراهنة التي يمر بها مجتمعنا العربي ، مرحلة بناء الاشتراكية وبناء الانسان العربي الجديد ..